لماذا ؟ لأن الحق قال : « كما لم يؤمنوا به أول مرة » ، أى أنهم لم يتغيروا ولذلك يصدر ضدهم الحكم « ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » والطغيان هو تجاوز الحد ، وهم قد تجاوزوا الحد هنا فى استقبال الآيات ، فقد جاءتهم آيات القرآن وعجزوا عن أن يأتوا بمثلها ، وعجزوا عن أن يأتوا بعشر سور ، وعجزوا عن أن يأتوا بسورة ، وكان يجب ألا يطغوا ، وألا يتجاوزوا الحد فى طلب الاقتناع بصدق الرسول .

« ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » و« العمه » هو التردد والحيرة ، وهم فى طغيانهم يترددون ، لأن فيهم فطرة تستيقظ ، وكفرا يلح ؛ يقولون لأنفسهم : أنؤمن أو لا نؤمن ؟ والفطرة التى تستيقظ فيهم تلمع كومضات البرق ، وكان يجب ألا يترددوا : أو « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم » فى النار ؛ لأن البصر لم يؤد مهمته فى الاعتبار ، والقلب لم يؤد مهمته فى الفقه عن الله ، فيجازيهم الله من جنس ما عملوا بأن يقلب أبصارهم وقلوبهم فى النار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

هنا يوسع الحق المسألة . فلم يقل : إنهم سوف يؤمنون ، بل قال : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة » مثلما اقترحوا ، أو حتى لو كلمهم الموتى ، كما قالوا من قبل :

﴿ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الدخان)

ويأتى القول : « وحشرنا عليهم كل شىء » و« الحشر » يدل على سوق بضغط مثلما نضع بعضا من الكتب فى صندوق من الورق المقوى ونضطر إلى أن نحشر كتابا لا مكان له ، إذن : الحشر هو سوق فيه ضغط ، وهنا يوضح الحق : لو أننى

أحضرت لهم الآيات يزاحم بعضها بعضا وقدرتى صالحة أن آتى بالآيات التى طلبوها جميعا لوجدت قلوبهم مع هذا الحشر والحشد تضن بالإيمان .

« وحشرنا عليهم كل شىء قبلا » و« قبلا » هى جمع « قبيل » ، مثل سرير وسُرُر .

« وحشرنا عليهم كل شىء قبلا » . وهذا يعنى أن الحق إن جاء لهم بكل ما طلبوا من آيات ، وكأن كل آية تمثل قبيلة والآية الأخرى تمثل قبيلة ثانية ، وهكذا . فلن يؤمنوا ، أو « قُبُلا » تعنى معاينة أى أنهم يرونها بأعينهم ، لأن فى كل شىء دُبُرا وقُبُلاً ؛ والقُبُل هو الذى أمام عينيك ، والدبر هو من خلفك . فإن حشرنا عليهم كل شىء مقابلا . ومعاينا لهم فلن يؤمنوا . وإن أخذتها على المعنى الأول أى أنه سبحانه إن حشد الآيات حشدا وصار المُعْطَى أكثر من المطلوب فلن يؤمنوا . وإن أردت أن تجعلها مواجَهةً ، أى أنهم لو رأوْا بعيونهم مواجهة مَن أمامهم فلن يؤمنوا .

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١١١ سورة الأنعام)

وجاء الحق هنا بمشيئته لأن له طلاقة القدرة التى إن رغب أن يرغمهم على الإيمان فلن يستطيعوا رد ذلك ، ولكن الإرغام على الإيمان لا يعطى الاختيار فى التكليف ولذلك قال سبحانه :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

والله لا يريد أعناقا تخضع ، وإنما يريد قلوبا تخشع . لذلك يذيل الحق الآية بقوله : « ولكن أكثرهم يجهلون » . والجهل يختلف عن عدم العلم ، بل الجهل هوعلم المخالف ، أى أن هناك قضية والجاهل يعلم ما يخالفها ، أما إن كان لا يعلم القضية فهذه أمية ويكفى أن نقولها له حتى يفهمها فورا . لكنْ مع الجاهل هناك مسألتان : الأولى أن نزيل من إدراكه هذا الجهل الكاذب ، والأخرى أن نضع فى

إدراكه القضية الصحيحة ، وما دام أكثرهم يجهلون . فهذا يعنى أنهم قد اتبعوا الضلال .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

« و كذلك » إشارة من الحق سبحانه وتعالى إلى الرسل والأنبياء ليعطى الأسوة للرسول بإخوانه السابقين له فى موكب الرسالات ، فلست بدعا ـ يا محمد ـ فى أنك رسول يُواجَه بأعداء ، فكل رسول من الرسل ووجه وقوبل بهؤلاء الأعداء .

وهل فَتّ أعداء الرسل فى عضد مَن أرسل إليهم وأضعفوا قوتهم وأوهنوا عزائمهم وأثنوهم عن دعوتهم ؟ أو ظل الرسل أيضا صامدين ؟ . . إنهم صمدوا وأيدهم الله ونصرهم وإذا كنت أنت خاتم الرسل ، وسيد المرسلين ، والمعقب على رسالات سبقتك ولا معقب على رسالتك فلابد أن يكون الأعداء الذين يواجهونك مناسبين للمهمة التى تؤديها . وإياك أن تظن أن المقصد فى هذه العداوة أننا تركناهم أعداء لمجرد العداء ، لا ، بل نحن قد أردنا هذه العداوة لصالح الدعوة ؛ لأن الإنسان إذا ما كان فى منهج خير وأهاجه الشر يتحمس لمزيد من الخير . ولذلك لا تجد الصحوات الإيمانية إلا حين يجد المؤمنون تحديا من خصومهم ، هنا تجد الصحوة الإيمانية قد استيقظت لأن هناك خصوما يتحدونها ، ولو لم يكن هناك خصوم لبقيت الصحوة فاترة . وهذا ما نراه حين يوجد من خصوم الإسلام من أى لون من ألوانهم مَن يتحدى أى قضية من قضايا الدين . فى هذه الحالة نجد حتى غير الملتزم بمنهج الإسلام يغار على الدين .

إذن فالعداوة لها فائدة ، وإياك أن تظن أن فى أى مظهر فى الوجود يُغلب الله على مراداته فى كونه ، والشر له رسالة لأنه لولا أن الشر موجود ويصاب الناس من أذاه لما تحمس الناس للخير ، فالذى يجعلنا نتحمس للخير هو وجود الشر ، وأوضحنا من قبل أن الباطل جندى من جنود الحق ؛ لأن الباطل حين يعض ويعربد فى الناس يتساءل الناس متى يأتى الحق لينقذنا ، وأنك ساعة ترى مريضا يتألم إياك أن تظن أن الألم قد جاءه دون سبب ، بل الألم جندى من جند الشفاء . وكأن الألم يقول لمن يصيبه : يا إنسان تنبه أن عطبا فى هذا المكان فسارع إلى علاجه . ولذلك نجد أعنف الأمراض وأشرسها وأخبثها ، هى الأمراض التى تأتى بلا ألم يسبقها ، ولا تظهر أعراضها إلا بعد أن يستعصى شفاؤها ، وهكذا نرى أن الألم جندى من جنود العافية .

وحين يكون لك عدو فى الحارة أو فى البلدة وعيونه مركزة عليك فأنت تخاف أن تقع منك هَنة وعيب حتى لا يشنّع عليك ؛ لذلك تسير على الصراط المستقيم لأنك لا تريد أن تنصره على نفسك .

والشاعر القديم ، الذى أعجبه الشعر فشطره . يقول لك :

عداى لهم فضل علىّ ومنة ... فعندى لهم شكر على نفعهم ليا
فهم كدواء والشفاء بمرّه ... فلا أبعد الرحمن عنى الأعاديا
همُ بحثوا عن زلَّتى فاجتنبتها ... فأصبحت مِمّا دنس العرض خاليا
وهم أججوا جهدى ولكن ببغضهم ... وهم نافسونى فاكتسبت المعاليا

لذلك لابد أن تنظر إلى كل شىء بحكمة إيجاد الحكيم له فقد شاء الحق أن يوجد الأعداء للدعوة الإسلامية حتى تنتصر وتقوى .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وجعل الحق سبحانه وتعالى الأعداء للأنبياء ، مهيِّجين ومثيرين للنبى ولأتباعه ؛ لأن الأمر إذا حصلت فيه معارضة من مخالف أججت فى نفس المقابل قوة حتى لا يهزم

أمامه ولا يغلب أمام منطقه . ولذلك قال الحق : « وكذلك جعلنا » أى أنهم لم يتطوعوا بالعداوة إنما هو تسخير للعداوة « جعلنا لكل نبى عدوًّا » .

وكيف يجعل الله لكل نبى عدوًّا ؟ إنه يفعل ذلك بما أودع فى الناس من الاختيار ، وما داموا مختارين فالذى اختار الهدى يكون نصيراً للنبى ، والذى اختار الضلال يكون عدوًّا للنبى .

إذن فهم لم يكونوا أعداء بطبيعتهم ، وإنما بما أودع الله فيهم من الاختيار .

وإذا كان الله هو الذى أودع الاختيار فقد أراد أن يحقق مشيئته فى قوله :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

ولو شاء الله ألا يكون للنبوة أعداء لفعل ذلك ؛ لأن له طلاقة القدرة ، ولكن ذلك سيكون بالقهر ، والله لا يريد قهراً للعقلاء ، وإنما يريد أن يذهبوا إليه بمحض اختيارهم ؛ أى وهم قادرون على ألا يذهبوا . وكلمة « عدو » فى ظاهرها أنها مفرد ، ولكنها تطلق على الواحد ، وتطلق على الاثنين ، وتطلق على الجماعة ، فتقول : « هذا عدو لى » ؛ و « هذه عدو لى » ؛ ولا تقل « عدوة » ، وتقول : وهذان عدو لى ، وهاتان عدو لى ، وهؤلاء عدو لى ، لأن كلمة « عدو » تطلق على الذكر والأنثى وتقال للمفرد وللمثنى ، وللجمع .

اقرأوا قول الحق :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

واقرأوا قول الحق :

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

ولم يقل أعداء ، إذن فكلمة « عدو » تطلق على المفرد والمفردة ، والمثنى والمثناة ،

وعلى جمع المذكر ولجمع المؤنث . لكن بعض الذين يحبون أن يكونوا مستدركين على كلام الله . يقول الواحد منهم : كيف يقول : « فإنهم عدو لى » ، أو « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » ؟! ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

والشيطان عدو ، وهم عدو . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة آل عمران)

ونقول له : أنت قد فاتك أن الذى يتكلم هو الرب الأعلى . والعداوة نوعان ، فإذا تعدد العدو ، وجمعته مصلحة واحدة فى معاداة المعادى يكونون وحدة فى العداوة فهم عدو واحد لاجتماعهم على سبب واحد فى العداوة . لكن إذا تعددت أسباب العداوة فالأمر يختلف ، فقد يكون لك عدو لأن مظهرك أحسن منه ، وعدو آخر لأنك أذكى منه ، وعدو ثالث لأنك أغنى منه . فلتعدد الأسباب صار كل واحد منهم عدوًّا برأسه وجمع على أعداء لتعدد سبب العداوة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

وشياطين الإنس والجن كما يقول النحاة بدل من عدو و« شياطين » جمع شيطان وهو اللعين المطرود ، البغيض ، سواء أكان من الإنس أم من الجن .

« يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » والوحى ـ كما نعرف ـ هو إعلام بخفاء ، ولماذا يوحى بعضهم إلى بعض ؟ لأن غلبة الحق لا تجعلهم قادرين على أن يتجاهروا ؛ لذلك يتآمرون مع بعضهم البعض ، لكن الناس المحقين فى قضية يتحركون فى علانية . ولا يستخفون من الناس .

« يوحى بعضهم إلى بعض » ومن الذى يوحى ؟ ومن الذى يوحى إليه ؟ ليس لنا دخل بهذا الموضوع ، إنما الوحى : هو إعلام بخفاء ، إن كان إلهاماً فى النفس ، أو إن كان بالإشارة أو بالدس ، أو إن كان بالوسوسة ، أو إن كان بواسطة رسول نحن لا نراه ، كل ذلك أساليب الوحى الشامل للخير والشر .

وإذا كان الوحى من شياطين الجن فهل يوحون إلا بشَرّ ؟ نعم . وكذلك هناك شياطين من الإنس يوحون أيضاً بشرّ . مصداقاً لقوله الحق : « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » وزخرف القول ، المقصود به أنهم يدخلون على المسائل بالتزيين ، فيزينون للناس الشهوة ، ولذلك سماها ربنا « وسوسة » ، ونعلم أن المعانى حين يؤخذ لها ألفاظ تؤخذ من الأشياء الحسيّة ، والوسوسة هى صوت الحلى ، وقد اختار الله لما يفعله الشياطين من الإنس والجن اللفظ الموحى بالمعني المراد لأن وسوسة الحلى تغرى بالنفاسة وعظم القيمة ، والوسوسة طريقها هو الخفاء .

« يوحى بعضهم إلى بعض » وهم شياطين من الإنس والجن ، إنس يوحى لإنس بأن يزين له المعصية والشهوة ، وكثيراً ما يقع ذلك .

وجنّى يوحى لجنّى ؛ لأن الجن مكلَّف أيضاً . وكذلك يوحى الجن للإنس

« يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » الزخرف . هو الشىء المزين ظاهره لكن باطنه فاسد ، ولذلك قال عز وجل :

﴿وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

(من الآية ٣٥ سورة الزخرف)

أى أموراً مزخرفة ظاهراً ، لكن ليس لها عمق أو عمر أو نفاسة .

﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

وذلك ليغروهم ويخدعوهم ليفعلوا ويقترفوا المعصية ، وإن لم يأتوا للمعصية بكلمات تزخرفها وتزينها فلن يستطيعوا أن يدخلوا بها على الناس ؛ لذلك يعرضون ويبدون محاسن المعصية فى ظاهر الأمر ، مثال ذلك أنك لا تجد من يقول لآخر :

اشرب الخمر لتصاب بتليف الكبد مثلا !! ولكن هناك من يقول : احتس الخمر ليذهب همك وتنشط نفسك ويكثر فرحك .

« زخرف القول غروراً » أى ليغروهم ؛ بإظهار فائدة موهومة فيه ، ويسترون عن الناس مضرّة هذا الشىء ومهالكه .

ويتابع سبحانه : « ولو شاء ربك ما فعلوه » إنّ الحق سبحانه وتعالى هوالذى أعطى خلقه اختياراً فى أن يكونوا مؤمنين أو أن يكونوا كافرين ، مهديين أو ضالين ، فى نور أوفى ظلمة . ويأتى الوقت الذى يثيب فيه سبحانه أو يعاقب ؛ لذلك فهو ـ جل شأنه ـ لا يرغمهم على فعل ثم يعاقبهم عليه ؛ لأنه هو العدل . ولذلك نجد من يقول : لماذا العقاب ولا شىء فى الكون يقع على غير مشيئةالله ؟ ونقول : نعم كل شىء من فعل الله ؛ لأن سبب الاختيار من الله . وسبحانه هو الذى خلق الاختيار . فالكافر لا يقدر أن يؤمن إلا إن شاء الله ، لكن المطلوب منه أن يؤمن لأن طبيعته صالحة للكفر وصالحة للإيمان .

إذن خلق الله الإنسان مختاراً فى أن يفعل أو لا يفعل فى بعض الأمور ، فالذى ينظر إلى أن كل فعل من الله أى ليس بطاقة من عبد ، نقول له : صح رأيك . ومن يقول : إن هذا الأمر من العباد نقول له أيضاً : صح موقفك ؛ لأن ربنا خلق الإنسان صالحاً لأن يحصل منه كذا ويحصل منه كذا . فإن أردت الحقيقة تجد كل فعل يأتى من الله ، فأنت ـ على سبيل المثال ـ لم تخلق القوة التى لليد لترتفع ، ولا خلقت القوة للأصابع لتنقبض . وإذا أردت أن تقبض يدك . فما هى العضلات التى تتحرك لتفعل الانقباض ؟ أنت لا تعرف . إنّك تقبض يدك بمجرد إرادة منك أن تقبضها ، والذى خلق لك هذه القوة يأمرك ألا تستعملها فى قهر الآخرين ، ولكن عليك أن تستعملها فيما يفيد الناس . واليد صالحة للضرب وللعمل الطيب وأنت لم تخلق الطاقة التى فى اليد ،ولا خلقت الانفعال فيها لإرادتك .

« ولو شاء ربك ما فعلوه » أى لو شاء عدم فعله لفعل ؛ لأن له طلاقة القدرة فلا يقدر أحد أن يخرج عن مراده أبداً . ونحن نرى السماء والأرض وكل ما دون الإنسان مسخراً ، ثم لماذا نأخذ أمثلة من السماء والأرض والنبات والجماد والحيوان ؟ خذ المثال من نفسك . أنت فيك أشياء ليس لك سيطرة عليها ، ولا اختيار لك عليها ، ألك اختيار أن تمرض ؟ . لا .

ألك اختيار أن يقع عليك حجر وأنت تمشى ؟ . لا .
ألك اختيار فى أن يصيبك سائق سكران ؟ . لا .

ألك اختيار فى أن تموت أو لا تموت ؟ . لا . لقد جعل الله فيك الأمرين الاثنين : قهرك فى أمور. والقهرية تثبت له ـ سبحانه ـ القدرة وطلاقتها ، وجعلك مختارا فى أشياء ، والاختيار يثبت صحة التكليف .

ويتابع الحق مذيلاً الآية : « فذرهم وما يفترون » لأن افتراءهم وكذبهم وزعمهم الباطل لن يغير من حقيقة الأمر شيئاً ، وهم يرون أن افتراءهم يعوق الدعوة ، لا ، فقد صار افتراؤهم وكيدهم وعداوتهم للنبى وقوداً مهيّجاً للدعوة ؛ لأنه يخلص الدعوة من الشوائب ويصهر المؤمنين بها ويخرج منهم خصال الشر ويملأهم بخلال الخير .

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ولو لم يكن هناك مهيّجات لهذه المسائل لدخل الدعوة العاطل والباطل ولاندس فينا من لا يعرف قيمة الإيمان ؛ لذلك يمحص الله الدعوة بالأعداء وبالقوم الذين يقفون أمامها حتى لا يكون فى حملة الدعوة أحد من ضعاف العقائد وضعاف الإيمان ، وهم الذين يخرجون هرباً من مسئوليات الإيمان ولا يبقى إلا أصحاب الرسالة الذين يخلصون الصدق مع الله وينقيهم الله بواسطة الأعداء . ولذلك قال :

﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾

(من الآية ٤٧ سورة التوبة)

فمن الحكمة أنه ـ سبحانه ـ ثبط عزيمتهم وضعّف رغبتهم فى الانبعاث والخروج معكم .

﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وهنا يقول الحق : « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » وزخرف القول هو لون من الأداء له سُمَّاع ، ومن يسمعونه قد لا يؤثر فى قلوبهم ولا فى نفوسهم ، ومرة أخرى يسمعونه ويكون عندهم ميل وليس عندهم عقيدة ثابتة راسخة إلى هذا القول .

وكيف يسلك هؤلاء الناس :

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

كأن من يؤمن بالآخرة لا يقرب منه الزخرف أبداً ولا يميل إليه . وإن زُينت له معصية فإنه يتساءل : كم ستدوم لذة هذه المعصية ؟ دقيقتين ، ساعة ، شهراً ؛ وماذا أفعل يوم القيامة الذى يكون فيه الإنسان إمّا إلى دخول الجنة وإمّا إلى دخول النار . إذن فمن يؤمن بالآخرة لا تتقبل أذنه ولا فؤاده هذا الزخرف من القول ، ولا يتقبله إلا من لا يؤمن بالآخرة ، وهو لا يعرف إلا الدنيا ، فيقول لنفسه : فلتتمتع فى الدنيا فقط ، ولذلك لو استحضر كل مؤمن العقوبة على المعصية ما فعلها ، وهو لا يفعلها إلا حين يغفل عن العقوبة . وإذا كنا فى هذه الدنيا نخاف من عقوبة بعضنا بعضاً ، وقدراتنا فى العقوبة محدودة ، فما بالنا بقدرة الرب القاهرة فى العقوبة ؟! ولذلك نجد الذين يجعلون الآخرة على ذكر من أنفسهم وبالهم إذا عرضت لهم أى معصية ، يقارنونها بالعقاب ، فلا يقتربون منها . (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون) .

والإصغاء هو ميل الأذن إلى المتكلم ؛ لأنك قد لا تسمع من يتكلم بغير إصغاء ، وحين يسير الإنسان منا فى الطريق فهو يسمع الكثير ، لكن أذنه لا تتوقف عند كل ما يسمع ، بل قد تقف الأذن عندما يظن الإنسان أنه كلام مهم . ولذلك يسمونه التسمع لا السمع ، وهذا هوالإصغاء . ولذلك يقول النبى عليه الصلاة والسلام : من تسمع غانية ـ أى امرأة تغنى بخلاعة ـ ولم يقل : « من سمع » ، والإنسان منا قد يسير ويذهب إلى أى مكان والمذياع يذيع الأغانى ، ويسمعها الإنسان ، وآلة إدراك

السمع منطبقة وليست مفتوحة ؛ فهو لا يتصنت ، وآلة إدراك الانطباقية أو الانفتاحية مثل العين ؛ فالعين لا ترى وهى مغمضة ، إنها ترى وهى مفتوحة ، والعين تغمض بالجفون أما الأذن فليس لها جفون يقول لها : لا تسمعى هذه ، وهذه اسمعيها .

إذن فالسمع ليس للإنسان فيه اختيار ، لكن التسمع هو الذى له فيه اختيار .

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

(سورة الأنعام)

كأن فيه شيئا ينبع طلب السمع فيه من الفؤاد ، أى يوافق ما فى الأعماق ، وشيئا آخر يمر عليه الإنسان مر الكرام غير ملتفت إليه . والأفئدة هى القلوب ، صحيح أن الآذان هى التى تصغى ، لكن القلوب قد تتسمع ما يقال ، وكأن النفس مستعدة لهذه العملية ؛ لأنها لا تؤمن بأن هناك آخرة وعندها استعداد لأن تأخذ لذة الدنيا دون التفات للآخرة . ولذلك ينقل الحق سبحانه الإصغاء من الأذن إلى الفؤاد وهذا إدراك .

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾

(من الآية ١١٣ سورة الأنعام)

ثم تأتى المرحلة الثانية والمرحلة الثالثة :

﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾

(من الآية ١١٣ سورة الأنعام)

وقد يصغى إنسان ، ثم تتنبه نفسه اللوامة ، ويمتنع عن الاستجابة . لكن هناك من يصغى ويرضى وجدانه ويستريح لما يسمع ، ثم ينزع للعمل ليقترف الإثم . وهذه ثلاث مراحل : الأولى هى : « ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة » . ثم المرحلة الثانية : « وليرضوه » ، ثم المرحلة الأخيرة : « وليقترفوا » أى يرتكبوا الإثم ، وهذه المسألة حددت لنا المظاهر الشعورية التى درسها علماء النفس فالإدراك ؛ « لتصغى » ، والوجدان ؛ « ليرضوه » ، والنزوع ؛ « ليقترفوا » .

وقبل أن يولد علم النفس جاء القرآن بوصف الطبيعة البشرية بمراحلها المختلفة من إدراك ووجدان ، ونزوع ، والشرع لا يتدخل عند أى مظهر من مظاهر شعور المرء إلا عند النزوع إلا فى حالة واحدة حيث لا يمكن فصل النزوع عن الوجدان وعن الإدراك ؛ لذلك يتدخل الشرع من أول الأمر ، وهو ما يكون فى عملية نظر الرجل إلى المرأة ؛ لأنك حين تنظر تجد فى نفسك : تحبها وتعشقها تفتن بها ، ويحرم عليك النزوع ، فحين تتقدم ناحيتها يقول لك الشرع : لا . ولأن هذا أمر شاق على النفس البشرية ، ولا يمكن فصل هذه العمليات ؛ لأنه إن أدرك وَجِد ، وإن وَجِد نزع ، فأمر الحق بالامتناع من أول الأمر :

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾

(من الآية ٣٠ سورة النور)

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾

(من الآية ٣١ سورة النور)

إذن فقد منع الإدراك من بدايته ولم ينتظر حتى النزوع ، لماذا ؟ لأن الإدراك الجمالى فى كل شىء يختلف عن الإدراك الجمالى فى المرأة . الإدراك الجمالى فى المرأة يُحدث عملية كيماوية فى الجسم تسبب النزوع ، ولا يمكن فصلها أبدا . (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون) .

وساعة ما نقول : « ما » ويأتى الإبهام فهذا دليل على أن هناك أموراً كثيرة جدًّا . ولذلك يقول الحق :

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾

(من الآية ٧٨ سورة طه)

أى أنه أمر لا يمكن أن تحدده الألفاظ ، مثله مثل قوله : (وليقترفوا ما هم مقترفون) .

أى أن كل واحد يقترف ويكتسب ويعمل ويرتكب ما يميل إليه ؛ فهناك من يغتاب أو يحسد أو يسرق وغير ذلك من شهوات النفس التى لا تحدد ؛ لذلك جاء لها باللفظ الذى يعطى العموم .

وما دامت المسألة فى نبوّة واتباع نبوّة ، وفى أعداء شياطين من الإنس والجن

ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً إذن فهذه معركة ، وحتى يتم الفصل فيها لابد من حاكم يحكم . فأوضح الحق : يا محمد أنا أرسلتك ، ولك أعداء وسيكيدون لك بكذا وكذا ويبذلون قصارى جهدهم فى إيذائك ومن اتبعك ، فإياك أن تبتغى حكما غيرى ؛ لأنى أنا المشرع وأنا من أحكم ، وأنا الذى سوف أجازى .

لماذا ؟ لأن الخلاف على ما شرع الله ، ولا يستقيم ولا يصح أن يأتى من يقول مراد المقنن كذا ، أو المفسر الفرنسى قال كذا ، والمفسر الإنجليزى قال كذا ، لا ، إن الذى يحكم هو من وضع القانون ، ومراداته هو أعلم بها ، والحق الواضح هو أعلم به ، وسبحانه هو من يحكم ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها)[1] .

أى إياك أن يقول واحد : إن النبى قد حكم ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد حكم بظاهر الحجة ، وقد يكون واحد من المختصمين قوى الحجة ، والآخر لا يجيد التعبير عن نفسه . إذن فالحكم هو الله لأنه هو الذى قنن ، وما دام هو الذى قنن وهو الذى يحكم بينكم ، فليطمئن كل إنسان يتخاصم مع غيره ؛ لأن القضية يفصل فيها أعدل العادلين وأحكم الحاكمين .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

فسبحانه هو من يحكم وهو من قنن ، وهو من يعلم القانون ويعلم من يتبع

(١) رواه مالك وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه .

القانون ، ومن يخالف القانون . وساعة تقول : « أفغير الله أبتغى حكما » . فهذا دليل على أنك واثق أن مجيبك لن يقول لك إلا : لا تبتغى حكما إلا الله ، ولذلك يطرح المسألة فى صيغة استفهام ، ويقول صلى الله عليه وسلم : مبلغا عن ربه : « وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا » ، ولم يقل رسول الله : وهو الذى أنزل علىّ الكتاب ، بل قال مبلغاً عن رب العزة : « وهو الذى أنزل إليكم الكتاب » كأن العداوة ليست لمحمد وحده ، لكنها العداوة لأمة الإيمان كلها ، والحكم لأمة الإيمان كلها . ومع أن القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً ، ولكن مهمته البلاغ إلى الناس والغاية منه للمؤمنين كلهم ، وهكذا تكون العداوة للنبى عداوة للمؤمنين كلهم ، ولذلك أنزل عليه الحق هذا التساؤل : « أفغير الله أبتغى حكماً » كما أنزل عليه من قبل القول الحق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

إذن فعدو النبى هوعدو للمؤمنين به والمتبعين له ، لكن قمة العداوة تكون للنبى المرسل من الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

وكلمة « من ربك بالحق » فيها إغراء للمؤمنين بأن كل الأمر يعود عليكم أنتم بالفائدة ؛ لأن غاية إنزال الكتاب لكم أنتم ، والكتاب جاء بهذا المنهج لصالحكم ولن يزيد فى صفات الله صفة ، ولن يزيد فى ملك الله ملكا . بل الغاية أنتم .

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

وسبحانه لم ينزل الكتاب إلا بتفصيل لا تلتبس فيه مسألة بأخرى :

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

والمقصود هنا بالذين آتيناهم الكتاب اليهود والنصارى ؛ لأنهم يعلمون صفاتك يا رسول الله ويعلمون نعتك ويعلمون الكثير من كتابك فكل ما يتعلق بك موجود عندهم لكن الآفة أنهم اعتنقوا دينين : دينا يعلن يبدونه ويظهرونه ، ودينا يُسَرّ به ، فما يسر به لا يعلنونه ويُحرِّمون السؤال فيه ، ولا يقبلون فيه نقاشاً ، وعندما تصل إلى الحقيقة وتعرضها عليهم لا يقبلونها ، وما الذى جعلهم يلتوون هكذا ؟ لأن لهم حالين اثنتين : حال أيام أن كانوا يعاديهم من لا يؤمن بالسماء ومنهج السماء كعبدة الأوثان والمشركين . وقال فيه الحق :

(وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا)

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

لقد كانوا من قبل أعداء للذين كفروا وأشركوا فكان همهم وشغلهم الشاغل أن ينتصروا على هؤلاء الكافرين ، وقالوا :

(أظل زمان نبى نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم)

وحينما جاءهم ما عرفوا كفروا به لأنهم :

(اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا)

(من الآية ٩ سورة التوبة)

وكان الثمن هو بقاء السلطة فى أيديهم ، وعندما تأتى النبوة تنزع منهم السلطة ، فليس فى الإسلام سيطرة لرجال الدين ولا كهنوت . وكانوا يريدون أن تستمر سيادتهم ، فاشتروا بآيات الله ثمنا قليلا .

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

وهم يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، وهم يعلمون أن الذى يشيعونه هو باطل . إذن فهناك علم بينهم وبين نفوسهم ؛ وعلم آخر يقولونه للآخرين . وقوله الحق : « فلا تكونن من الممترين » أى الشاكين فى أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق . هذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، ونعلم أنه إذا طلب المتكلم من المخاطب أمرا هو فيه فالمراد المداومة عليه والزيادة ؛ لأن هناك أموراً قد تزلزل الإيمان ؛ لذلك يأتى الأمر بالثبات ، أو هو إهاجة له ، أو هو تسلية للمؤمنين إذ قال لهم لا تمتروا ولا تشكوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

وكلمة « تمت » تدل على أن المسألة لها بداية ولها خاتمة ، فما المراد بالكلمة التى تمت ؟ . أهى كلمة الله العليا بنصر الإسلام وانتهاء الأمر إليه ؟ أو هو تمام أمر الرسالة حيث قال الحق :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

أو « كلمة ربك » المقصود بها قرآنه ؟ . ونرى أن معنى « تمت » استوعبت كل أقضية الحياة إلى أن تقوم الساعة ، فليس لأحد أن يستدرك على ما جاء فى كتاب الله حكماً من الأحكام ؛ لأن الأحكام غطت كل الأقضية . ولفظ « كلمة » مفردة لكنها تعطى معنى الجمع . وأنت تسمع فى الحياة اليومية من يقول : وألقى فلان كلمة طيبة قوبلت بالاستحسان والتصفيق . هو قال كلمات لكن التعبير عنها جاء بـ « كلمة » إذن « تمت كلمة ربك » المقصود بها المنهج الذى يشمل كل الحياة ، واقرأ قوله الحق :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾

(من الآية ٥ سورة الكهف)

أهى كلمة أو كلمات ؟ إنها كلمة ولكن فيها كلمات . إذن لفظ « كلمة » تطلق ويراد بها اللفظ المفرد ، وتطلق ويراد بها الكلام . والكلمة فى الأصل لفظ مفرد ، أى لا يكون معها لفظ آخر ، ولكنها تدل على معنى ، فإذا كان المعنى غير مستقل بالفهم ؛ ويحتاج إلى ضميمة شىء إليه لنفهمه فهذا حرف ، وأنت تقول : « فى » وهو لفظ يدل على الظرفية ، إلا أنه غير مستقل بالفهم ؛ لأن الظرف يقتضى مظروفاً ومظروفاً فيه ، فتقول : « الماء فى الكوب » لتؤدى المعنى المستقل بالفهم . وكذلك ساعة تسمع كلمة « مِن » تفهم أن هناك ابتداء ، وساعة تسمع كلمة « إلى » تعلم أن هناك انتهاء . وإن كان يدل على معنى فى نفسه وهو غير مرتبط بزمن فهو الاسم . وإن كان الزمن جزءًا منه فهو « الفعل » . أمَّا « الكلام » فهو الألفاظ المفيدة .

وحين تسمع كلمة « سماء » تفهم المعنى ، وكذلك حين تسمع كلمة « أرض » وهو معنى مستقل بالفهم . وحين تسمع كلمة « كتب » فهى تدل على معنى مستقل بالفهم ، والزمن جزء من الفعل ، فكتب تدل على الزمن الماضى و « يكتب » تدل على الحاضر و « سيكتب » تدل على الكتابة فى المستقبل . إذن فـ « الكلمة » لفظ يدل على معنى فإن كان غير مستقل بالفهم فهو حرف . و « الكلمة » قد يقصد بها الكلام .

وقوله الحق : « تمت كلمة ربك » تعنى الكثير . فإن إردت بها القرآن فالمقصود هو كلمة الله . وكلام الله نسميه « كلمة » لأن مدلوله كلمة واحدة . انتهت وليس فيها تضارب ، هذا إن أردنا بها القرآن ، ولتفهم أن القرآن قد استوعب كل شىء ، وكل قضية فى الوجود وأيضاً لم ينس أو بدّل فيه حرف ؛ بل بقى وسيبقى كما أُنْزَل ؛ لأن الآفة فى الكتب التى نزلت أنهم كتموا بعضها ونسوا بعضها ، وحرّفوا بعضها ، وكان حفظها موكولاً إلى المكلَّفين ، ومن طبيعة الأمر التكليفى أنه يطاع مرة ، ويعصى مرة أخرى . وإن أطاعوا حافظوا على الكتب ، وإن عصوا حرفوها بدليل قوله الحق :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

و « استحفظوا » أى طلب منهم أن يحافظوا عليه ، وهذا أمر تكليفى عرضة أن يطاع ، وعرضة أن يعصى ، لكن الأمر اختلف بالنسبة للقرآن فقد قال الحق :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فسبحانه هو من يحافظ على القرآن ، وليس ذلك للبشر لأن القرآن معجزة ، والمعجزة لا يكون للمكلَّف عمل فيها أبداً .

إذن فقوله الحق : « تمت كلمة ربك » المقصود بها أن تَطْمَئِن على أن القرآن الذى بين يديك إلى أن تقوم الساعة هو هو لن تتغير فيه كلمة ، بدليل أنك تتعجب فى بعض نصوص القرآن ، فتجد نصًّا مساويا لنص ، ثم يختلف السياق ، فيقول الحق :

﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة المدثر)

ومرة أخرى يقول سبحانه :

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة عبس)

ومرة أخرى يقول :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الإنسان)

فهذا لون ونوع من المتشابه من الآيات ليقول لنا الحق :

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة القيامة)

والحق يقول :

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩)﴾

(سورة المؤمنون)

وفى آية أخرى يقول :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤)﴾

(سورة المعارج)

وكل ذلك يدلك على أن كل كلمة وصلتك كما أنزلت ، وبذلك تكون كلمة ربك قد تمت . أو قول الله : « وتمت كلمة ربك » ليدل على أن كلمة الله هى العليا ، ولذلك تلاحظ أن « كلمة الله هى العليا » لم يجعلها الحق جعلاً ، وإنما جاءت ثبوتاً ، وسبحانه القائل :

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾

(من الآية ٤٠ سورة التوبة)

هذا السياق الإعرابى حصل فيه كسر مقصود ، والسياق فى غير القرآن أن يقول : وجعل كلمة الله هى العليا ، ولكنه سبحانه يقول :

(وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا)

وسبحانه أراد بذلك أن نفهم أن كلمة الله هى العليا دائماً وليست جعلاً . وهذا دليل على أن كلمته قد تمت .

ونلحظ أن قول الحق : « وتمت كلمة ربك » تأتى بعد « أفغير الله أبتغى حكماً » ، واستقرىء موكب الرسالات من لدن آدم ، وانظر إلى حكم الله بين المبطلين

والمحقين ، وبين المهتدين والضالين : إنه الحق القائل :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة العنكبوت)

والحاصب هو الريح التى تهب محملة بالحصى وكانت عقوبة لقوم عاد .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورةالعنكبوت)

وهم قوم ثمود ، يسميها مرة الصيحة ، وأخرى يسميها الطاغية :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝ ﴾

(سورة الحاقة)

ومرة يخسف بهم الأرض مثلما فعل مع قارون : (فخسفنا به وبداره الأرض) .

وكذلك : (ومنهم من أغرقنا) .

وقد أغرق الله قوم فرعون وكذلك أغرق ـ من قبلهم ـ المكذبين لنوح . إذن كل قوم أخذوا حكم الله عليهم ، لكنك يا محمد مختلف عنهم وكذلك أمة محمد التى أصبحت مأمونة على الوصية ، وعلى المنهج ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

وبعد أن بعث الحق رسوله صلى الله عليه وسلم قال :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

إذن « تمت كلمة ربك » ، وهى الفصل النهائى :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا

﴿لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾

(سورة الصافات)

وأنتم المنصورون لأنكم منسوبون إلى منهج غالب ، والنصر للمنهج الغالب يقتضى الإخلاص ، فإن تنصروا المنهج باتباعه ينصركم من أنزل المنهج ، فهو القائل :

﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾

(من الآية ٢١ سورة المجادلة)

وما قاله كان هو الواقع وما جاء به الواقع كان مطابقاً للكلام .

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾

(من الآية ١١٥ سورة الأنعام)

أى وافق الواقع الكونى ما قال الله به . وكيف كان الواقع صادقاً وعادلاً فى آن واحد ؟ لنفرض أنك أحضرت مدرساً خصوصيًّا لولدك ، وصادف أنه هو الذى يدرس فى المدرسة وهو الذى يدرس لابنك ثم قلت له : أريد أن ينجح الولد فى الامتحان . ووعد المدرس بذلك ثم جاء الامتحان ونجح الولد ، فتكون كلمة المدرس قد صدقت . لكن هل هذا عدل ؟ قد يكون المدرس هو واضع الأسئلة ولّمح للولد بالأسئلة ، ويكون النجاح حينئذٍ غير عادل ، لكن كلمة الله تجىء مطابقة لما قال ، موقعها مطابق لما قال ، وهى كذلك عدل ؛ لأنه سبحانه أوضح الثواب والعقاب : (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) . لأنه لا مبدل لكلمات الله ، ولا يوجد إله آخر يعارضه فله سبحانه طلاقة القدرة .

أما بالنسبة للبشر فقد علَّم الله عباده احتياط الصدق فى كلامهم ؛ فأوصاهم :

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾

(الآية ٢٣ ومن الآية ٢٤ سورة الكهف)

لأن فعل ذلك غداً والإتيان به وإحداثه هو أمر يتعلق بالمستقبل الذى لا نتحكم فيه ، فاحم نفسك وقل : « إن شاء الله » ، فإن لم يحدث يمكنك أن تقول : لم يشأ

ربُّنا حدوث ما وعدت به ، وبذلك يحمى الإنسان نفسه من أن يكون كاذباً ويجعل نفسه صادقاً فلا يتكلم إلاَّ على وفق ما عنده من قوانين الفعل وعدم الفعل ؛ لأنه عندما تقول : « أفعل ذلك غداً » . ماذا ستفعل غداً وأنت لا تضمن نفسك وحياتك وظروفك ؟! لكن الله إذا قال : « سأفعل » فله طلاقة القدرة .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ومادامت الكلمات ستتحقق والحكم سيصدر فهذا دليل على أنه سبحانه سميع لما قالوه فى عداوتهم ، وعليم بما دبروه من مكائدهم ، وهو القائل من قبل :

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الأنعام)

أى ليعلموهم بخفاء ، فإن كان كلامهم ظاهراً فهو مسموع ، وإن كان بخفاء فهو معلوم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

و « من فى الأرض » المقصود بهم المكلفون ؛ لأنهم هم من يتميزون بالاختيار ولهم أوامر ونواهٍ ، فما دون الإنسان لا أمر له ، و «أكثر» لا يقابلها بالضرورة كلمة « قليل » أو « أقل » ، ومادام القول هو : « أكثر » . فقد يكون الباقون كثيراً أيضاً ، وأمّا كثير فإنها ، تعطى له كميته فى ذاته وليست منسوبة إلى غيره ، ولذلك كنا نسمع من يقول : مكتوب على محطة مصر أو على « المطار » أو على « الميناء » ، يا داخل

مصر منك كثير ، أى إن كنت رجلاً طيبًا فستجد مثلك الكثير ، وإن كنت شريرا فستجد مثلك الكثير أيضاً .

ويقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

فكل الكائنات مقهورة مسخرة ، وعند الناس انقسم الأمر ؛ لأن لهم اختياراً ، فراح أناس للطاعة وذهب أناس للمعصية ، فلم يقل الحق : والناس ، بل قال « وكثير من الناس » ، ولم يقل الحق : وقليل حق عليه العذاب ، لكنه قال : « وكثير حق عليه العذاب » فهؤلاء كثير وهؤلاء كثير ، وإن نظرت إليهم فى ذاتهم فهم كثير ، والآخرون أيضاً إذا نظرت إليهم تجدهم كثيراً . ولماذا يقول الحق : « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » ؟

« الطاعة » ـ كما نعرف ـ استجابة للأمر فى « افعل » ، والنهى فى « لا تفعل » إذا قال الحق للإنسان افعل كذا ؛ فالإنسان صالح لأن يفعل وأن لا يفعل ، وإن قال « لا تفعل » فالإنسان صالح أن يفعل ، وأن لا يفعل ، وإن كان هناك شيء لا تقدر عليه فلن يقول لك : افعله . والإنسان عادة حين يؤمر أو يُنهى إنما يؤمر وينهى لمصلحته ، فإن لم يوجد أمام مصلحةٍ معارض من منهج إلهى فهذا من مصلحته أيضاً ؛ لأن الله أجاز له حرية الفعل والترك . ويوضح الحق : من رحمتى أن جعلت لكم تشريعاً ؛ لأننا لو تركنا الناس إلى أهوائهم فسيأمر كل واحد من الذين لهم السيطرة على الناس بما يوافق هواه ، وسينهى كل واحد من الناس بما يخالف هواه ؛ لذلك نعصم هذا الأمر بالمنهج . حتى لا يتضارب الخلق ولا يتعاكس هواك مع هوى أخيك . ومن المصلحة أن يوجد مطاع واحد لا هوى له ، ويوجد منهج يقول للجميع « افعلوا كذا » و « لا تفعلوا كذا » وبذلك يأتى الاستطراق لنفهم جميعاً . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأنعام)

فهناك أناس مؤمنون وهم أصحاب الفطرة السليمة بطبيعتهم ؛ لأن الخير هو الفطرة فى الإنسان ، وقد جاء التشريع لينمى فى صاحب الفطرة السليمة فطرته أو يؤكدها له ، ويعدل فى صاحب النزعة السيئة ليعود به إلى الفطرة الحسنة .

والذين يضلون عن سبيل الله ماذا يتبعون ؟ يقول الحق : (إن يتبعون إلا الظن) .

كل واحد منهم يظن أن هذا الضلال ينفعه الآن ، ويغيب عنه ما يجر عليه من الوبال فيما بعد ذلك .

و « الظن » ـ كما نعلم ـ هو إدراك الطرف الراجح ويقابله الوهم وهو إدراك الطرف المرجوح والظن هنا ، هو ما يرجحه الهوى :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأنعام)

و « إن » ـ كما نعرف ـ تأتى مرة جازمة : إن تفعلْ كذا تجدْ كذا ، وتأتى مرة نافية ، مثل قوله الحق :

﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

أى : ما أمهاتهم ؛ فـ « إن » هنا نافية . وقوله الحق : « إن يتبعون إلا الظن » أى ما يتبعون إلا الظن . هم إما أن يتبعوا الظن وإمّا أن يخرصوا . (فالخارص) هو من يتكلم بغير الحقيقة ، بل يخمن تخميناً ، كأن ينظر إنسان إلى آخر فى سوق الغلال ويسأله : كم يبلغ مقدار هذا الكوم من القمح ؟ . فيرد : حوالى عشرة أرادب أو اثني عشر أردباً ، وهو يخمن تخميناً بلا دليل يقينى أو بلا مقاييس ثابتة ، أو يقول كلاماً ليس له معنى دقيق .

فإذا اتبعت الناس فسوف يضلونك . لأنهم لا يملكون دليلاً علميًّا ، ولا حقًّا يقينيًّا ، بل يتبعون الظن إن كان الأمر راجحاً ، ويخرصون ويخمنون حتى ولو كان الأمر مرجوحاً .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

وساعة ترى « هو » هذه فاعرف أنها تَرُدّ وتجيب على ما يمكن أن يقال ، فهناك من يقول : أنا سوف أرى تصرفات فلان ، ولأنك من البشر فمهما علمت عنه فأنت محدود الإدراك ؛ لأنك سترى تصرفات فقط ، ولن ترى انفعالات قلبه وتقلبات عقله ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الأعلم ؛ لأن الميزان كله عنده ، إنّه يدرك الظاهر والباطن ، وهو سبحانه يقول هنا : « أعلم » وهناك « عليم » ، و « العليم » هو من يرى ظاهر الأمر ويحيط به ، لا الخافى منه ، أما الذى يرى الظاهر والخفى فهو أعلم .

ولذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم فى مسائل كثيرة يعامل الناس بعلانيتهم ، ويترك سرائرهم إلى الله . وعندما قتل مسلم رجلاً أعلن الإسلام ، سأله صلى الله عليه وسلم لماذا ؟ ، قال : لأنه أعلن الإسلام نفاقاً . فقال صلى الله عليه وسلم : أشققت عن قلبه ؟! .

وسبحانه وتعالى « أعلم » ؛ لأنه يعلم الظاهر والباطن ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ويقول الحق :



وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

ما الذى أدخل هذه المسألة فى هذا السياق ؟ لقد تكلم الحق عن أن هناك أعداء لكل نبى يلتمسون ثغرة فى منهجه ليتكلموا فيها ، وهذه هى مهمتهم التى هيأها الله لهم ، فحين يقولون الاعتراضات نجد المنهج يرد عليهم وبذلك تنتفع الدعوة إلى أن تقوم الساعة .

مثال ذلك نجد الجماعة الذين عارضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإسراء والمعراج ، فحين قال لهم : إننى أسرى بى إلى المسجد الأقصى وعرج بى إلى السماء فى ليلة واحدة ، التمسوا له ثغرة لينفذوا منها ويضللوا غيرهم وقالوا له : أتدّعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟!! لكنْ أبو بكر الصديق قال : إن كان قال فقد صدق ، وهذا هو الإيمان الذى يحسن استقبال الأمر المخالف للنواميس . ويجادلون أبا بكر ، فيقول : أنا صدقته فى خبر السماء فكيف أكذبه فى ذلك ، ما دام قال فقد صدق ، وهذا كلام منطقى .

لكنَّ المعارضين لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : أتدّعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ! فأعطى صلى الله عليه وسلم لهم الأمارات ووصف لهم العِير التى فى الطريق ، وغير ذلك من العلامات التى تجعل من الأمر حجة إلى يوم القيامة ، ولو مرّت مسألة الإسراء والمعراج من غير أن يعترض أحد من الأعداء ، لما وجدنا الحرارة فى تصديقها .

إننا نجد حاليًّا من يقول : وهل من المعقول أنه صلى الله عليه وسلم راح إلى بيت المقدس وجاء فى ليلة ؟ لابد أن ذلك كان حلماً . لو لم يقولوا هم هذا ما كنا عرفنا الرد ؛ إنما هم قالوها حتى نعرف الرد ويظل الرد رادعاً إلى أن تقوم الساعة ، وهذه هى المهمة التى جعلها الله للأعداء ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لو قال لهم : إننى

حلمت أنى رحت بيت المقدس . أكان هناك من يعترض على أن يحلم النبى حتى ولو قال : إنه ذهب إلى آخر المعمورة إنه لا يجرؤ واحد أن يكذبه ، لكنهم ماداموا قد كذبوه ، ورفضوا تصديق الإسراء فهذا دليل على أنهم فهموا من الذهاب أنه ليس ذهاب رؤيا وإنما ذهاب قالب ، لقد فهموا عنه أنه قد انتقل بجسده من مكة إلى بيت المقدس ، ولذلك كذبوه ، وهذا التكذيب منهم ينفعنا الآن ، لنردَّ به على المكذبين المعاصرين .

إذن فوجود الأعداء يهيج القرائح التى يمكن أن نرد على أية شُبَهٍ يثيرها أى إنسان سواء أكان ماضيًّا أم معاصراً .

والحق هنا يقول :

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

هذه الآية لها قصة توضح كيف يحاول الأعداء اصطياد الثغرات لينفذوا منها ، وقالوا : يقول النبى لكم : إن الميتة لا يحل لكم أن تأكلوا منها ، وما تذبحونه بأيديكم كلوا منه ، والذبح لون من الموت ، هذه هى الشبهة التى قالوها ، وهى أولاً مغالطة فى الأساليب ؛ لأن الميتة غير المذبوحة وغير المقتولة . فالمذبوحة إنما ذبحناها لنطهرها من الدم ؛ لذلك فالمناقشة الفقهية أو العلمية تهزم قولهم ؛ لأن هناك فرقاً بين الموت والقتل . فالموت هو أخذ للحياة بدون سلب للبنية ، إنما القتل هو سلب للبنية أولاً فتزهق الروح ويبقى الدم فى الجسم . ثم هل يأخذ المشرع وهو الرب الأعلى الحكمة منّا أو أن الحكمة عنده هو وحده ؟ .

وقد تبين لنا فى عصرنا أن غير المؤمنين بدأوا فى الاهتداء إلى أن الميتة فيها كل الفضلات الضارة ، واهتدوا إلى إزالة كل الفضلات الضارة من الحيوانات التى يريدون أكلها ؛ لأن تكوين جسم الحيوان يتشابه مع تكوين جسم الإنسان ، فهو يأكل ويهضم ويمتص العناصر الغذائية ليتكون الدم والطاقة ، وفى الجسد أجهزة تصفى وتنقى الجسم من السموم الضارة ، فَالكُلْية مثلاً تصفّى الدم من البولينا وغيرها ، ويسير الدم ليمر على الرئة ليأخذ الأوكسيجين ، وكل ذلك لتخليص الجسد من الفضلات الضارة ، وأوعية الدم فى الإنسان والحيوان فيها الدم الصالح والدم

الفاسد ، والدم الفاسد هو الذى لم تتم تنقيته ، وعندما نذبح الذبيحة ينزل منها الدم الفاسد وغيره ، أى أننا ضحينا بالدم الصالح فى سبيل وقايتنا من الدم الفاسد . لكنها إن ماتت دون ذبح ؛ فآثار الدمين الاثنين موجودة . وكذلك آثار الفضلات التى كان يجب أن يتخلص منها ، وهذا ما نفعله فى هذا الأمر ، لكن هل لنا مع الحق سبحانه وتعالى تعقل فى شىء إلا فى توثيق الحكم والاطمئنان إلى مجيئه منه جلت قدرته ؟

كان جدلهم أنهم قالوا : أنتم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله ، فأنتم تظنون أنفسكم أحسن من الله ، وهذا افتراء منهم . ثم إن الحيوان حين يموت لم يذكر عليه اسم الله ، لكن الذبيحة التى نذبحها نذكر عليها اسم الله ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يوضح : فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . أى غير الميتة وغير ما يذبح للأصنام .

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إنَّ تلقى أى حكم من الحق ، لا يصح أبداً أن نبحث عن علته أولاً ثم نؤمن به ، بل علينا بعد أن نثق بأنه من الله الذى آمنا به . علينا إذن أن نأخذ الحكم الذى أمر به الله .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وللآيتين ـ كما علمنا ـ سبب نزلتا من أجله وهو أن بعض المعارضين لرسول الله الذين يقفون من الدعوة موقف التكذيب والعمل على إبطالها والقضاء عليها ، كانوا يُشيعون عند المؤمنين إشاعات قد تفت فى عضدهم العقدى فعرضوا هذه المسألة وهى فى ظاهرها تشكيك . وهم قد عرضوا القضية بهذا الشكل غير المتسق ؛ لأن من الذى قتل ؟ لقد قالوا : إن الميتة قتلها الله ، فهل الله هو الذى قطع رقبتها ؟ وهل

ضربها الله على رأسها فأمات أصل إدارة الحياة وهو المخ ؟ هل صوّب شيئاً إلى قلبها ؟ سبحانه جل وعلا منزه عن مثل هذه الأفعال البشرية ، فكيف يسمون الموت قتلاً ؟ إن تسمية الموت قتلاً هو الخطأ ، فقولهم : كيف تبيحون لأنفسكم ما قتلتموه أى بالذبح . ولا تبيحون ما قتله الله أى أماته ، فيه مغالطة فى عرض القضية ، ويريد الله سبحانه وتعالى أن يضع عند المؤمنين مناعة من هذه الهواجس التى يثيرونها ؛ فقال : ﴿ **فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين** ﴾

وما معنى الذكر ؟ إنّ عدم تحديد العلماء المعنى المقصود بالذكر ، هو الذى أوجد بينهم خلافاً كبيراً . فسيدنا الإمام مالك يرى أنك إذا ذبحت ولم تذكر اسم الله سواء أكنت ناسيًّا أم عامداً فلا يصح لك أن تأكل من الذبيحة . ويرى الإمام أبو حنيفة : إذا كنت لم تسم ناسياً فكل مما ذبحت ، لكن إن كنت عامداً فلا تأكل ، والإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ يرى : ما دمت مؤمناً ومقبلاً على الذبح وأنت مؤمن فَكُلْ مما لم تذكر اسم الله ناسياً أو عامداً لأن إيمانك ذكر لله .

ونقول : ما هو الذكر ؟ هل الذكر أن تقول باللسان ؟ أو الذكر أن يمر الشىء بالخاطر ؟ إن كنتم تقولون إنّ الذكر باللسان فلنبحث فى الحديث القدسى الذى قاله الله تعالى : « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم »[1] .

إذن فقد سمّى ربنا الخاطر فى النفس ذكراً وبذلك يصبح من حق الإمام الشافعى أن يقول ما قال .

لذلك أقول : يجب أن نحدد معنى الذكر أولاً حتى ننهى الخلاف حول هذه المسألة ، فليس من المقبول أن نقيم معركة حول معنى « الذكر » ؛ لأن الذكر وهو خطور الأمر على البال قد يصحبه أن يخطر الأمر على اللسان مع الخطور على البال ، وقد يظل خطوراً على البال فقط ، بدليل ماجاء فى الحديث السابق .

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى .

والمؤمن حين يجد أمامه أشياء كثيرة ، قد يوجد شيء جميل وآخر ليس له من الجمال شيء ؛ فالجاموسة أقل في الجمال من بعض الحيوانات التي حرم الله أكلها ، وأقبل المؤمنون على ذبح الجاموسة ليأكلوا منها ، ولم نسمع عن مسلم تقدم إلى حيوان حرم الله أكله ليذبحه ، لماذا ؟ لأن المؤمن يقبل على ما أحل الله ، وهذا الإقبال دليل على أنه ذكر في نفسه المحلل والمحرم وهوالله ، إذن اختياره حيواناً للذبح دليل على أنه ذكر الله في النفس أو في القول ، وبهذا نتفق على أن ذكر المؤمن يكون في قلبه قال أو لم يقل ، وينتهي الخلاف في هذه المسألة . إذن الإمام الشافعي أخذ بهذه المسألة ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام حينما سئل عن أكل المسلم من ذبيحة لا يعرف من ذبحها وهل سمّى أو لم يسمّ ، أوضح لمن سأله : سمّ وَكُلْ .

فالإنسان منا لا يحضر وقت الذبح دائماً ، ويكفيه أن يستحضر المحلل والمحرم ساعة الأكل . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : اذكروا اسم الله ، وسبحانه يعلم أنك تقبل على أشياء لتفعلها . وهذه الأشياء تنقسم إلى قسمين : قسم يمر على بالك قبل أن تفعله ، وقسم لا يمر على بالك ، بل تفعله تلقائيًّا بدون ما يمر على البال ، ومثال ذلك الأفعال العكسية كلها التي يفعلها الإنسان إنها لا تمر على باله . فلو حدث أن حاول واحد أن يضع إصبعه في عين آخر ، فهذا الآخر يغمض عينيه تلقائيًّا . ويختلف ذلك عن الفعل الذي تفكر فيه قبل أن تفعله . فالذي يفعل الفعل بعد أن يمر بخاطره هو فعل ذو بال . ولذلك أراد الرسول عليه الصلاة والسلام ألا يكلفنا عناء أو مشقة ؛ فقال :

« كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع »[1] .

والأمر ذو بال هو الأمر الذي يكون قد خطر على بالك أن تفعله أو لا تفعله . إذن فالله سبحانه وتعالى لا يكلفنا إلا عند الأمر الذي يمر على الخاطر ؛ لأنك حين تقبل على أي فعل فينفعل لك كما تريد ، إن هذا من عطاء الله لك ، وأنت حين تذبح عجلاً ، أو خروفاً ، وتتأمل أنت كيف يُقدرك الله على هذا الكائن الحي . وإنك لم تفعل ذلك إلا لتسخير الله كُلَّ الكائنات لك . فباسم الله تذبحه .

إذن هناك أمور كثيرة وأفعال ذات بال تمر عليك ومن حسن الأدب والإيمان أن

---

(١) رواه عبد القادر الرّهاوي في الأربعين عن أبي هريرة .

تقبل عليها باسم الله . ولذلك يخطىء بعض الناس حين يظنون أن الإنسان عندما يذبح حيواناً فهو يؤذيه . لا ، بل ذبح هذا الحيوان هو تكملة لمهمته فى الحياة ؛ لأنه مخلوق لهذا الهدف ومذلل له .

لقد قلنا سابقاً : إن هناك عجيبة من عجائب المزاولات الفعلية ، هذه العجيبة أنك حين تأتى إلى الحيوانات التى لم يحلها الله للإنسان ، كالحمار مثلا إذا ما تعرضت هذه الحيوانات إلى ما يميتها ، كأن التف حول عنقه حبل ، واختنق فهو يموت دون أن يمد رقبته إلى الأمام ، لكن الحيوان الذى أحله الله للأكل ؛ مثل الجاموسة أو الخروف أو العجل ، نجد الحيوان من هذه الحيوانات إن اختنق يمد رأسه إلى الأمام ، فيقول أهل الريف فى مصر : إنه يطلب الحلال ، أى الذبح . فلا يسمى ذبح الحيوان اعتداء عليه ؛ لأن الحيوان مخلوق لهذه المهمة .

إذن فمعنى كلمة « باسم الله » أى أننى لم أجترىء على هذا العمل إلا فى إطار اسم الله الذى أحل لى هذا .

بعد ذلك يقول الحق للمؤمنين : لا تسمعوا كلام الكافرين ، ويأتى السؤال الاستنكارى : « ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه » والمعنى : أى سبب يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ؟ وقد فصل لكم ما حرم عليكم ، فما ذكر اسم الله عليه ليس من ضمن المحرمات التى نص الله عليها ، فربنا سبحانه هو من حلل وحرم . وإن قيل : ما دام قد حرم علينا بعض الأشياء فلماذا خلقت هذه الأشياء ؟

ونقول : إن من يفكر بمثل هذا الأسلوب يتناسى أن كل مخلوق من الحيوانات ليس مخلوقاً للأكل ، بل لكلٍ حيوان مهمة . وإن ذبحت محرماً ، فقد يناقض هذا الفعل مهمته . فالخنزير - مثلا - حرّمه ربنا ؛ لأنك إن ذبحته فستذهب به بعيداً عن مهمته ؛ لأنه مخلوق كى يلم جراثيم الأشياء التى لا تراها العين ، فأنت حين تذبحه تخرجه عن مهمته . والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الإنسان ، ويعلم ما يناسبه من غذاء يولد الطاقة ولا يهدر الصحة ؛ لذلك حرم وحلل له ، وإياك أن تقول : إن الله سبحانه وتعالى لم يحرم إلا الشىء الضار ؛ فقد حرم شيئاً غير ضار لأنه يريد بذلك الأدب فى : « افعل هذا » و« لا تفعل هذا » . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

وفى حياتنا اليومية هل تقول : إن الذين يربون أبناءنا فى الجيش بالشدة ، يقسون على الأبناء ؟ لا ، بل إنهم يعدّونهم لمواجهة المهام الشاقة . وأن يتعوّدوا التزام الأدب والطاعة والانضباط ، فكذلك حلل الحق ما أراد وحرم ما شاء ليجعل الكون منضبطاً بقدرة الحكيم القادر ، فسبحانه يحرم أشياء مثل المخدرات ، ونحن فى بعض الأحيان نتناولها لنداوى بها الأمراض ، فلو أخذها الإنسان من غير مرض أو داع فإنها تسرق الصحة من بنية الإنسان ، وإن أخذها من بعد ذلك للعلاج لا تأتى بالمفعول المطلوب منها . ولذلك نجد من الأطباء من يسأل الإنسان قبل إجراء الجراحات الدقيقة إن كان المريض قد تناول المخدرات أو لا ، وذلك حتى يتعرف الأطباء على حقيقة ما يصلح له من ألوان التخدير .

وسبحانه وتعالى قد منع عنا تلك الألوان من مغيبات العقول ، لعلنا نحتاج إليها فى لحظة الشدة والمرض .

إذن فالحق سبحانه وتعالى قد ربط كل حكم من الأحكام التحليلية والتحريمية بـ « إن كنتم مؤمنين » ، ومعنى « إن كنتم مؤمنين » أى يا من آمنتم بالإله الحكيم الذى لا يأمر إلا بما فيه مصلحتكم ، امتنعوا عن مثل تلك الأفعال ، وإذا أقبلت على أى شىء مما أحله الله لك فأقبل عليه باسم الله ، وسبحانه وتعالى له أسماء علمها لنا ، وأنزلها فى كتابه ، وأسماء علمها لأحد من خلقه ، وأسماء استأثر بها فى علم الغيب عنده ، وهذه الأسماء هى صفات الكمال لله ، التى لا توجد فى غيره . وحين نستحضر الاسم الجامع لكل صفات الكمال نقول : باسم الله . وتنهى المسألة . وحين ناقش العلماء مسألة التحريم والتحليل ، قال بعضهم : إن الحق سبحانه وتعالى قال فى أول سورة المائدة :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

وهنا فى سورة الأنعام يقول :

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

والمتنبهون من العلماء قالوا : إن سورة المائدة مدنية ، ومعنى كونها مدنية أنها نزلت

بعد السور المكية ، وسورة الأنعام مكية ، وهل يقول الحق فى السورة المكية « وقد فصل لكم ما حرم عليكم » فى السور المدنية ؟ وبعض العلماء الذين أعطاهم ربنا نور بصيرة قال : لقد فصل لكم فى سورة المائدة وجاء أيضاً فى سورة الأنعام فقال :

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) ﴾

(سورة الأنعام)

أى فصل لك فى هذه السورة المكية . وقد يأتى واحد من المولعين بالاعتراض أو من خصوم الإسلام ويقول : لم تذكر الآية كل الأشياء المحرمة لماذا ؟

ونقول : القرآن هو الخطوط الأساسية فى المنهج ، وتأتى السنة بالتفصيل فى إطار :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

والحق يقول هنا :

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

واضطرار هو أمر ملجىء إلى شىء غير الأسباب الكونية المشروعة . ومعنى كونه مضطرا أنه يلجأ إل شىء فقد أسبابه المشروعة كالذى يريد أن يأكل ليستبقى الحياة ، فإذا لم يجد من الحل ما يستبقى به الحياة فهو مضطر . ونقول له : خذ من غير ما أحل الله بالقدر الذى يدفع عنك الضرورة . فكل من الميتة بقدر الضرورة ولا تشبع . والحق يقول :

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

والمخمصة هى المجاعة . إذن فالاضطرار هو شىء فوق الأسباب المشروعة

للعمل . والله سبحانه وتعالى يعطى الإنسان الرخصة فى أن يتناول ما حرمه إذا كان مضطراً .

﴿ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

والذين يضلون بأهوائهم بغير علم هم من أرادوا زراعة الشك فى نفوس المسلمين . ومعنى الضلال بالهوى أن تكون عالما بالقضية ، ولكن هواك يعدل بك عن مراد الحق من القضية . ولذلك يصف الحق رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة النجم)

وحين يقول الحق : « وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم » فمعنى ذلك أنه يوجد ضلال بغير هوى ، وهو عدم وصول الإنسان إلى الحقيقة ؛ لأنه لا يعرف الطريق إليها ، والضلال بالهوى أى أن تكون عندك الحقيقة وأنت عارف بدروبها ولكنك تعدل عنها .

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

وساعة ترى مجىء متعلق بعد « يضلون » وهو قوله : (بأهوائهم) تقول كأن هناك ضلالاً بغير علم ، وهو غير مذموم ؛ لأن صاحبه لا يعرف الحكم فى القضية ، وهذا يختلف عن الذى يضل وهو يعرف الحكم ، فهذا ضلال بالهوى ، وهذا الفهم يحل لنا إشكالات كثيرة أيضاً . و « بغير علم » أى ليس عندهم علم بالقضية وأحكامها .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

وقد أفسح الله فى النص القرآنى لبعض خلقه الذين يعرفون المهتدى من غير المهتدى ، والكثير من الناس لا يعلمون المهتدى من غير المهتدى ولكن إن علموا فالله أعلم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

هذه تقنينات السماء التي تحمى المجتمع من بعضه وذلك فى ألا تقع عين أحد على مخالفة من أحد ، وإذا وقعت عينك على مخالفة من غيرك تكون المخالفة مما يدرك لكنها ليست كل الفساد فى المجتمع ؛ ففساد المجتمع يأتى من أشياء كثيرة لا تقع تحت دائرة الإدراكات . وهناك أشياء تكون فى منابع النفس البشرية التى تصدر عنها عوامل النزوع ؛ فقبل أن يوجد إثم ظاهر يوجد إثم باطن ، والإثم الباطن سابق على الإثم الظاهر . والتقنينات البشرية كلها تحمينا من ظاهر الإثم ، ولكن منهج السماء يحمينا من فساد ظاهر الإثم وباطن الإثم .

ويوضح لنا الحق الفرق بين تقنين البشر للبشر وتقنين الإله ، فسبحانه رقيب على مواجيدكم ووجداناتكم وسرائركم ، فإياكم أن تفعلوا باطن الإثم ، ولا يكفى أن تحمى نفسك من أن يراك القانون ؛ لأن قصارى ما يعمل القانون أن يمنع الناس من أن يتظاهروا بالجريمة ويقترفوها علانية ؛ والفرق بين تشريع السماء وتشريع الأرض أن تشريع الأرض يحمى الناس من ظاهر الإثم ، ولكن تشريع السماء يحمى الناس من ظاهر الإثم وباطن الإثم ، وباطن الإثم هو أعنف أنواع الإثم فى الأرض .

وبعض أهل الاكتساب فى الشر برياضتهم على الشر يسهل عليهم فعل الشر وكأنهم يفعلون أمراً قد تعودوا عليه بلا افتعال .

و « كسب » ـ كما نعلم ـ تأتى بالاستعمال العام للخير ، و « اكتسب » تأتى للشّر لأن الخير يكون فيه الفعل العملى رتيباً مع كل الملكات ، ولا افتعال فيها ، فمن يريد ـ مثلاً ـ أن يشترى من محل ما فهو يذهب إلى المحل فى وضح النهار ويشترى . لكن من يريد أن يسرق فهو يرتب للسرقة ترتيباً آخر ، وهذا افتعال ، لكن الافتعال قد يصبح بكثرة المران والدربة عليه لا يتطلب انفعالاً ، لأنه قد أضحى لوناً من

الكسب . و « يكسبون » تدل على الربح ؛ لأن « كسب » تدل على أنك أخذت الأصل والزيادة على الأصل ، والإنسان حين يصنع الخير إنما يعطى لنفسه مقوّمات الحياة ويأخذ أجر الآخرة زائداً ، وهذا هو قمة الكسب .

ويريد الحق سبحانه وتعالى من العبد فى حركته أن يحقق لذاته نفعاً هو بصدد الحاجة إليه ، ولكن الإنسان قد يحقق ما ينفعه وهو بصدد الحاجة إليه ، ثم ينشأ من ذلك الفعل ضرر بعد ذلك ؛ لذلك يحمي الله الإنسان المؤمن بالمنهج حتى يميز بين ما يحقق له الغرض الحالى ويحقق نفعاً ممتداً ولا يأتى له بالشّر وما يحقق له نفعاً عاجلا ولكن عاقبته وخيمة ونهايته أليمة ، إننا نجد الذين يصنعون السيئات ويميلون للشهوات ـ مثلاً ـ يحققون لأنفسهم نفعاً مؤقتاً ، مثل التلميذ الذى لا يلتفت إلى دروسه ، والذى ينام ولا يستيقظ ، والذى إن أيقظوه وأخرجوه من البيت ذهب ليتسكّع فى الشوارع ، هو فى ظاهر الأمر يحقق لنفسه راحة ، لكن مآله إلى الفشل . بينما نجد أن من اجتهد وجدَّ وتعب قد حقق لنفسه النفع المستمر الذى لا تعقبه ندامة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة الأنعام)

ففى الدنيا نجد أن الجزاء من بشر لبشر ، ولكن ماذا عن لحظة العرض أمام الله وهو العليم بظاهر الإثم وباطن الإثم ؟

فالذى يصون المجتمع ـ إذن ـ هو التقنين السماوى ، فالمنهج لا يحمى الإنسان ممن حوله فحسب ولكنه يقنن لحركة الإنسان لتكون صحيحة .

ويعود الحق بعد ذلك إلى قضية الطعام فيقول :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

وهنا يسمى الحق ما لم يذكر اسم الله عليه بـ « الفسق » وهو ما تشرحه الآية الأخرى وتبرزه باسم مخصوص :

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة الأنعام)

إذن فـ « فسقاً » معطوفة على الميتة والدم المسفوح ولحم خنزير ، لكنه سبحانه فصل بين المعطوف وهو (فسقاً) ؛ والمعطوف عليه بحكم يختص بالمعطوف عليه ، وهذا الحكم هو الرجس وهكذا أخذت الثلاثة المحرمات حكم الرجس . وعطف عليها ما ذبح وذكر عليه اسم غير الله كالأصنام وهو قد جمع بين الرجس والفسق .

ويقول الحق : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » وسبحانه يريد أن يبين لنا أن الفطرة السليمة التي لا يميلها هوى تصل إلى حقائق الخير ، ولذلك نجد أن الذين يحثون ويحض بعضهم بعضا على الشّر ويُعلم بعضهم بعضاً بخفاء إنما يأخذون مقام الشيطان بالوسوسة والتحريض على العصيان والكفر ؛ لأن المسألة الفطرية تأبى هذا ، وحين يرتكب إنسان موبقة من الموبقات ، إنما يلف لها ويتحايل ليصل إلى ارتكاب الموبقة ، وقد يوحى بذلك إلى غيره ، فيدله على الفساد . ويكون بذلك في مقام الشياطين الذين يوحون إلى أوليائهم بإعلام خفى ؛ لأن الفطرة السليمة تأبى الأشياء الشريرة وتقف أيضاً فيها ، ولا يجعلها تتقدم إلى الشر إلا الهوى ، فإذا ما أراد شيطان من الإنس أو شيطان من الجن أن يزيّن للناس فعلاً فهو لا يعلن ذلك مباشرة . إنما يلف ويدور بكلام ملفوف مزين .

« وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » وفى ذلك إشارة إلى قول المشركين : تأكلون ما قتلتم أنتم ولا تأكلون ما قتل الله وأنتم أولى أن تأكلوا مما قتل الله .

﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الأنعام)

وكأن مجرد الطاعة لهؤلاء المشركين لون من الشرك ؛ لأن معنى العبادة امتثال وائتمار عابد لمعبود أمراً ونهيا ، فإذا أخذت أمراً من غير الله فإنه يخرج بك عن صلب وقلب منهجه سبحانه وبذلك تكون قد أشركت به .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى ـ كما عرفنا ـ يعرض بعض القضايا لا عرضاً إخباريًّا منه ، ولكن يعرضها باستفهام ؛ لأنه ـ جل وعلا ـ عليم بأنه حين يأتى لك الاستفهام ، ثم تدير ذهنك لتجيب فلن تجد إلا جواباً واحداً هو ما يريده الحق . إذن فالأسلوب أحياناً يكون أسلوباً خبريًّا أو يكون استفهاماً بالإثبات أو استفهاماً بالنفى . وأقواها الاستفهام بالنفى . وحين يعرض سبحانه القضية التى نحن بصددها يوضح وهو العليم أنك إن أحببت أن تجيب فلن تجد إلا الجواب الذى يريده الحق .

إننا نجد فى الآية الكريمة موتاً وحياة ، وظلاماً ونوراً .

وما هى الحياة ؟ . الحياة هى وجود الكائن على حالة تمكنه من أداء مهمته المطلوبة منه ، وما دام الشىء يكون على حالة يؤدى بها مهمته ففيه حياة ، وأرقى مستوى للحياة هو ما تجتمع فيه الحركة والحس والفكر ، وهذه الأمور توجد كلها فى الإنسان . أمّا الحيوان ففيه حس وحركة وليس عنده فكر . غير أن الحيوان له غريزة أقوى من فكر الإنسان ، فهو محكوم بالغريزة . وأنت ـ أيها الإنسان ـ محكوم بالغريزة فى أشياء وبالاختيار فى أشياء ، وليس لك فى الغريزة عمل . لكن فى مجال الاختيار لك عمل ، تستطيع أن تعمله وتستطيع ألا تعمله .

إذن فالحياة هي أن يكون الكائن على حال يؤدى به مهمته المطلوبة منه . وعلى هذا الاعتبار ففى الإنسان حياة ، وفى الحياة حياة ، وفى النبات حياة ، وفى الجماد حياة ، وكلما تقدم العلم يثبت لنا حيوات أشياء كثيرة جدًّا كنا نظن ألا حياة فيها ، وإن ظهر لنا فى التفاعلات أن بعض الأشياء تتحول إلى أشياء أخرى ، فعلى سبيل المثال الحيوان فيه حياة فإذا ذبحناه وأكلناه ، ورمينا عظامه ، كانت فيها حياة من نوع ثم صارت أجزاؤه إلى جمادية لها حياة من نوعها ، بدليل أنه حين يمر بعض من الزمن يتفتت العظم .

وكنا قديماً فى الريف نحلب اللبن فى أوعية من الفخار وتوضع فى مراقد ، ويستمر اللبن أسبوعاً فى المرقد ، ويكون أحلى فى يومه عن أمسه . ويزداد اللبن حلاوة كل يوم ، ثم تأخذ زوجة الفلاح قطعة القشطة الأخيرة وتصنع منها الجبن الجميل الطعم . أو الزُّبد لكن بعد أن غلينا اللبن نجده يفسد بعد عدة ساعات ؛ لأنك حين وضعته فى المرقد ، أخذته بالحياة فيه فظلت فيه حيوية حياته ، لكن حين غليته فقد قتلت ما فيه من الحياة ، فإن لم تضعه فى ثلاجة لابد من أن يتعفن ، ومعنى التعفن أنه لم يعد يؤدى مهمته كلبن ، إنما انتقل إلى حياة أخرى بفعل البكتريا وغيرها ، ولا يُذهب الحياة إلا الهلاك وهو ما قاله الحق :

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

إذن ، لا تأخذ الميت على أنه شىء ليس فيه حياة ، ولكنه انتقل إلى حياة ثانية .

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة الأنعام)

كأن للإنسان حياة فى ذاته ، ثم جعل الحق له نوراً يمشى به . كأن الحياة متنقلة فى أشياء ، ويحتاج الإنسان إلى حياة ، ويحتاج إلى نور تتضح به مرائى الأشياء . وكانوا قديماً يعتقدون أن الإنسان يرى حين ينتقل شعاع من عينيه إلى المرئى فيراه ، إلى أن جاء العربى المسلم ابن الهيثم . وقال : هذا رأى جانبه الصواب فى قانون الضوء ، وقال : إن الإنسان يرى ؛ لأن شعاعاً من المرئى يصل إلى عين الرائى . بدليل أن المرئى إن كان فى ضوء يدركه الإنسان ، وإن كان فى ظلمة لا يدركه الإنسان ،

ولو كانت الأشعة تخرج من عين الإنسان لرأى الأشياء سواء أكانت فى نور أم فى ظلمة ، وتعدلت كل النظريات فى الضوء على يد العالم المسلم ، وجاءت من بعد ذلك الصور الفوتوجرافية والسينما . إذن فالنور وسيلة إلى المرئيات .

ويترك الحق سبحانه وتعالى فى أقضية الكون الحسيّة أدلة على الأقضية المعنوية ؛ فالنور الحسىّ الذى نراه إما ضوء الشمس وإمّا ضوء القمر ، وإمّا ضوء المصباح ، وإمّا غير ذلك ، وهذا ما يجعل الإنسان يرى الأشياء ، ومعنى رؤية الإنسان للأشياء أن يتعامل معها تعاملاً نفعيًا غير ضار . ونحن نضىء المصباح بالكهرباء حين يغيب النور الطبيعى - نور الشمس - وعندما نضىء مصابيحنا نرى الأشياء ونتفاعل معها ولا نحطمها ولا تحطمنا ، وكل واحد منا يأخذ من النور على قدر إمكاناته . إذن كل واحد يضىء المكان المظلم الذى اضطر إليه بغيبة المنير الطبيعى على حسب استطاعته ، فإذا ظهرت الشمس أطفأنا جميعاً مصابيحنا ؛ هذا دليل من أدلة الكون الحسيّة الملموسة لنأخذ منها دليلاً على أن الله إن فعل لقيمنا نورا فلا نأتى بقيم من عندنا ، مادامت قِيَمُهُ موجودة .

ويوضح الله أن الإنسان بدون قيم هو ميت متحرك ، ويأتيه المنهج ليحيا حياة راقية . ويوضح سبحانه لكل إنسان : احرص على الحياة الثانية الخالدة التى لا تنتهى وذلك لا يتأتى إلاّ باتباع المنهج ، وإياك أن تظن أن الحياة فقط هى ما تراه فى هذا الوجود لأنه إن كانت هذه هى غاية الحياة لما أحسّ الإنسان بالسعادة ؛ لأنّه لو كانت الدنيا هى غايتنا للزم أن يكون حظنا من الدنيا جميعاً واحداً وأعمارنا واحدة ، وحالاتنا واحدة ، والاختلاف فيها طولاً وقصراً وحالاً دليل على أنها ليست الغاية ؛ لأن غاية المتساوى لابد أن تكون متساوية .

إذن فقول الله هو القول الفصل :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

فهذه هى الحياة التى لا تضيع منك ولا تضيع منها ، ولا يفوتك خيرها ولا تفوته . إذن فالذى يحيا الحياة الحسيّة الأولى وهى الحركة بالنفخ فى الروح هو ميت متحرك .

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة الأنعام)

أى أنه سبحانه قد أعطى لمثل هذا العبد حياة خالدة ونوراً يمشى به ، لا يحطّم ولا يتحطم .

أما من يقول : إن الحياة بمعناها الدنيوى ، لا تختلف عن الحياة فى ضوء الإيمان ، لمثل هذا نقول : لا ، ليس بينهما تساوٍ فهما مختلفتان بدليل أن الحق يقول :

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

فسبحانه يخاطبهم ، وما دام يخاطبهم فهم أحياء بالقانون العادى ، لكنه سبحانه أنزل لرسوله المنهج الذى يحيا به المؤمن حياة راقية ، وافطنوا إلى أن الحق سبحانه وتعالى أعطى ومنح الروح الأولى التى ينفخها فى المادة فتتحرك وتحس بالحياة الدنيا ، إنّه أعطاها المؤمن والكافر . ثم يأتى بروح ثانية تعطى حياة أبدية . ولذلك سمّى منهج الله لخلقه روحاً :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

فالمنهج يعطى حياة خالدة .

إذن فقوله الحق : « أو من كان ميتاً فأحييناه » أى أَوَ من كان ضالاً فهديناه ، أو من كان كافراً فجعلناه مؤمناً . ولنلحظ أن فيه « ميْتاً » بالتخفيف ، وفيه ميّت بالتشديد . والميّت هو من يكون مآله الموت وإن كان حيًّا ، فكل منا ميّت وإن كان حيًّا . ولكن الميْت هو من مات بالفعل وسلبت وأزهقت روحه . ولذلك يخاطب الحق نبيه صلى الله عليه وسلم فيقول له : (إنك ميّت) .

أى تؤول إلى الموت وإن كنت حيًّا الآن . لأن كُلًّا منا مستمر فى الحياة إلى أن يتلبس بصفة الفناء ، ويقول الحق : « فأحييناه » أى بالمنهج الذى يعطيه حياة ثانية ، ولذلك سمّى القرآن روحاً ، وسمّى من نزل بالقرآن روحاً أيضاً .

« وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس » ولماذا يمشى به فى الناس فقط ، وليس بين كل الأشياء ؟ ؛ لأن الأشياء الأخرى من الممكن أن تحتاط أنت منها ، ولكن كلمة الناس تعبر عن التفاعل الصعب لأنهم أصحاب أغيار . ويتابع الحق : « كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » وهذا تساؤل جوابه : لا ، أى ليس كل منهما مساويا للآخر ، مثلما نقول : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ . والفطرة هنا تقول : لا ، مثلما تؤكد الفطرة عدم استواء الظلمات والنور ، أو الظل والحرور ، وهنا يَأْمَنُنَا الله على الجواب ؛ لأنه سبحانه ـ يعلم أن الأمر إذا طرح كسؤال وكاستفهام فلن نجد إلا جواباً واحداً هو ما يريد الحق أن يقوله خبراً .

ويذيل الحق الآية :

﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة الأنعام)

والمعنى هنا أى تركناهم عرضة لأن ينفعلوا للتزيين ، ولم يحمهم الحق بالعصمة فى اختيارهم ؛ لأنه سبحانه قد ترك الاختيار حرًّا للإنسان :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه : « وكذلك » تدل على أن شيئاً شبِّه بشىء ، فكما وُجد فى مكة من يناصبك العداء ويناهضك ويقاومك فى أمر الدعوة إلى الله ، ويصدّ عن

سبيل الحق ؛ إن تلك قضية لست فيها بدعاً من الرسل ؛ لأن هذه المسألة قضية سائدة مع كل رسول فى موكب الإيمان ، و« كذلك » أى كما جعلنا فى مكة مجرمين يمكرون جعلنا فى كل قرية سبقت مع رسول سبق هذه المسألة ، فلم تكن بدعاً من الرسل . وحيث إنك لم تكن بدعاً من الرسل فلتصبر على ذلك كما صبر أولو العزم من الرسل . وأنت أولى منهم بالصبر ؛ لأن مشقاتك على قدر مهمتك الرسالية فى الكون كله ، فكل رسول إنما جاء لأمة محدودة ليعالج داءً محدوداً فى زمان محدود . وأنت قد جئت للأمر العام زماناً ومكاناً إلى أن تقوم الساعة ، فلابد أن تتناسب المشقات التى تواجهك مع عموم رسالتك التى خصّك الله بها .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة الأنعام)

والإجرام هو مأخوذ من مادة « الجيم » و« الراء » و« الميم » ، الجَرْم والجُرْم والجريمة . فيها معنى القطع . و« مجرميها » جمع مجرم ، ومجرم من أجرم ، وأجرم أى ارتكب الجُرم والجريمة ، ومعنى ذلك أنه قطع نفسه بالجريمة عن مجتمعه الذى يعايشه ، فهو يعزل نفسه لا لمصلحة لأحد إلا لمصلحته هو ، فكأنه قام بعملية انعزال اجتماعى ، وجعل كل شىء لنفسه ، ولم يجعل نفسه لأحد ؛ لأنه يريد أن يحقق مرادات نفسه غير مهتم بالنتائج التى تترتب على ذلك .

إذن فالإجرام هو الإقدام على القبائح إقداماً يجعل الإنسان عازلاً نفسه عن خير مجتمعه ؛ لأنه يريد كل شىء لنفسه . وما دام يريد كل شىء لنفسه فعامل التسلط موجود فيه ، ويرتكب الرذائل . ولأنه يرتكب الرذائل فهو يريد من كل المجتمع أن تنتشر فيه مثل هذه الرذائل ؛ كى لا يشعر أن هناك واحداً أحسن منه .

﴿ لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة الأنعام)

والمكر ـ كما نعرف ـ مأخوذ من التفاف الأغصان بعضها على بعض التفافاً بحيث لا تستطيع إذا أمسكت ورقة من أعلى أن تقول هذه الورقة من هذا الفرع ؛ لأن الأغصان والفروع ملفوفة ومتشابكة ومجدولة بعضها مع بعض . والماكر يصنع ذلك

لأنه يريد أن يلف تبييته حتى لا يُكشف عنه ، وما دام يفعل ذلك فاعلم من أول الأمر أنه ضعيف التكوين ؛ لأنه لو لم يعلم ضعف تكوينه لما مكر لأن القوى لا يمكر أبداً ، بل يواجه ، ولذلك يقول الشاعر :

وضـعيفة فإذا أصابت فرصـة قتلت كـذلك قـدرة الضـعفاء

والضعيف عندما يملك فهو يحدث نفسه بأن هذه فرصة لن تتكرر ، فيجهز على خصمه خوفاً من ألا تأتى له فرصة أخرى ، لكن القوى حين يأتى لخصمه فيمسكه ثم قد يُحدث نفسه بأن يتركه ، وعندما يرتكب هذا الخصم حماقة جديدة فيعاقبه . إذن فلا يمكر إلا الضعيف . والحق سبحانه وتعالى فى هذه المسألة يتكلم عن المجرمين من أكابر الناس ، أى الذين يتحكمون فى مصائر الناس ، ويفسدون فيها ولا يقدر أحد أن يقف فى مواجهتهم . وهناك كثير من الآيات تتعلق بهذه المسألة ، وبعضها وقع فيه الجدل والخلاف ، ومن العجيب أن الخلاف لم يُصفَّ ، وكل جماعة من العلماء يتمسكون برأيهم . وهذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها تلتقى مع القول الحق :

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وهذه الآية فيها إشكال ، وقامت بسببها معركة بين العلماء ؛ فنجد منهم من يقول : وكيف يأمر الله أناساً بالفسق ؟ . وحاولوا أن يجدوا تأويلا لذلك فقالوا : إن الحق قد قسر وأجبر أكابر هؤلاء الناس على الفسق . والجانب الثانى من العلماء قالوا : لا ، إن الحق لا يقسر البشر على الفسق ، بل على الإنسان حين يقرأ كلمة أمر الله فى المنهج فلابد أن يعرف أن هذا الأمر عرضة لأن يطاع وعرضة لأن يعصى ؛ لأن المأمور - وهو المكلف - صالح أن يفعل ، وصالح ألا يفعل ، وأن الآمر قد أمر بشىء ، والمأمور له حق الاختيار ، وبذلك تجد أكابر القوم إنما استقبلوا أمر الله بالعصيان ؛ لأن الحق هو القائل :

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾

(من الآية ٥ سورة البينة)

والفسق ـ إذن ـ مترتب على اختيار المأمور .

وحين نتأمل نحن بالخواطر معنى : « أمر الله » نجد أن أمر الله يتمثل فى التكوينات الطبيعية الكونية ولا يوجد لأحد قدرة على مخالفة الله فى ذلك ، فهو القائل : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

ويتمثل أيضاً أمر الله فى التشريعات ، وللبشر الذين نزلت لهم هذه التشريعات أن يختاروا بين الطاعة أو العصيان ، وسبحانه القائل عن الأمر بالتشريع : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله) .

وحين يقول الحق : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) .

فسبحانه لا يهلك هذه القرية ظلماً ، وإنما يرسل إليهم المنهج ، فإن أطاعوا فأهلاً وسهلاً ، وإن عصوا فلابد لهم من العقاب بالدمار .

وهكذا نرى أن العلماء الذين ظنوا أن الفسق مترتب على الأمر من الله لم يلتفتوا إلى أن ورود الأمر فى القرآن جاء على لونين : أولا : أمر التكوين بالقهريات فلا يستطيع المأمور أن يتخلف عنه ، ويمثل الأمر القهرى قوله الحق :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

فالأمر جاهز فى عالم الأزل ليبرز حين يشاء الحق . والأمر الثانى : هو الأمر التشريعى وهو صالح لأن يختار المكلف بين أن يطيع أو يعصى ، وفى هذا الإطار نفهم قوله الحق :

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

فلا تقل : إن الله يأمر بالفسق ؛ فالحق قد أمر المؤمنين بالمنهج لأنه سبحانه لا يأمر بالفحشاء ، بل جاء الأمر لكل البشر أن يعبدوا الله مخلصين له الدين ، لكن كبار

أهل هذه القرية أخذوا البديل للطاعة وهو الفسق والمعصية ، فلما أمرهم ففسقوا ماذا يصنع بهم ؟ ، هو سبحانه يدمرهم تدميرا . فإن كان فى الكونيات فلا أحد من خلق الله مكلف فى الكونيات ، أما أمره الثانى فى اتباع المنهج فلنا أن نفهم أنه الاختيار .

وهكذا نعلم ونفهم معنى هذه الآية لتلتقى مع الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : أى وإذا أردنا أن نهلك قرية أنزلنا منهجاً لها فأكابرها كانوا أسوة سيئة ففسقوا فيها بعدم إطاعة منهج الله فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكذلك - أيضاً - نفهم قوله الحق : « وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » لأن المكر إنما يريد به الماكر أن يحقق شيئاً من طريق ملتوٍ لأنه ضعيف لا يمكن أن يواجه الحقائق ، وهذه الحقائق تستقبلها الفطرة السليمة ، وهو يريد تزييف المسألة على هذه الفطرة لذلك يلتوى . ولمثل هذا الماكر نقول : أنت تريد أن تحقق لنفسك خيراً عاجلاً وشهوة موقوتة ، ولكنك إن استحضرت العقوبة التى تنشأ من هذا الأمر بالنسبة لك ، وكذلك عقوبتك على أنك أضللت الآخرين لرأيت كيف يأتى الشر .

﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة الأنعام)

أى لا يعلمون ، لأنهم لا يوازنون الأمور بدقة تؤدى إلى النفع الحقيقى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

وكأن الآية التى أرسلها الله مع رسوله وهى القرآن لتثبت لهم صدقه فى البلاغ عن

الله لم تقنعهم ، ولم يكتفوا بها ، بل طالبوا بآيات أخرى ، فهم قد قالوا :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

هم لا يريدون أن يؤمنوا بل إنهم يدخلون فى اللجاج ، والتماس سبل الفرار من الإيمان ؛ لذلك تجد أن كل الحجج التى وقفوا بها أمام دعوة الرسول هى أكاذيب ؛ فقالوا إنه ساحر يفرق بين المرء وزوجه ، وبين الولد وأبيه ، ويُدخل بما جاء به ـ ويزعم أنه من عند الله ـ الفتنة فى الأسرة الواحدة .

لكن لماذا لم يتساءلوا : ما دام قد سحر غيرنا فلماذا لم يسحرنا ؟ . وهل تأبوا هم على السحر ؟ . وهل للمسحور رغبة أو خيار مع الساحر ؟ . إنهم فى ذلك كاذبون .

ثم قالوا : إن الرسول صلى الله عليه وسلم شاعر . ولو أن أحداً غيرهم قال مثل هذا الكلام لكان مقبولاً لأنه يجهل رسول الله ، ولأنه ليس من قوم هم أهل فصاحة وأهل بلاغة وأهل بيان ، إنهم يعرفون الشعر ، والنثر ، والخطابة والكتابة . فلو كان هذا الأمر من غيرهم لكان القول مقبولاً ، ولذلك نجد منهم من تصفو نفسه يقول : والله ما هو بقول كاهن ولا بقول شاعر . ويطلب الحق منهم ألا يقولوا رأيا جماهيريًا ؛ ففى الرأى الجماهيرى يختلط ويلتبس الحق بالباطل . بل كان يطلب منهم أن يكون الكلام محدداً بحيث تنسب كل كلمة إلى قائلها فيقول الحق :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة سبأ)

أى لا تأتوا فى أثناء هياج الناس وتتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنون ؛ لأن قولكم فى الهياج الجماهيرى غير محسوب على أحد لكن المطلوب أن تقوموا لله

مثنى أى اثنين اثنين ، وكل اثنين يقولان : هيا بنا نستعرض أمر هذا الرسول ونرى قضاياه : أهو كاهن ؟ . أهو ساحر ؟ . أهو شاعر ؟ فبين الاثنين لا يضيع الحق أبداً لأن كلاً منهما يناقش الآخر ، وحين يجلس اثنان للنقاش ، إذا انهزم منهما واحد أمام الآخر لا يُفضح أمام الغير ، لكن حين يتناقش ثلاثة أو أربعة فكل منهم يخاف أن ينهزم أمام غيره ، ونجد كل واحد يدافع عن نفسه . ولذلك حين يجلس اثنان معاً ليتناقشا ، ويبحثا أى أمر لا يخشى أحدهما الهزيمة ؛ لذلك يأتى الأمر من الله أن يقوموا لله مثنى أو فرادى ، ويتذكر كل واحد منهم أمر هذا الرسول : أهو مجنون ؟ .

إن أفعال المجنون وأعماله تكون متقطعة غير مستقيمة . ومحمد على خلق عظيم ، وهل يقال للمجنون : إنه على خلق عظيم ؟ ؛ لأن الإنسان منا لا يعرف كيف سيقابله المجنون ، أيضربه ، أيشتمه ، أيقطع له ملابسه ؟ . أمّا الخلق العظيم فمعناه الخلق المضبوط بالقيم ، وخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم مضبوط بالقيم حتى صار ملكة وليس أمراً افتعاليًّا . وحين يقول الناس عن إنسان إن خلقه الكرم أى قد تأصلت فيه صفة الكرم تأصلاً بحيث أصبحت تصدر عنه أفعال البذل بيسر وسهولة ، والصفة حين ترسخ فى النفس تصير هى الخلق وتصدر عن النفس الأفعال بيسر وسهولة . وفى أعمال المعانى نسميها خلقاً ، وفى أعمال المادة نسميها آلية .

وكلنا يعرف أن الإنسان إن أراد أن يتعلم قيادة سيارة فهو يتعلم الأفعال التى تؤدى إلى سير السيارة حتى يكتسب المهارة ويؤديها بيسر وبدون صعوبة ، وكذلك الشأن فى الخلق حين تصدر عنه الأفعال بدُربة ومهارة ، ونجد ـ على سبيل المثال ـ من يتعلم الفقه ، فيسأله إنسان عن الحكم فى الأمر المعين ، فيستعرض الأمر من كل أوجهه فى وقت طويل ، لكن من يتدرب يصبح الفقه بالنسبة إليه ملكة ، فلا يتعب فى استنباط الحكم . كذلك الخلق .

ويوضح لهم الحق : أنتم تقولون عن الرسول : إنه مجنون ، فاجلسوا مثنى مثنى أو فرادى وادرسوا تصرفاته ستجدون أنها تصرفات منطقية مبنية على خلق كامل مكتمل ، وهو سلوك يختلف بالتأكيد عن سلوك المجنون ؛ لأن المجنون لا ضابط له فى حركاته ولا فى سكناته ولا فيما يأتى ولا فيما يدع . وكذلك لا يمكن أن يكون شاعراً ؛ لأنكم أنتم أهل شعر ، وكذلك ليس بكاهن ؛ فالكهنة قد يستبدلون بآيات

الله ثمنا قليلا ، وهو الذى أعلن لكم رفض الملك والثروة والجاه . لكنهم قالوا :

﴿ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة الأنعام).

وقد حدث الوليد بن المغيرة نفسه بذلك ، وكان من ناحية السن أسنّ من رسول الله ، ومن ناحية المال كان غنيًّا ، ومن ناحية الأولاد عنده العزوة والولد ، وقال : لو كانت الرسالة بكل هذه الأمور لكنت أنا أولى بهذا لأننى أسنّ ولأننى أكثر مالاً ولأننى أكثر ولداً . وهو قد قاسها بمقاييس البشر ، وكأن الوليد لم يكن يعلم أن الرسالة ليست رئاسة ، فإذا كنت أنت دون غيرك عندك المال وعندك الأولاد وعندك الزروع وغير ذلك لكنك لست على خلق محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى فطره الله عليه وأعده واصطفاه ليكون رسولا ، ولكن مع هذا قال بعضهم :

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ ﴾

(سورة الزخرف)

ولنسمع رد القرآن : .

﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

ويوضح لهم الحق : نحن قسمنا بينهم الأمور الحياتية ، لكنكم تريدون تقسيم رحمة الله ، وفرق بين الرحمة فى الرسالات وبين امتداد الحياة بالأقوات والمال ؛ لأن هذه عطاءات ربوبية . لكن الرحمة هى عطاءات ألوهية ، إنكم تميزتم فى دنياكم بالمال والبنين والبساتين لا لخصوصية فيكم ولكن لأن نظام الكون كله إنما يحتاج إلى مواهب متكاملة لا إلى مواهب متكررة ، ولو امتلك كل الناس مثل ما عندك يا وليد من أرض ومال لما وجدت من يفلح لك الأرض ، ولما كان عندك من يسرج لك الفرس . ولهذا جعل الحق مسألة الثروة دولاً ، أى يقلب سبحانه هذه الأمور لتكون متداولة بين الناس ؛ تكون لهذا فى زمن ولآخر فى وقت وزمن آخر ولا تدوم لأحد .

وحين جاء الناس إلى أبى جهل يحدثونه فى الرسالة قال : زاحمنا بنى عبد مناف فى

الشرف : أطعموا فأطعمنا ، كسوا فكسونا ، ذبحوا فذبحنا . حتى صرنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يوحى إليه والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلّا أن يأتينا بوحى كما يأتيه ، ومعنى كفرسى رهان ، أى فحين تنطلق الخيل فى السباق فى وقت واحد كانوا يدقون عوداً فى الأرض عند نهاية السباق ومن يجذبه من الأرض يقال له : حاز قصب السبق ، وعود القصبة هو غاية المشوار ، حتى لا يقولن أحد لقد سبقنى بخطوة أو غير ذلك .

وهنا يقول الحق : (وإذا جاءتهم آية) .

وانظر إلى كلمة « جاءتهم آية » ، فمرة يقول : (قد جئناك بآية من ربك) ، ومرة يقول : « جاءتهم آية » ، فكأن الآية بلغت من وضوحها ومن استقلالها ومن ذاتيتها وخصوصيتها أنها تجىء .

﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة الأنعام)

ويقول الله لهم رداً عليهم : لا تقترحوا ذلك على الله ؛ لأن « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ؛ لأن الرسالة إنما تجىء لتنشر خيراً فى الجميع ، ولكنها تعف نفسها عن آثار الانتفاع من ذلك الخير . والغير يريد أن يأتى له الخير ثم يترك بعضاً من الخير للناس . والرسول قد جاء لينشر خيره للآخرين ، وهو نفسه لا ينال من هذا الخير إلا البلاغ به . ويأمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت ألا يأخذ أهله الزكاة ، أمّا ما تركه فقد صار صدقة للناس ، أى أنه لم ينتفع به فى الدنيا ؛ لذلك هو مأمون على الرسالة ، ولم يُرد أن يأخذ الدنيا ليرثها أهله من بعده . وقد أراده الله كذلك ليكون خيره لكل الناس . فالرسالة تكليف ، والنبوة ليس جزاؤها هنا ، بل من عظمة الجزاء أنه فى الآخرة ، ولذلك حينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيعة العقبة وقالوا : اشترط لنفسك . قال : تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وتعملون كذا وتعملون كذا .

قالوا له : فما لنا ؟ أنت اشترطت لنفسك ، فما لنا إن نحن وفينا ؟ . ماذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ . قال : لكم الجنة . هذا هو الثمن الذى عنده ،

فمن يريد الجنة يأتى إلى الإيمان ، ومن يريد ما هو دون الجنة فليس مكانه مع أهل الإيمان . مع أنه قال لهم فيما بعد ستركبون السفن وتفرشون الزرابى والوسائد وتجلسون عليها ، وبشرهم بالكثير ، لكنه لم يقل لهم ذلك من البداية لأن مِن هؤلاء من لا يدرك خيراً فى الدنيا مع الإسلام ؛ بل يموت والإسلام ضعيف وأتباعه فى قلة ، لذلك أعطاهم الجزاء المضمون لهم جميعاً حين قالوا له : ماذا إن نحن وَفَّيْنا ؟ . قال : لكم الجنة . وكأنه صلى الله عليه وسلم يعلمهم أن الدنيا أهون من أن تكون جزاءً على العمل الصالح ، فجزاء العمل الصالح خالد لا يفوتك ولا تفوته .

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة الأنعام)

وحين نتأمل قولهم : (لن نؤمن) نجد أن فى هذا القول إصراراً على عدم الإيمان ، أى لن نؤمن حتى فى المستقبل إنهم تحكموا فى المستقبل . ثم يفضحهم الله فيموت بعضهم على الكفر ، ومن بقى منهم يأتون مؤمنين بعد الفتح . ومن العجيب أن العبارة التى ينطقون بها هى عبارة مهزوزة لا تستقيم مع منطق الكفر منهم ، قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، كأنهم قد عرفوا أن هناك رسلا من الله ، والأصل فى الآية أن يؤمنوا برسل الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل ، وهذا القول يدل على مجرد المعارضة المقترنة بالغباء ، فما دمتم تعرفون أن لله رسلاً يصطفيهم ، فكيف تحاولون أنتم تحديد إرادة الله فى الاختيار ؟ .

إن رسل الله كانت لهم آيات كونية ، حسيّة مرئية ، وهى وإن كانت فيها قوة المشهد الملزم ، إلا إنه لا ديمومة لها ، فمن رأى سيدنا موسى وهو يضرب البحر فينفلق لن يكذب هذه الآية الكونية ، إلا أنها أصبحت خبراً والخبر مناسب لمحدودية رسالة موسى ، وكذلك رسالة عيسى عليه السلام حيث أبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله . وهذه رسالات لزمن محدود وفى قوم محدودين ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء ومعه المنهج المعجزة الباقى إلى قيام الساعة ، فإن كانت المعجزة حسيّة فلن يراها إلا قوم مخصوصون لأن الأمر الحسّى لا يتكرر ، بل ينتهى ، وسيدنا محمد رسول إلى أن تقوم الساعة . فلابد له من آية باقية إلى قيام الساعة ؛ لذلك كانت الآية فى المعنويات والعقليات التى لا تختلف فيها الأمم ولا تختلف فيها الأزمان ،

لكنهم أرادوا معجزة حسيّة ، وأخرى عقلية ، حتى إذا جاءت واحدة فقط أنكروا الثانية ، فحسم الحق الأمر وقال : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ولو نظروا إلى كلمة « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، فكلمة « أعلم » تدل على أنه قد يمكّن الله بعضاً من خلقه ليعلموا لماذا اختار الله محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الذين واجههم صلى الله عليه وسلم بأمر الدعوة ، هل انتظروا منه أن تكون له آية أو معجزة ، أو آمنوا به بمجرد الإخبار ؟ . لقد آمنوا بمجرد الإخبار ؛ لأن تجربتهم معه أكدت أنه صادق وأمين على خبر الأرض ، ولابد أن يكون مأمونا على خبر السماء ؛ لأنه لم يكذب عليهم فى أمر الأرض ، فكيف يكذب فى أمر السماء ؟

إننا نجد أن سيدنا أبا بكر ، بمجرد أن علم بأمر الرسالة قال : صدقت ، وسيدتنا خديجة صدقته من فور أن قال ، وأخذت صدق بلاغه من مقدمات حياته ، وقالت أول استنباط فقهى فى الإسلام . وكان ذلك لسيدتنا أم المؤمنين خديجة قبل أن يعرف الفقه بمعناه الإصطلاحى الحديث ، مما يدل على أن الاستنباطات للأدلة هى استنباطات للعقل الفطرى السليم البعيد عن الأهواء . إنّه يقدر أن يستقرىء الأمر ولابد أن يهتدى ، فحين أعلن لها أنه خائف أن يكون الذى أصابه مرض أو مسٌ من الجن رفضت ذلك ؛ لأنه يصل الرحم ، ويحمل الكلّ ، ويعين على نوائب الدهر ، وقالت له : والله لا يخزيك الله أبداً .

إذن فقد جاءت بالمقدمات التى ترشح أن ربنا لا يمكن أن يخذله ، وكل المقدمات مفاخر ، وكلها خلق عظيم ، وكلها التقاءات إنسانية قبل أن يأتى منهج السماء ، التقاءات إنسانية بالفطرة دون تقدير أو تدبير ، وكان هذا أول استنباط فقهى فى الإسلام . ولذلك نعرف السر لماذا جعل الله لرسوله أم المؤمنين خديجة أول زوجة له ؟ لأنه ستمر به فترة لا يحتاج فيها إلى زوجة فقط ، بل إلى أم ناضجة ، ذلك النضج الكامل الذى تستقبل به مسائل النبوة ، ولذلك حين يخرج إلى الغار تأتى له بالطعام ، وتذهب معه لورقة بن نوفل . بالله لو كانت بنتاً صغيرة أكانت تمتلك حكمة خديجة فى الاستنباط قبل أن يوجد فقه الإسلام ؟

« الله أعلم حيث يجعل رسالته » ؟ ، وهم قد أصروا على ألا يعلموا على الرغم من أنهم وجدوا منه خصالاً وأشياءَ حكموا بوجودها فيه وأنها صفات رسول .

﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة الأنعام)

هنا نجد فجوة انتقالية فى الأداء ، فمن قبل يتحدث سبحانه عمن يظنون أنهم كبار ، فيأتى ليقول : إن الصَّغار سيصيبهم ، وليس معنى الصغار الذل والهوان لدى الناس ، لا ، بل صغار وذل وهوان عند نفس كل منهم ذاتيًّا ، فكل منهم سيشعر بالذل أمام نفسه ويستصغر نفسه . كأن الصغار سيصيب الإنسان فى نفسه ، ويكون هذا الصغار من عند الله ، وما دام الصغار منسوباً إلى عندية الله فهو لا يزول أبداً ؛ لأنه لا توجد قوة ثانية تقول لله إن قدرك لن يتحقق . فالصغار والذل والهوان سينزل بهم وهم مع كونهم أكابر المجرمين فلن يستطيعوا دفعه عن أنفسهم ، وسيصيبهم مع ذلك عذاب شديد .

لماذا العذاب الشديد ؟

لقد قلنا من قبل : إن العذاب يوصف مرة بأنه أليم ، ويوصف مرة أخرى بأنه مهين ، ويوصف هنا بأنه شديد . والعذاب المهين الذى تكون فيه ذلة النفس . والعذاب الأليم الذى يكون فى البنية ؛ لأن الإنسان له بنية وله معنويات قيمية ، فمن ناحية البنية يصيبه العذاب ، ومن ناحية المعانى النفسية تصيبه الإهانة ، فهناك من يتعذب لكنك لا تملك أن تهينه ويتحمل المشقة برجولة ، ومهما تلقى من الإهانة فلا تزال نفسه كريمة عليه ، مصداقاً لقول الشاعر :

وتجلدى للشامتين أريهمو أنى لريب الدهر لا أتضعضعُ

لذلك ينزل قدر الله بالعذاب على نوعين : عذاب بنية وعذاب قيم ، وهذا هو الصغار ، والعذاب الشديد ، وهو الذى لا يقوى الإنسان على تحمله ، ولم يُنزل الحق العذاب بهؤلاء جزافاً ، لكنه بسبب ما كانوا يمكرون ، فسبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة النحل)

والحق سبحانه وتعالى حينما عرض هذه القضية عرضها ليبين لنا أنه لم يرغم بقدره خلقاً من خلقه على مسائل الاختيار فى التكليف بل أوجد ذلك فى إطار :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ولكن الإرغام من الحق جاء للأمور القهرية القدرية الكونية الخارجة عن نطاق التكليف ، أما أمر التكليف فالله سبحانه وتعالى قال فيمن يرفضون الطاعة : « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد » وسبحانه قد أوضح لنا : نحن لم نجعل ذلك قهراً منا لهم دون عمل عملوه باختيارهم بل إن العذاب والصغار كانا جزاءً لمكرهم .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى لنا بقضية يقع فيها الجدل التبريرى لبعض الناس الذين أسرفوا على أنفسهم ، ويريدون أن يجعلوا إسرافهم على أنفسهم فى الذنوب خاضعا لأن الله أراد منهم ذلك ؛ فيقول سبحانه :

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

نجد من يقول إن ربنا حين يريد لإنسان أن يشرح صدره للإسلام فذلك من إرادة الله وما ذنب المكلف إذن ؟ .

وللرد على هذا نقول : لقد عرفنا من قبل أن الهداية لها معنيان : المعنى الأول : الدلالة وهى أمر وارد وواجب حتى للكافر . فإن هُدى الله للكافر أن يدلّه إلى طريق الخير ، ولكن هناك هداية من نوع آخر وهى للذى آمن ، ويصبح أهلاً لمعونة الله ، بأن يخفف عنه أعباء التكاليف وييسرها له ويجعله يعشق كل الأوامر ويعشق البغض والتجافى عن كل النواهى .

يقول بعض الصالحين : « اللهم إنى أخاف ألا تثيبنى على طاعة ، لأنى أصبحت أشتهيها » كأنه عشق الطاعة بحيث لم يعد يجد فيها مشقة أو تكليفاً ، لذلك فهو خائف ، وكأنه قد فهم أنه لابد أن توجد مشقة ، ولمثل هذا الإنسان الصالح نقول : لقد فقدت الإحساس بمشقة التكليف لأنك عشقته فألفت العبادة كما ألفتك وعشقتك ، وحدث الانجذاب بينك وبين الطاعة ، وجعلت رسول الله مثلاً لك وقدوة ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يرى أنه إذا نودى إلى الصلاة يقوم الناس إليها كسالى لكنه صلى الله عليه وسلم يقول لبلال حينما يأتى وقت الصلاة : « أرحنا بها يا بلال » .

وهذا غير ما يقوله بعض ممن يؤدون الصلاة الآن حيث يقول الواحد منهم : هيا نصل لنزيحها من على ظهورنا ، وهؤلاء يؤدونها بالتكليف لا بالمحبة والعشق . أما الذين ألفوا الراحة بالصلاة حينما يحزبهم ويشتد عليهم أمر خارج عن نطاق أسبابهم ، يقول الواحد منهم : ما دامت الصلاة تريح القلب ، فلأذهب إليها وألقى ربى زائداً على أمر تكليفه لى متقربا إليه بالنوافل ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة . ومعنى حزبه أن الأسباب البشرية لا تنهض به . فيقوم إلى الصلاة ، وهذا أمر منطقى ، ولله المثل الأعلى .
كان الإنسان منا وهو طفل إذا ما ضايقه أمر يذهب إلى أبيه ، فما بالنا إذا ما ضايقنا أمر فوق الأسباب المعطاة لنا من الله فلمن نروح ؟ إننا نلجأ لربنا ولقد كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة .

إذن فعشق التكليف شيء يدل على أنك ذقت حلاوة الطاعة ، وقد يجوز أنه شاق عليك ؛ لأنه يخرجك أولاً عمّا ألفت من الاعتياد . فعندما يأتيك أمر فيه مشقة تقول : إن هذه المشقة إنما يريد الله بها لى حسن الجزاء ، فإذا ما عشقت الصلاة صارت حبًّا لك ، وكان واحد من الصالحين ـ كما قلت ـ يخاف ألا يثاب على الصلاة لأنها أصبحت شهوة نفس ، والإنسان مطالب بأن يحارب نفسه فى شهواتها لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع لنا المثل فقال : « لا يؤمن أحدكم حتى يصبح هواه تبعاً لما جئت به » أى يصبح ما يشتهيه موافقا لمنهج الله ، فإذا وصل وانتهى المؤمن إلى هذه المنزلة فهو نعم العبد السوى .

وهكذا عرفنا أن الهداية قسمان : هداية بمعنى الدلالة ، وهداية بمعنى المعونة .

فإذا ما اقتنعت بهداية الدلالة وآمنت بالحق فسبحانه يخفف عليك أمور التكليف ، ويجعلك عاشقاً لها ، ولذلك يقول أهل الصلاح : ربنا قد فرض علينا خمس صلوات ، وسبحانه يستحق منا الوقوف بين يديه أكثر من خمس مرات ، وفرض علينا ربنا نصاب الزكاة وهو اثنان ونصف بالمائة ، وسبحانه يستحق منا أكثر من ذلك لأنه واهب كل شيء ، وهذا عشق التكليف ، وهذا هو معنى قوله : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ .

« فمن يرد الله أن يهديه » أي يدلّه سبحانه كما دل كل العباد إلى المنهج ، لكن الذى اقتنع بالدلالة وآمن يسهل عليه تبعات التكليف مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة مريم)

فهذه هداية المعونة ، وفيه فرق هنا بين الإسلام والإيمان لأن الإيمان لا يحتاج فقط إلى الاعتقاد ؛ إنما هو حمل النفس على مطلوبات الإيمان . ولذلك نجد أن كبار رجال قريش رفضوا أن يقولوا : « لا إله إلا الله » ؛ لأنهم علموا أنها ليست مجرد كلمة تقال ، ولكن لها مطلوبات تتعب فى التكاليف الناتجة عنها بـ « افعل » و « لا تفعل » . فالتكليف يقول لك : « افعل » لشيء هو صعب عليك ، ويقول لك : « لا تفعل » فى شيء من الصعب أن تتركه ، لذلك يقول سبحانه :

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة الأنعام)

وسبحانه يشرح صدره للإسلام بعد أن علم أنه قد اعتقد شريعة التوحيد ورضيها واطمأن بها ، فيأتى إلى فهم التكاليف ؛ لأن صحيح الإسلام يقتضى الانقياد لأمور التكاليف ، فمن أخذ الهداية الأولى وآمن بربه ، يوضح له سبحانه : آمنت بى وجئتنى ؛ لذلك أخفف عنك تبعات العمل ، ويشرح صدره للإسلام ، وشرح الصدر قد يكون جزاءً . فسبحانه هو القائل :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الشرح)

فقد جازاه ربنا بذلك ؛ لأنه أدّى ما عليه وصمد . كأن الله يريد بالإيمان من المؤمن أن يقبل على الحق ، وحينما يقبل على الحق ، يبحث العبد ليتعرف على المراد والمطلوب منه فيعلم أنها التكاليف ، فإذا رأى الله منك الاستعداد المتميز لقبول التكاليف ، فإنّه يخففها عنك لا بالتقليل منها ، ولكن بأن يجعلك تشتهيها ، وقد تلزم نفسك بأشياء فوق ما كلفك الله ؛ لتكون من أهل المودة ومن أهل التجليات ومن الذين يدخلون مع الله فى ود ، وتلتفت لنفسك وأنت تقول : لقد كلفنى الله بالقليل وسبحانه يستحق الكثير . فتزيد من طاعتك وتجد أمامك دائماً الحديث القدسى :

« من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها »[1] .

أى بالأمور التى تزيد على ما كلفه فى الصلاة والزكاة والصيام والحج .

إذن فمعنى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » أى يجعل الأمور التى يظن بعض من الناس أنها متعبة فإنه بإقباله عليها وعشقه لها يجدها مريحة ويقبل عليها بشوق وخشوع . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يترك فى خلقه مُثُلاً للناس ، فنجد المال عزيزاً على النفس حريصة عليه لأنه إن كان المال قد جاء بطريق شرعه الله وأحله فهو يأتى بتعب وبكدّ ؛ لذلك يحرص عليه الإنسان ، فيحنن الله العبد من أجل البذل والعطاء .

إننا نجد المؤمن يعطى للسائل لأن السائل هو الجسر الذى يسير عليه المسلم إلى الثواب من الله ، فيقول العبد المؤمن للسائل : مرحباً بمن جاء ليحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة ، ولذلك عندما جاء مسلم إلى الإمام علىّ ـ رضى الله عنه وكرّم الله وجهه ـ ، قال المسلم : أنا أريد أن أعرف أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟

---

(١) رواه البخارى .

واختار الإمام عليّ مقياساً للإيمان فى نفس كل مؤمن ، وقال له : إن جاءك من يطلب منك ، وجاء من يعطيك ، فإن كنت تهشّ لمن يعطيك فأنت من أهل الدنيا ، وإن كنت تهشّ لمن يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة ؛ لأن الإنسان يحب من يعمر له ما يحب .

إذن فـ « يشرح صدره للإسلام » أى يخفف عنه متاعب التكليف بحيث لا توجد مشقة ، ثم يرتقى بعد ذلك ارتقاءً آخر بأن يُعشّقه فى التكليف . ويهديه الله إلى طريق الجنة ، لأن هناك هداية إلى المنهج وهداية إلى الجزاء على المنهج ، ولذلك نجد القرآن يقول ؛ عمن ضلوا :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾

(سورة النساء)

كأن هناك هداية إلى العمل وهداية إلى الجزاء ، ونجد الحق يقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة محمد)

وقد يتساءل إنسان : كيف يهدى الله من قُتل ، وهل هناك تكليف بعد القتل ؟ . نقول : انظر إلى الهداية ، إنها هداية الجزاء « سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرَّفها لهم » .

وهكذا نعرف أن هناك هداية الجزاء ، من يحسن العمل يُجزِه الله الجنة ، أما من يسيء فله عذاب فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

(من الآية ١٢٥ سورة الأنعام)

وهل هذا تجنٍ من الله على خلقه ؟ لا ، لأنه ما دام دعاهم للإيمان فآمن بعضهم وصاروا أهلاً للتجليات ، وكفر بعضهم فلم يؤمنوا ، فصاروا أهلاً للحرج وضيق الصدر . ومعنى الضيق أن الشىء يكون حجمه أقل مما يؤدى به مهمته ، فحين يقال : ضاق البيت بى وبعيالى ، فهذا يعني أن الرجل وزوجه فى البداية عاشا فى غرفتين ، وكان البيت متسعاً . ثم أنجبا عيالاً كثيرة فضاق بهم البيت . وهكذا نعلم أنه لم يطرأ شىء على الجدران ومساحة البيت ، لكن حين زاد عدد الأفراد شعر رب الأسرة بضيق المنزل . ويقال : صدره ضيّق أو ضيْق فقد ورد فى القرآن لفظ ضيق على لغتين : فالحق يقول :

﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النحل)

وهناك فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها توجد كلمة ضَيّق ، والحق يقول :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة هود)

فما المراد من « ضائق » ، و« ضيّق » ، و« ضيْق » ؟ . نعرف أن الصدر هو مكان الجارحتين الأساسيتين فى التكوين : القلب والرئة ، والرئة هي الجارحة التى لا تستمر الحياة إلا بعملها ؛ فقد تبطىء الأمعاء مثلا ، أو تتوقف قليلاً عن عملها ، ويتغذى الإنسان على خزينه من الدهن أو اللحم ولذلك يصبر الإنسان على الجوع مدة طويلة ، ويصبر على الماء مدة أقل ، لكنه لا يصبر على افتقاد الهواء لدقائق ، ولا صبر لأحد على ترك الشهيق والزفير .

ولقد قلنا من قبل : إن الحق سبحانه وتعالى قد يملّك بعضاً قوت بعض . وأقل منه أن يملّك بعضا ماء بعض ، لكن أيملّك أحداً هواء أحد ؟ لا ؛ لأن الرضا والغضب أغيار فى النفس البشرية . فإذا غضب إنسان على إنسان ، وكان يملك الهواء وحبسه عنه فالإنسان يموت قبل أن يرضى عنه هذا الآخر ، ولذلك لم يملك الله الهواء لأحد من خلقه أبداً .

إذن كل المسألة المتعلقة بقوله : « يجعل صدره ضيقاً حرجاً » نعلم عنها أن الصدر

هو محل التنفس ، والرئة تأخذ الأوكسيجين وتطرد ثانى أوكسيد الكربون ، وعندما يصاب الإنسان بنوبة برد نراه وهو يجد صعوبة فى التنفس ، كأن حيّز الصدر صار ضيقاً ، فلا يدخل الهواء الكافى لتشغيل الرئتين ، ويحاول الإنسان أن يعوض بالحركة ما فاته فينهج . ويشخص الأطباء ذلك بأن المريض يريد أن يأخذ ما يحتاجه إليه من الهواء ، فينهج ؛ لأن الحيّز قد ضاق ، وكذلك عندما يصعد الإنسان سلماً ، ينهج أيضاً ؛ لأن الصعود يحتاج إلى مجهود ، لمعاندة جاذبية الأرض ، فالأرض لها جاذبية تشد الإنسان ، ومن يصعد إنما يحتاج إلى قوة ليتحرك إلى أعلى ويقاوم الجاذبية .

إننا نجد نزول السلم مريحاً ؛ لأن فى النزول مساعدة للجاذبية ، لكن الصعود يحتاج إلى جهد أكثر ، فإذا ضاق الصدر فمعنى ذلك أن حيز الصدر لم يعد قادراً على أن يأخذ الهواء بالتنفس بطريقة تريح الجسم ، ولذلك يقال : « فلان صدره ضيق » أى أن التنفس يجهده إجهاداً بحيث يحتاج إلى هواء أكثر من الحجم الذى يسعه صدره .

« ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً » والحرج معناه الحجز عن الفعل ، كأن نقول حرَّجت على فلان أن يفعل كذا ، أى ضيقت عليه ومنعته من أن يؤدى هذا العمل . (كأنما يصّعد فى السماء) .

وعلمنا أن الصعود لأعلى هو امتداد لفعل الجسم إلى جهة من جهاته . فالجهات التى تحيط بأى شىء ست : هى فوق وتحت ، ويمين ، شمال ، وأمام ، وخلف ، وعرفنا أن الهبوط سهل ؛ لأن الجاذبية تساعد عليه ، والمشى ماذا يعنى ؟ المشى إلى يمين أو إلى شمال أو إلى أمام أو إلى خلف ، فهو فعل فى الاستواء العادى الظاهر ، والذى يتعب هو أن يصعد الإنسان ، لأنه سيعاند الجاذبية ، وهو بذلك يحتاج إلى قوتين : قوة للفعل فى ذاته ، والقوة الثانية لمعاندة الجاذبية .

« ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعد فى السماء » وذلك بسبب مشقات التكليف ؛ لأنه لم يدخلها بعشق ، فلا يدخل إلى مشقات التكليف بعشق إلا المؤمن فهو الذى يستقبل هذه التكاليف بشرح صدر وانبساط نفس وتذكر بما يكون له من الجزاء على هذا العمل ، والذى يسهل مشقة الأعمال حلاوة تصور الجزاء عليها ؛ فالذى يجتهد فى دروسه إنما يستحضر فى ذهنه لذة النجاح وآثار هذا النجاح

فى نفسه مستقبلاً وفى أهله . أما الذى لا يستحضر نتائج ما يفعل فيكون العمل شاقاً عليه .

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة الأنعام)

والسماء هى كل ما علاك فأظلك ، فالجو الذى يعلوك هو سماء ، وكذلك السحابة ، وأوضح لنا ربنا أنه أقام السموات السبع ، وهنا أراد بعض العلماء الذين يحبون أن يظهروا آيات القرآن كمعجزات كونية إلى أن تقوم الساعة ، أرادوا أن يأخذوا من هذا القول دليلاً جديداً على صدق القرآن ، وتساءلوا : من الذى كان يدرك أن الذى يصعد فى الجو يتعب ويحتاج إلى مجهودين : الأول للعمل والثانى لمناهضة الجاذبية ولذلك يضيق صدره لأنه لا يجد الهواء الكافى لإمداده بطاقة تولد وقوداً .

ونقول لهؤلاء العلماء : لا يوجد ما يمنع استنباط ما يتفق فى القضية الكونية مع القضية القرآنية بصدق ، ولكن لنحبس شهوتنا فى أن نربط القرآن بكل أحداث الكون حتى لا نتهافت فنجعل من تفسيرنا لآية من آيات القرآن دليلاً على تصديق نظرية قائمة ، وقد نجد من بعد ذلك من يثبت خطأ النظرية .

إنه يجب على المخلصين الذين يريدون أن يربطوا بين القرآن لما فيه من معجزات قرآنية مع معجزات الكون أن يمتلكوا اليقظة فلا يربطوا آيات القرآن إلا بالحقائق العلمية ، وهناك فرق بين النظرية وبين الحقيقة ؛ فالنظرية افتراضية وقد تخيب . لذلك نقول : أبعد القرآن عن هذه حتى لا تعرضه للذبذبة . ولا تربطوا القرآن إلا بالحقائق العلمية التى أثبتت التجارب صدقها .

وقائل القرآن هو خالق الكون ، لذلك لا تتناقض الحقيقة القرآنية مع الحقيقة الكونية ؛ لذلك لا تحدد أنت الحقيقة القرآنية وتحصرها فى شىء وهى غير محصورة فيه . وتنبه جيداً إلى أن تكون الحقيقة القرآنية حقيقة قرآنية صافية ، وكذلك الحقيقة الكونية .

﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة الأنعام)

والرجس وهو العذاب ، إنما يأتيهم بسبب كفرهم وعدم إقبالهم على التكليف .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

و « هذا » مقصود به ما تقدم من آيات . من كتاب الإسلام وهو القرآن ، وذلك ما يشرح الصدر القابل للإيمان ، والقرآن هو الحامل لمنهج الإسلام ؛ فمرة تعود الإشارة إلى القرآن أو إلى الإسلام . وليس هناك خلاف بين القرآن والإسلام .

(وهذا صراط ربك مستقيماً) . و « الصراط » هو الطريق السَّوى ، والطريق السَّوى قد يكون مع استوائه معوجاً لكن هذا الطريق مستوٍ ومستقيم ، ونعلم أن الطريق المستقيم هو أقصر الطرق الموصلة للغاية . وعلى هذا فصراط لا تغنى عن مستقيم ، ومستقيم لا يغنى عن صراط ، بل لابد من صراط معبد ومستقيم ليكون أقصر طريق إلى الغاية وبلا متاعب ، إننا ـ نحن البشر ـ نرى المهندسين وهم يقيسون الأبعاد والمسافات والغايات والبدايات والنهايات ، وبعد ذلك يربطون البدايات بالغايات .

إنهم يحضرون آلات معينة ليرصدوا استقامة الطريق وكيفية تمهيده . وقد يعترض استقامة الطريق عقبات صعبة شديدة كَأْدَاء كجبل مثلاً ، فيقوم المهندسون إما بنحت نفق فى الجبل ليضمنوا له الاستقامة ، وإما بأن يحنى الطريق ليضمنوا جودة تعبيد الطريق . فإن جاء المهندسون وقالوا نمشى من هنا لنضمن استقامة الطريق فإننا نفعل ذلك . وإلاّ جعلوا الطريق متعرجاً أو حلزونيًّا ؛ وذلك ليتفادى السائر العقبات التى ليس له قدرة عليها .

لكن إذا كان الصراط قد مهده رب ، أتوجد له عقبة ؟ طبعاً لا ، إذن فهو طريق مستقيم . ولنلحظ أنه سبحانه قال : « صراط ربك » أى أنه جاء بها من ناحية

الربوبية ، والربوبية عطاء الرب ، إنه سيد ، ومربٍ ، وخالق الخلق ويضمن لهم ما يعينهم على مهمتهم فى الوجود معونة ميسرة سهلة . وهكذا نعرف أن طريق الحق هو الصراط المعبد المستقيم ، أى الذى يصل بين البداية والنهاية . فإن كان الطريق الذى نتبعه مستقيماً ومعبداً ، وسهلاً ، فلماذا لا نتبعه ؟

« وهذا صراط ربك » . ونلحظ أنه سبحانه قد أسند الرب لمحمد ، أى من أجل خاطره جعل الصراط مستقيماً ؛ لأنه سبحانه هو المتولى لربوبيتك يا محمد ، وسبحانه رب الكون كله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عين أعيان الكون .

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

« فصّلنا » أى أنّ كل شىء فى هذا الكون مخلوق لما يناسبه ، وكل قضية من قضايا الكون خلقها ربنا لتحقق الفائدة منها بدون مشقة ، وبدون عنت . والمنهج الذى أنزله الله إنما يصلح الكون ويجعل كل شىء فيه مناسباً لمهمته ؛ لأن الله إله كل الناس وهم بالنسبة إليه سواء لأنه لم يتخذ لا صاحبة ولا ولداً . ولا يعطى سبحانه الحياة لمخلوق ويوجده فى الكون ، ثم يعرّيه من أسلحة الحركة فى الحياة ، ولكل إنسان سلاح من موهبة أو قدرة وبذلك تتعدد الأسلحة والمواهب والقدرات ، فمن يريد أن يبنى بيتاً ، أنقول له : اذهب إلى كلية الهندسة لتتعلم كيف ترسم البيت وتخططه ؟ أنقول له : تعلم كيف تكون فنيًّا وكهربائيًّا ونقاشاً ؟ إن الفرد الواحد لا يمكن أن يتعلم كل هذه التخصصات ، لذلك وزّع الله المواهب على خلقه ؛ هذا عنده موهبة ليعمل لنفسه ، ويعمل لغيره . وبعد ذلك يأتى غيره ليؤدى له عملاً ليس له فيه موهبة بحيث يتكامل المجتمع كله ولا يتكرر أفراده .

ولو كنا تخرجنا جميعاً كأطباء أو مهندسين لما نفعت الدنيا ، ومن نقول عليهم : إنهم فشلوا فى التعليم يقومون بأعمال فى الحياة ما كنا نستطيع الحياة بدونها ؛ فقد خلقهم الله بقدرات عقلية محدودة ليهبهم قدرات أخرى تصلح فى مهمات أخرى . وإن تعلم المجتمع كله تعليماً عاليا لصار الهرم مقلوباً . وإن انقلب الهرم فمعنى هذا أن أجزاءً منه ستكون بغير دعائم فى الأرض . لذلك نجد أن هناك إعداداً عقليا أراده الحق لكل واحد من الخلق ، ولا نستطيع أن نقول لكل إنسان : تعلم وتخرج فى

الجامعة ثم اكنس الشارع . وكن فى الغد حداداً . لذلك ربط الحق كل عمل بالحاجة إليه ، ومن يحسن استقبال قدر الله فى نفسه يُعطِ الله له من العمل كل الخير .

ونلحظ الآن أن من يعمل موظفاً فى الدولة يحيا فى راتب محدود ، بينما تجد السباك يقدرعمله بأجر يحدده هو ، ويبقى الويل والتعب لمن كان تقدير عمله فى يد غيره . (وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) .

وانظر كل قضية فى الكون ، لم يُدخل ابن آدم فيها أنفه تجدها مستقيمة ، ولا يأتى الفساد إلا فى القضايا التى أدخل ابن آدم أنفه فيها بدون منهج الله . فإن دخلت فى كل مسألة بمنهج الله يستقم الكون تماماً . ولذلك يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى النظام الأعلى فى كونه والذى لا تدخل لنا فيه . ولا سيطرة عليه ؛ السموات ، والكواكب ، والشمس ، والقمر ، وحركة الأرض ، كل تلك الكائنات نجد أمورها تسير بانتظام ، ولذلك يقول لنا الحق سبحانه :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن أردتم أن تستقيم أموركم فى شئونكم وأحوالكم الاختيارية فادخلوا فيها بمنهج الله ؛ لأن الأشياء التى تدار بمنهج الله بدون أن يتدخل فيها البشر تؤدى مهمتها كما ينبغى .

فعلى الإنسان ـ إذن ـ أن يتذكر كيف يأخذ من المقدمات التى أمامه ما يوصل إلى النتائج ، ولابد أن يأخذ المقدمات السليمة ليصل إلى الغايات الفطرية . وأقصر الأمور أن تسأل نفسك : أنت صنعة من ؟ صنعة نفسك ؟ ! لا ، هل أنت من صنعة واحد مثلك ؟ لا . وهل ادّعى واحد فى كون الله ـ وما أكثر ما يُدَّعى ـ أنه خلقك أو خلق نفسه ؟ لا . بل أنت وهو وكل الكون من صنعة الله ، فدعوا الله يقرر قانون صيانتكم ، وسيظل الناس متعبين إلى أن يسلموا الصنعة إلى خالقها . (وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) .

ولم يقل فصلنا الآيات لواحد ، بل قال « لقوم » حتى إذا ما مال أو غفل واحد فى الفكر يعدله غيره . وكلنا متكافلون فى التذكير ، وهذا التكافل فى التذكير يعصم كل

مؤمن من نفسه ؛ فإن حصل عندى قصور من سهو أو من غفلةأو من هوى يعدله غيرى . وهذه قضية كونية لو استقرأت الوجود كله وجدتها لا تتخلف أبدا ، ولابد من تذكر الغاية التى جاء بها فى قوله الحق :

﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

أى أن لهؤلاء المتقدمين الذين صبروا وصابروا ورابطوا ، لهم دار السلام ، وهو أسلوب مكون ـ كما يقال ـ من مبتدأ وخبر ، إلا أن المبتدأ أُخِّر هنا ، والخبر تقدّم ، وكان المنطق أن يقال : « دار السلام لهؤلاء » ولكن الأسلوب القرآنى جاء ليقدم الخبر المكون من الجار والمجرور ومتعلقه ، ويؤخر المبتدأ وذلك لخصوصية أرادها الحق ، وهى أن هذه الدار لهم وحدهم دون غيرهم فهى خالصة لهم يوم القيامة و « دار السلام ». مكونة من كلمتين ، « دار » ومعناها ما يستقر فيه الإنسان ، ويجمع هذا المكان كل ما تتطلبه حياة الإنسان ، وهى أوسع قليلاً من كلمة « بيت » ؛ لأن البيت مكان يعد للبيتوتة ، لكن كلمة « دار » تعد للحياة ولما يتعلق بالحياة من مقوماتها .

و « دار » هنا مضافة إلى السلام ، وهو ـ كما نعلم ـ اسم من أسماء الله ، إذن فالحق هنا يوضح : لهم دار منسوبة للسلام وهو الله ، وهم مستحقون لها جزاءً منه ، فإذا كانت الدار التى وعدها الله هي دار السلام وهو الله ، فلابد أن فيها متعاً وإمكانات على قدر فضل المضاف إليه وهو الله ، ولماذا لم يقل الله : « دار الله » ؟ ؛ لأن الله أراد أن يأتى بوصف آخر من أوصافه ؛ ليعطيهم السلام والأمن والاطمئنان .

وهناك فرق بين دور الدنيا ، وهذه الدار ؛ فدور الدنيا فيها متع ، ولكنك فيها بين أمرين : إما أن تفوت أنت ما هى فيه ، وإما أن يفوتك ما فيها ، ولذلك لا يوجد فى الدنيا أمن ؛ لأن غيرك قد يناوئك فيها ويعاديك ، وقد تأتى لك مكدرات المرض ، وقد تأتى لك معكرات الأعداء ، كل ذلك ينغص عليك الأمن والسلام فى الدنيا . ولذلك أراد الحق أن تكون لك الآخرة دار سلام مادمت قد آمنت ، وأن تأمن فيها

من كل الآفات التى كانت فى دار الدنيا .

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة الأنعام)

وكأن دار السلام ليست وعداً من الله بأن تكون ، ولكنها جاهزة معدّة عند الله ومحفوظة لديه تنتظر المؤمنين ، وسبحانه قد خلق جناناً تتسع لكل خلقه على فرض أنهم آمنوا ، وجعل من النار مثل ذلك على قدر خلقه ، على فرض وتقدير أنهم كفروا . وسيأخذ المؤمنون ما أعد لهم من دور الإيمان ويرثون ما أعد للكافرين من دور الإيمان على فرض أنهم آمنوا فى الدنيا .

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

فلم يخلق الحق جِناناً محدودة ، لا ، بل أعد وهيأ من الجنان مايتسع لكل الخلق إن آمنوا ، ومن النيران ما يتسع لكل الخلق إن كفروا . ومادامت العندية منسوبة إلى الله فهى عندية مأمونة .

وبعد ذلك أيتخلّى الله عنهم ويكلهم إلى ما أعدّه لهم ؟ . لا ، بل قال :

﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة الأنعام)

فهناك إعداد ، ثم قيومية ولاية الله ، وهذه القيومية لله ، هى للمؤمنين فى الدنيا . لكن فلنلاحظ أن الولاية فى الدنيا قد تكون فيها أسباب مخلوقة لله ، لكن فى الآخرة هناك الجزاء الذى لا يكله الله للأسباب ، فتكون الولاية مباشرة له ؛ لأنه سيعطيك فوراً ، وإذا خطر أى شىء ببالك تجده حاضراً : فهى متعة على غير ما ألف الناس ؛ لأن الناس يتمتعون فى الدنيا بواسطة الأسباب المخلوقة لله . ولكن فى الآخرة فلا ملكية لأحد حتى فى الأسباب ، لذلك يقول سبحانه :

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وستجد الإجابة هى قوله - سبحانه - :

﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

والحق هو الولى الذى يليك ، قرباً تنتفع به ، فلا تضطر حتى أن تنادى عليه ليأتى لك بالمنافع ويدفع عنك المضار كما عمل لك فى الدنيا ووفقك للعمل وهو وليك فى الآخرة بحسن الجزاء لك بسبب ما كنت تعمل ؛ فالعمل فى الدنيا هو الزرع وهو الحرث لثمرة الآخرة . ولكن أيعطينا الله على قدر أعمالنا ؟ لا ، بل يعطينا على قدر صبرنا ؛ لأنه إن كان العطاء على قدر الأعمال ، إننا لو حسبناها لما أدينا ثمن عشر معشار نعم الله علينا فى الدنيا . فكأننا نعمل فى الدنيا لنؤدى شكر ما أفاء علينا وأعطانا من النعم ، فإذا جاء الحق سبحانه وتعالى وأعطانا بعد ذلك ثواباً فهو الفضل منه ، ولذلك يوضح الحق لنا : إياكم حين توفقون فى العمل أن تفتتنوا بأعمالكم ، بل عليكم أن تتذكروا أن ذلك فضل من الله :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

وقد شرح النبى عليه الصلاة والسلام هذا الأمر وقال :

« لن يُدْخِل أحداً منكم عملُه الجنة ، قالوا : ولا أنتَ يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه بفضل ورحمة »[١] .

إذن المسألة كلها بالفضل من الله ، ولكن فضل الله شرطه العمل الصالح ؛ فأنت تعمل العمل الصالح ، ويعطيك ربنا أضعافه ، وبطبيعة الحال فعملك لن ينفع جلاله أو جماله أو كماله أو يزيده صفة أو يزيده ملكاً ، لكنه يعطيك على ما عملته لنفعك ولنفع بنى جنسك .

ولذلك نجد الإمام الرازى - رضى الله عنه - يقول : إن العمل فى ذاته يورث

---

(١) رواه مسلم فى المنافقين واللفظ له ، ورواه البخارى فى الرقاق والمرضى ، وابن ماجه فى الزهد ، والدارمى فى الرقاق ، ورواه أحمد فى المسند ٢/٢٣٥ ، ٢٥٦

الذات شيئا من الصفاء الذى ترتاح له وتسعد به ، حتى تجد الجزاء فى الراحة ، والراحة النفسية هى الأمر المعنوى الذى يوجد فى بنية مادية هى قالبك . فساعة يوجد شىء فى النفس فهو يؤثر فى القالب أغياراً ، فإذا غضب الإنسان فهذا الغضب يظهر أثره فى البنية نفسها فيحمر الوجه ، ويرتعش الإنسان للانفعال بالغضب ، والغضب أمر معنوى لكنه أثّر فى البنية ، وكذلك إذا ما حدث ما يسرّك ، يظهر ذلك فى البنية أيضاً ؛ فتشرق وتتهلل أساريرك . إذن فالعمل يؤثر فى البنية ، والبنية تؤثر فى العمل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

وساعة تسمع « يوم » اعرف أنها « ظرف زمان » ، أى أن هناك حدثاً ، وقوله الحق : « ويوم يحشرهم جميعاً » أى اليوم الذى يقف فيه الجميع ويحشدون ، وحين ننظر إلى ما بعدها نجد أن الحدث لم يأت ، ولكن جاء « يا معشر الجن » وهذا « نداء » . فكأن الحدث هو النداء نفسه ، والنداء يقتضى مناديًا ، وهو الحق سبحانه ، ومنادى وهو معشر الجن والإنس ،وقولاً يبرز صورة النداء . فكأن العبارة هى : يوم يحشرهم جميعاً فيقول يا معشر الجن والإنس ، و« الحشر » هو الجمع ، و« المعشر » هم الجماعة المختلطة اختلاط تعايش ، بمعنى أن يكون فيهم كل عناصر ومقومات الحياة ، وقد يضاف المعشر إلى أهل حرفة بخصوصها ؛ يا معشر التجار ، يامعشر العلماء ، يا معشر الوزراء . لكن إن قلت : يا معشر المصريين فهى جماعة مختلطة اختلاط تعايش ومعاشرة .

﴿ يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الأنعام)

و « استكثر » أى أخذ منه كثيراً ، كمن استكثر من جمع المال ، أو استكثر من الأصدقاء ؛ فمادة « استكثر » تدل على أنه أخذ كثرة . وماذا يعنى استكثارهم من الإنس ؟ . نحن نعلم أن من الجن طائعين ، ومنهم عاصون ، والأصل فى العصيان فى الجن « إبليس » الذى أقسم :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

فكأن الحق يوضح : أنكم معشر الجن قد حاولتم جاهدين أن تأخذوا الإنس إلى جانبكم واستكثرتم بهم ، فبعد أن كان العاصون فقط من شياطين الجن وجد عصاة من الإنس أيضاً ، واستكثرتم منهم ، بأن ظننتم أن لكم غلبة وكثرة وعزاً ؛ لأنهم إذا أطاعوكم فى الوسوسة أصبحت لكم السيادة ، وذلك ما كان يحدث ، فكان الإنسان إذا ما نزل واديًا مثلاً قال : أعوذ بسيد هذا الوادى ـ من الجن ـ ويطلب أن يحفظه ويحفظ متاعه ، وحينما يوسوس له بشىء يسارع إلى تنفيذه ، وهذا استكثار .

﴿ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٍ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الأنعام)

وكذلك لم يستمتع الجن والإنس فقط ، بل استمتع الإنس أيضاً بالجن ، وهكذا نجد تبادل استمتاع من خلف منهج الله ، لهؤلاء إغواءً وسيادة ، يأمرونهم بعمل الأشياء المخالفة لمنهج الله ، وهؤلاء يستمتعون بهم لأنهم يحققون لهم شهواتهم فى صورة تدين ، فيقولون لهم : اعبدوا الأصنام ، واعبدوا الشمس ، واعبدوا القمر ، فيفعلون . وذلك يرضى فيهم غريزة الانقياد التدينى ؛ لأن كل نفس مفطورة على أن ترتبط بقوة أعلى منها ؛ لأن الإنسان إذا نظر لنفسه وإلى قرنائه من الإنس وجدهم أبناء أغيار ؛ الواحد منهم يكون اليوم صحيحاً وغداً مريضاً ، ويكون اليوم غنيًا وغداً فقيراً ، فما الذى يضمن للنفس البشرية حماية من هذه الأغيار ؟ .

إن الإنسان يحبّ أن يلجأ ويرتبط بِقَوِىّ ؛ حتى إذا ما جاءت هذه الأغيار كانت

سنداً له . إلا أن هناك من يصعدها فى التدين وهؤلاء هم الذين يركنون إلى الإيمانية لله ويعتمدون عليه سبحانه ويقبلون على الإيمان بالله بمطلوبات هذا الإيمان فى « افعل » و « لا تفعل » . لكن الأشياء التى يعبدونها من دون الله ليس لها مطلوبات أو تكاليف إلّا أن تكون موافقة لأهواء النفس ، وهذا الإكذاب للنفس أى حمل النفس على الكذب لا يدوم طويلاً ؛ لأن الإنسان لا يغش نفسه ؛ فالإيمان يحمى النفس إذا جاء أمر فوق أسبابك ، وليس هناك من يقول: يا شمس أو يا قمر ، يا شيطان أو يا صخر ! لا يمكن ؛ لأنك لن تكذب على نفسك أبداً . ومثال ذلك قول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

وهنا يقول الحق عن الإنس :

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الأنعام)

أى أن لهذا الاستمتاع أمداً ، هو أمد الأجل أى ساعة تنقضى وتنتهى الحياة ، ثم يبدأ الحساب فيسمعون قول الحق :

﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الأنعام)

و « الثواء » هو الإقامة ، و « مثواكم » أى إقامتكم ، « إلا ما شاء الله » وهذا الاستثناء كان محل نقاش بين العلماء ، دار فيه كلام طويل ؛ فهناك من قال : إن الحق سبحانه وتعالى قال : « إلا ما شاء الله » أى أن له طلاقة القدرة والمشيئة ؛ فيفعل ما يريد لكنه حسم الأمر وحدد هو « ما شاء » فقال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

وهنا حدد « ما شاء » ، أى أن ما شاء يكون فى غير الشرك به فإن الشرك لا يكون محل غفران منه سبحانه . أو يجوز « إلا ما شاء الله » أن بعضاً يفهم أنه بمجرد البعث والحشر ستكون النار مثواهم ، ولكن المثوى فى النار لن يكون إلا بعد الحساب ، وهذا استثناء من الزمن الخلودى ، فلن يحدث دخول للجنة أو للنار إلا بعد الحساب . فزمن الحساب والحشر مستثنى وخارج عن زمن الخلود فى الجنة أو النار .

ونحن نجد أيضاً « إلا ما شاء ربك » فى سورة هود حيث يقول الحق :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَاشَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَاشَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة هود)

إذن فهناك الاستثناء فى النار والاستثناء فى الجنة ، فقول الحق : « خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك » فمجىء الاستثناء بعد الوصف بالخلود ، يدل على أن الخلود ينقطع مع أنه قد ثبت خلود أهل الجنة فى الجنة وخلود أهل النار فى النار للأبد من غير استثناء فكيف ذلك ؟

والرد على هذا أن أهل النار لايخلدون فى عذاب النار وحده بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار بما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم ولعنهم وطردهم وإهانته إياهم . وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعا ، وهو رضوان الله كما قال : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر) فلهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو ، فهذا هو المراد بالاستثناء ، والدليل عليه قوله : (عطاء غير مجذوذ) ومعنى قوله فى مقابلته : (إن ربك فعال لما يريد) أن ربك يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب ، كما يعطى أهل الجنة عطاءه الذى لا انقطاع له .

ويذيل الحق الآية بقوله : « إن ربك حكيم عليم » . حكيم فى أن يعذّب ، عليم بمن يستحق أن يعذّب ، ومقدار عذابه ، وعليم بمن يستحق أن يثاب وينعم ، وبمقدار ثوابه ونعيمه ، وحكيم فى أن يرحم . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

« وكذلك » تشير إلى ما حدث من الجن والإنس من الجدل ، فقال الحق على ألسنة الإنس :

﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الأنعام)

ولم يأت بكلام الجن ؛ لأن كلامهم جاء فى آيات أخرى ؛ فالحق هو القائل :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وكذلك أورد الله ما يجىء على لسان الشيطان فى سورة أخرى :

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الحشر)

وكذلك جاء الحق فى آيات أخرى بأقوال الإنس الذين ضلوا :

﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة فصلت)

وقوله الحق هنا فى سورة الأنعام :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأنعام)

أى كما صنعنا مع الجن والإنس ، باستكثار الجن من الإنس واستمتاع بعضهم ببعض إضلالا وإغواء ، وطاعة وانقيادا ، نجعل من بينهم ولاية ظالم على ظالم ، ولا نولى عليهم واحداً من أهل الخير ؛ لأن أهل الخير قلوبهم مملوءة بالرحمة ، لا يقوون على أن يؤدبوا الظالم ؛ فهم قد ورثوا النبوة المحمدية فى قوله يوم فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، ولذلك إذا أراد الله أن يؤدب ظالماً لا يأتى له بواحد من أهل الخير ليؤدبه ، إنه ـ سبحانه ـ بتكريمه لأهل الخير لم يجعل منهم مَن يكون فى مقام من يؤدب الظالم . إنه ـ سبحانه ـ يجعل أهل الخير فى موقف المتفرج على تأديب الظالمين بعضهم بعضا .

والتاريخ أرانا ذلك . فقد صنع الظالمون بعضهم فى بعض الكثير ، بينما لو تمكن منهم أعداؤهم الحقيقيون لرحموهم ؛ لأن قلوبهم مملوءة بالرحمة .

ولذلك بلغنا عن سيدنا مالك بن دينار وهومن أهل الخير . يقول : قرأت فى بعض الآثار حديثاً قدسيا يقول فيه الحق :

« أنا ملك الملوك قلوب الملوك بيدى »[1] .

فإياكم أن يظن الطاغية أو الحاكم أو المستبد أنه أخذ الحكم بذكائه أو بقوته ، بل جاء به الحق ليؤدب به الظلمة ، بدليل أنه ساعة يريد الله أن تنتهى هذه المسألة فهو

(١) تذكرة الموضوعات لابن القيسرانى .

بجلاله ينزع المهابة من قلوب حرّاسه ، وبدلاً من أن يدفع عنه بالبندقية ، يصوّب البندقية إليه .

فإياكم أن تظنوا أن ملكا يأخذ الملك قهراً عن الله ، ولكن إذا العباد ظلموا وطغوا يسلط الحق عليهم من يظلمهم ، ولذلك يقال : « الظالم سيف الله فى الأرض ينتقم به وينتقم منه » .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فكأن ما سلّط على الناس من شرّ عاتٍ هو نتيجة لأعمالهم ، ولذلك كان أحد الصالحين يقول : أنا أعرف منزلتى من ربى من خُلُق دابتى ؛ إن جمحت بى أقول ماذا صَنَعْتُ حتى جمحت بى الدابة ؟! وكأن المسألة محسوبة . وهذه معاملة للأخيار ، عندما يرتكب ذنباً يؤاخذ به على الفور حتى تصير صفحته نظيفة دائماً . قال عليه الصلاة والسلام : « مامن مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه ، حتى الشوكة يُشاكها »[1] .

فإذا فعل العبد من أهل الخير بعضاً من السيئات ، يوفّيه الحق جزاءه من مرض فى جسمه أو خسارة فى ماله ، وكذلك المسىء الذى لا يريد له الله النكال فى الآخرة . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا حط الله تعالى له به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها »[2] .

(وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) هم اعتقدوا أنهم أخذوا شيئاً من وراء الله وخلصوا به . نقول : لا ، فربك سيحاسبك ثواباً أو عقاباً وذلك بما قدمت يداك وما عملت من سيئات أو حسنات .

ويقول الحق بعد ذلك :

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد .
(٢) رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود .

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

ونلاحظ أنه قال هنا : « يا معشر الجن والإنس » لأنه يريد أن يقيم عليهم الحُجة بأنه سبحانه لم يجرم أعمالهم ولم يضع لهم العقوبات إلا بعد أن بلغهم بواسطة الرسل ؛ فقد أعطاهم بلاغاً بواسطة الرسل عما يجب أن يُفعل ، وما يجب أن يُترك . فلم يأخذهم - سبحانه - ظلماً .

وهنا وقفة ؛ فالخطاب للجن والإنس « ألم يأتكم رسل منكم » فقال بعض العلماء : إن الجن لهم رسل ، والإنس لهم رسل ، وقال آخرون : الرسل من الإنس خاصة ؛ لأن القرآن جاء فيه على لسانهم : (إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى) .

إذن فقد احتج الجن بكتاب أنزل من بعد موسى عليه السلام وعندهم خبر عن الكتاب الذى جاء بعده ، كأن الجن يأخذون رسالتهم من الإنس ؛ فكأن الله قد أرسل رسلاً من الإنس فقط وبلغ الجن ما قاله الرسول ، وهو هنا يقول سبحانه :

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٠ سورة الأنعام)

وأنت حين تأتى إلى اثنين : أولهما معه مائة جنيه ، والثانى يسير معه وليس معه شىء وتقول : « هذان معهما مائة جنيه » فهذا قول صحيح . فقوله سبحانه : « ألم يأتكم رسل منكم » أى من مجموعكم . أو أن الرسل تأتى للإنس ، وبعد ذلك مِن الجن من يأخذ عن الرسول ليكون رسولاً مبلّغاً إلى إخوانه من الجن :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الأحقاف)

فكأن المنذرين من الجن يأخذون من الرسل من الإنس وبعد ذلك يتوجهون إلى الجن .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي ﴾

(من الآية ١٣٠ سورة الأنعام)

والآيات تطلق على المعجزات التى تثبت صدق الرسل ، وما يكون من شرح الأدلة الكونية الدالة على صدق الرسل . وكلمة « يقصّون عليكم آياتى » أى يروون لهم الموكب الرسالى من أول « آدم » إلى أن انتهى إلى « محمد » صلى الله عليه وسلم . و « يقصّون عليكم آياتى » قول يدل على دقة الأداء التاريخى ؛ لأن « قصّ » مأخوذ من قصّ الأثر ، ومعناها تتبع القدم بدون انحراف عن كذا وكذا ، وهكذا نجد أن المفروض فى القصة أن تكون مستلهمة واقعَ التاريخ .

﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾

(من الاية ١٣٠ سورة الأنعام)

وهو اليوم المخزى حيث سيقفون أمام الله ويذكرهم الحق أنه قد نبههم وقد أعذر من أنذر .

﴿ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾

(من الاية ١٣٠ سورةالأنعام)

وقولهم:« شهدنا على أنفسنا » إقرار منهم على أنفسهم ؛ فقد شهدوا على أنفسهم ، ولكن ما الذى منعهم أن ينضموا إلى الإيمان بمواكب النبوة ؟ . تأتى الإجابة من الحق : (وغرّتهم الحياة الدنيا) .

والذى يغرّ هو الشىء الذى يكون له تأثير ، وهو موصوف بأنه « دنيا » !! لذلك فالغرور الذى يأتى بالدنيا هو قلة تبصّر . (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) . ومن يستقرىء آيات القرآن يجد آية تقول :

﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورةالأنعام)

فمرة ينفون عن أنفسهم أنهم كفروا ، ومرة يثبتون أنهم كافرون ، وهذا لاضطراب المواقف أو اختلافها . أو أنهم « شهدوا على أنفسهم » ؛ بمعنى أن أبعاضهم شهدت عليهم ؛ لأن الإنسان فى الدنيا له إرادة ، وهذه الإرادة مسيطرة على ما له من جوارح وطاقات مخلوقة لله ؛ لأن الله جعل للإرادة فى الإنسان ولاية على الأبعاض التى تقوم بالأعمال الاختيارية . لكن الأعمال الاضطرارية القهرية ليس للإنسان إرادة فيها ؛ فلا أحد يملك أن يقول للقلب انبض كذا دقة فى الساعة ، ولا أن يقول للأمعاء : تحركى الحركة الدّودية هكذا . لكنه يقدر أن يمشى برجليه إلى المسجد ، أو يمشى إلى الخمّارة . ويستطيع أن يقرأ القرآن أو يقرأ فى كتاب يضرو لا يفيد .

إذن فإرادة الإنسان مسيطرة على الأبعاض لتحقق الاختيار المصحح للتكليف . لكن يوم القيامة تسلب الإرادة التى للإنسان على أبعاضه ، وتبقى الأبعاض كلها حُرّة ، وحين تصير الأبعاض حُرّة فالأشياء التى كانت تقبلها فى الدنيا بقانون تسخيرها لإرادتك قد زالت وانتهت ، فهى فى الآخرة تشهد على صاحبها ؛ تشهد الجلود والأيدى والأرجل :

﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

وحين يقولون لربنا : ما كنا مشركين ، فهذا كلامهم هم ، لكن جوارحهم تقول لهم : يا كذابون ، أنتم عملتم كذا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

« ذلك » إشارة إلى ما تقدم ، وهو إرسال الرسل مبلغين عن الله ؛ حتى لا يكون لأحد حُجة بعد الرسل ، وقد أقروا بأن الله أرسل إليهم رسلاً ، وشهدوا على أنفسهم ، وماداموا قد أقرّوا على أنفسهم بأن الله أرسل لهم رسلاً وشهدوا على أنفسهم بذلك ، إذن فهذا إقرار جديد بأن الله لم يكن مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعاقب على جُرم ،وقبل أن يجرّم ينزل النص بواسطة الرسل . أى أن الله لا يهلكهم بسبب ظلم وقع منهم إلا بعد ذلك البلاغ .

« وأهلها غافلون » ، و « الغفلة » ضد اليقظة ، فاليقظة هى تنبّه الذهن الدائم ،و « الغفلة » أن تغيب بعض الحقائق عن الذهن ، ومعنى أن ربنا لا يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون أى غير يقظين ؛ فلو أنهم كانوا يقظين ومتنبهين لما احتاجوا إلى الرسل ؛ لأن الله عندما خلق الخلق أرسل آدم إلى ذريته ، وكان المفروض كما يلقن الآباء الأبناء وسائل حياتهم أن يلقنوهم مع ذلك قيم دينهم . فكما أن الآباء يعلمون ذريتهم وسائل حياتهم ، ثم ينقلونها ويزيدون عليها بابتكاراتهم ، كان من الواجب على الآباء أن يقوموا بهذا العمل بالنسبة للقيم فتعيش القيم فى الناس كما عاشت وسائل حياتهم .

ولماذا ـ إذن ـ عاشت وسائل حياتهم وتوارثوها وزادوا عليها أشياء ؟! لأن زاوية الدين هى التى يغفل الناس عنها ، بسبب أنها تقيد حركتهم فى « افعل » و « لا تفعل » ، ولكنهم يريدون الترف فى وسائل حياتهم . لماذا إذن أيها الإنسان تحرص على الترقى فى ترف الحياة ولا تحرص على الترقى فى القيم ؟ . لقد كنت ـ على سبيل المثال ـ تشرب من الماء أو النبع بيدك ثم صنعتَ كوباً لتشرب منه ، ونقيت الماء من الشوائب ونقلته من المنابع فى صهاريج . أنت ترفه حياتك المادية والمعيشية فأين إذن الاهتمام بقيم الدين ؟!!

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ولو كانوا متيقظين لكان كل أب قد علم ابنه ما ورثه من آبائه من القيم ، وعلى الرغم من ذلك رحم الحق سبحانه وتعالى هذه الغفلة ، وكرّر التنبيه بواسطة الرسل . وكلما انطمست معالم القيم التى يحملها المنهج فهو ـ جل وعلا ـ يرسل رسولاً رحمة منه وفضلاً وعدالة ، ولم يكن يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ، والغفلة ضد اليقظة .

إذن لو كانوا متيقظين لما كانت هناك ضرورة للرسل ؛ لأن الآباء كانوا سينقلون لأبنائهم القيم كما ينقلون إليهم وسائل حياتهم ، وهذا الأمر مستمر معنا حتى الآن ؛ إن الأب ـ مثلاً ـ إن غاب ابنه عن المدرسة يوماً يلوم الابن ، وإن أهمل فى دروسه أو رسب فهو يعاقب الابن ، وهذه هى الغيرة على المستقبل المادى للابن ، ولا غيرة على أدائه لفروض الدين ، لماذا ؟ . إن الناس لو عنوا بمسائل قيمهم كما يعنون دائماً بمسائل حياتهم لاستقام منهج الخير فى الناس وأصبح أمراً رتيباً.

وعرفنا أن الغفلة ضدها اليقظة ، كما أن السهو ضده التذكر ، والغروب ضده الشروق ، والغياب ضده الحضور .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

« ولكلٍّ » ، وجاءت بالتنوين أى لكلٍّ من الإنس والجن درجات مما عملوا ، فكأن الأعمال تتفاوت ؛ فقد تكون فى ظاهرها قوالب متحدة ، لكن التفاوت إنما ينشأ بكثرة العمل ، أو بإخلاص المقارف للعمل والمكتسب والفاعل له ، فهناك من يخلص بكل طاقته ، وهناك من يؤدى عمله بنصف إخلاص ، ومسألة الإخلاص هذه لا تحددها لوائح ولا قوانين إنما يحددها الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك يقول محمد صلى الله عليه وسلم مبلغاً عن رب العزة هذا الحديث القدسى :

« الإخلاصُ سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى »[١] .

إذن فمقاييس الإخلاص لا يعرفها إلا ربنا سبحانه وتعالى ، وعلى مقدار ذلك تكون الدرجات . وتكون الدرجات على مقدار ما يزيده العبد من جنس ما فرضه الله عليه ؛ فالحق قد فرض صلوات خمساً ، فيزيد العبد عشر ركعات فى الليلة مثلاً . والله قد فرض الصيام شهراً ، فيصوم العبد يومى الاثنين والخميس .

والذى يقف عند ما فرض الله يجازيه الله على إخلاصه فى أداء ما عليه ، وحينما سأل أعرابى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن موقف الذى لا يؤدى إلا الفروض فقط ، قال له : (أفلح إن صدق)[٢] ، فالذى يزيد عما فرض الله من جنس ما فرض الله أشد فلاحاً . ولا يصل الإنسان إلى المرتبة التى هى أشد فلاحاً إلا إذا كان فى درجة أعلى ، وكلمة « درجات » تفيد العُلوّ ، وكلمة « دركات » تفيد الهبوط ،والحق لا يغفل عن ظاهر وباطن كل عمل لأى عبد .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

وهنا يحنننا الله سبحانه وتعالى إلى عبادته ، وإلى تكاليفه ؛ يحنننا إلى فضيلة الطاعة ، وكل ذلك لمصلحتنا وهذا مطلق الربوبية الرحيمة ، فيحسن لنا الجزاء ، ويفخم لنا فيه لنعمل لصالحنا نحن ؛ لأن كل أعمالنا ـ كما قلنا ـ لا تزيد فى ملك الله قدر جناح بعوضة ، وكل معصياتنا لا تنتقص من ملك الله قدر جناح بعوضة ؛ لأن الله بكل صفات الكمال خلقنا ، ولم نزده نحن شيئاً . لقد أوجد الدنيا من عدم ،

---

(١) رواه أبوالقاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب .
(٢) رواه النسائى والبيهقى فى السنن الكبرى .

وفرق بين الصفة القائمة بذات الله ، وإيجاد متعلَّق الصفة . فالله خالق ؛ والله رحمن ،والله رحيم ، والله قهار ، وسبحانه رحمن ورحيم وقهار وخالق حتى قبل أن يبرز ويظهر ما يخلقه ؛ لأنه بصفة الخالق فيه خلق ، وهو رزَّاق قبل أن يخلق المرزوق ، فالصفة موجودة فيه قائمة به ، وبهذه الصفة رزق ، وبوجود هذه الصفات فيه يقول للشيء كن فيكون ، وله هذا الكون كله ، وهو غنى عن العباد وله كل الملك ، وكذلك خلق التوبة ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

« لَلَّهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة » (١) .

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فالخلق مستمر الإيجاد من العدميات وهو دليل على أن صفة الخالقية موجودة .

وما آدم فى منطق العقل واحد ... ولكنـه عنـد القيـاس أوادم

فالكون كله من أول آدم موجود ، وكل الكون المسخر لآدم كخليفة فى الأرض خاضع لله ، فإن شاء اذهب الخلق وأتى بخلق جديد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى لأنه لا إله إلا هو ، إذا وعد فلابد أن يتحقق وعده ، وإذا أوعد فلابد أن يأتى وعيده . والوعد إذا أطلق فهو فى الخير ، والوعيد يكون فى الشر . والذى يخلف الوعد أو الوعيد من الخلق فهذا أمر متوقع لأنه من الأغيار ، فيتغير رأيه

(١) رواه البخارى فى الدعوات ، ومسلم فى التوبة ، والترمذى فى الدعوات .
سقط على بعيره : أى صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به .

فلم يعد أهلاً لهذا الوعد ؛ لأنه ربما يكون قد وعد بشيء كان يظن أنه فى مكنته ،وبعد ذلك خرج عن مكنته ، فليس له سيطرة على الأشياء ، لكن إذا كان من وعد قادراً ، ولا يوجد إله آخر يناقضه فيما وعد أو أوعد به فلابد أن يتحقق الوعد أو يأتى الوعيد . . ولذلك حينما يحكم الله حكماً فالمؤمن يأخذ هذا الحكم قضية مسلمة ؛ لأنه لا إله مع الله سيغير الحكم ، وسبحانه ليس من الأغيار ، والمثال أنه قال :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾

(سورة المسد)

وهذا وعيد فى أمر لهم فيه اختيار ، ومع ذلك لم يسلموا . وجاء بعدها ما يؤكد لكل مسلم : إياك أن تأخذ هذه القضية مأخذ الشك ، وتقول : قد يتوب أبو لهب هذا وزوجه ويسلمان ، ألم تتب هند ؟! ألم يسلم أبو سفيان ؟! . لكنه سبحانه عالم بما يصير إليه اختيار أبى لهب واختيار زوجه ، وإن كان كل منهما مختاراً ، ولا يوجد إله سواه ليغير الأمر عما قال .

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾

(سورة الإخلاص)

أى لا يوجد إله آخر ليعدل هذا الأمر .

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝١٣٤ ﴾

(سورة الأنعام)

قد يظن بعض الناس أن الله قد يأتى بما وعد به لكنهم قد يهربون منه ، ولكن ليس الأمر كما يظنون ؛ فالوعد آت وأنتم لا تستطيعون الهرب منه ، ولا أحد بقادر على أن يمنع الله عن تحقيق ما وعد أو أوعد ، ولن تفروا من وعده أو وعيده ، ولن تغلبوا الله أو تفوتوه وتعجزوه ؛ فالله غالب على أمره .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

والقوم هم الجماعة ، وعادة يطلق على الرجال لأنهم أهل القيام للمهمات ؛ لأن الشأن والأصل فى المرأة الستر والبيتوتة والاستقرار فى البيت للقيام على أمره ورعايته . وحين تقرأ القرآن تجد كلمة « قوم » وتفهم أن المقصود منها الجماعة التى تجمعهم رابطة ، وأنها للرجال خاصة ، والمثال هو قول الحق :

﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

ومادام قد جاء بمقابل « قوم » : « ولا نساء » ، فـ « قوم » هذه للرجال ومأخوذ منها « القيام للمهمات » ، ومأخوذ منها « القوامة » . ولذلك الشاعر يقول :

ولا أدرى ولست أخال أدرى ... أقوم آل حصن أم نساء

يعنى أرجال أم نساء .

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٥ سورة الأنعام)

و « المكان » هو الحيز الذى يأخذه جسم الإنسان ؛ فكل كائن له مكان ، إن وقف له مكان ، إن قعد له مكان ، والمكان هو المملوك والمخصص لك من الأرض ، فحين تقف فى مكان لا يقدر آخر أن يقف فيه وأنت واقف ، بل يجب أن يزحزحك عنه ، وحين تزحزح من هو واقف ، فهو يروح إلى مكان ثانٍ ، ويمتنع التداخل بين اثنين فى حيز لا يسع إلا واحداً ، وهذا أمر فطرى ؛ فتجد الولد الصغير الذى لم يدرك أى شيء ويقدر أن يقف فقط ، ثم يريد أن يقعد على الكرسى الذى تجلس عليه

أخته أو أخوه ، فقبل أن يقعد على الكرسى يشد من يجلس عليه ؛ لأنه يعرف بالفطرة أن اثنين لا يوجدان فى حيز واحد .

وترى ذلك أيضاً فى غير الجرم المرئى ، فأنت حين تأتى بقارورة وتضعها فى ماء لتمتلىء تسمع صوت الهواء الخارج منها فى بقبقة ؛ لأن الماء لا يمكن أن يدخل إلا إن خرج الهواء ، ولأن المياه أكثف فهى تضغط ليخرج الهواء ، وهذا ما يؤكد عدم التداخل . أى لا يوجد شيئان اثنان فى حيز واحد . ومكانتك هى الموقع الذى تستولى عليه ، ولذلك حتى فى الجيوش وفى الحرب توضع الخطط من أسلحة مختلفة ، لتستولى على الأماكن .

« اعملوا على مكانتكم » هو قول موجه إلى الجماعة الذين عارضوا النبوة ووقفوا منها هذه المواقف ، فيقول لهم الحق تهديدا لهم وتيئيسا من أنهم لن يصلوا إلى النيل من رسول الله : اعملوا على قدر استطاعتكم من التمكن ، أو أثبتوا على ما أنتم عليه من الخلاف والمناهضة ، لماذا ؟ ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم عامل أيضاً : فلن يكون ثباتكم مانعاً لى من العمل ؛ أنتم تعملون وأنا أعمل ، أنتم تعملون على طاقاتكم ، وأنا أعمل على طاقاتى الإيمانية ومدد ربى الأعلى من الطاقة .

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

« فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار » و « له » تعطى دلالة إلى أن الإيمان ستكون عاقبة الدار لصالحه ؛ لأن الآخرين لن تكون لهم بل عليهم ، وساعة ترى « اللام » اعرف أن الأمر لهم لا عليهم . فكأن الظالمين إن تنلهم عاقبة فهى ليست لهم ، وإنما عاقبتهم عليهم ، ولن يفلح الظالمون .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ

نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

وهنا رجوع إلى الكلام عن الذين يناهضون منهج الله .

و « ذرأ » أى خلق ، وبث ، ونشر ، والحرث يراد به الزرع ، وسمى الزرع حرثاً ؛ لأنه يأتى بالحرث ، و « الأنعام » وهى تتمثل فى ثمانية أزواج فى آية تأتى بعد ذلك ، وهى الإبل ، والبقر ، والضأن والمعز .

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً » أى مما خلق ، وهم قد حرثوا فقط ؛ لأن الذى يزرع هو الله ، فسبحانه الذى أعطى للبذرة قوتها لتربى لها جذراً ، وتمتص عناصر الغذاء من الأرض ، وهو الذى جاء بعناصر الأرض كلها ، وهو الذى جعل البذرة تتوجه إلى العناصر الصالحة لها ، وتترك غير الصالح بقانون « الذى خلق فسوّى والذى قدّر فهدى » . والذى صنعه الله فى الحرث وفى الأنعام تتخيلون أنكم تتصرفون فيه على رغم أنه هو الذى ذرأ وخلق . إنه - سبحانه - هو المتصرف .

هم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا : هذا لله « بزعمهم » وهذا لشركائنا ، أى جاءوا بالحرث وقسموه قسمين . وقالوا : هذا لله ، وهذا للأصنام . وكذلك قسموا الأنعام وجعلوا منها قسماً لله ، وقسماً لهم ، ألم يكن من العدل أن يقسم الذى خلق بدلاً من هذا الزعم منكم لأنكم أخذتم غير حقكم ، ويا ليتكم أنصفتم فنرضى بقسمتكم فيذهب القسم الذى لله للصدقات على الفقراء ، والذى للشركاء يذهب للأصنام وللسدنة الحجّاب عليها والخادمين والذين يضربون لكم الأقداح ، يا ليتكم عرفتم العدل فى القسمة بل إن ما صنعتموه هو قسمة ضيزى جائرة وظالمة ، لماذا ؟ . تأتى الإجابة من الحق :

﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة الأنعام)

أنتم قسمتم وقلتم : هذا لله وهذا لشركائنا . فاصدقوا مع أنفسكم فى هذه النسبة ، لكنهم كانوا يسرقون حق الله ، وكان لهم فى الهلاك تقسيم معين ، وفى الزيادة لهم تقسيم آخر . فإذاما جاءت آفة للزرع وأهلكته أخذوا ما خصصوه لله وأعطوه للشركاء وقالوا : إن ربنا غنى ! وبرغم أنكم قسمتم ولكنكم لم توفوا بالقسمة التى فرضتموها ورضيتم بها .

وكذلك فى الأنعام يقدرون عدداً من الأنعام ويقولون : هذه لله ، وتلك للشركاء ، فإن ماتت بهيمة من المنذور لله لم يعوضوها ، وإن ماتت بهيمة منذورة للأصنام يعوضوها ويأخذوا بدلا منها من القسم الذى نذروه لله . وأيضاً لنفترض أن عيناً جارية ساحت فيها المياه لتروى الزرع المقسوم لله ، فيأخذوا منها للأرض المزروعة للأصنام . إذن هى قسمة ضيزى من البداية ، وليتهم وفّوا بهذه القسمة ، وهكذا ساء حكمهم وفسد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

وأيضاً نقلوا تلك القسمة الضيزى إلى ما يتعلق بذواتهم فى الإنجاب والإنسال ؛ فشركاؤهم زيّنوا لهم قتل أولادهم ، و« التزيين » هو إدخال عنصر التحسين على شىء لشدة انجذاب النفس إليه ، وهو عملية تجميل لحقيقة وجوهر ، وبذلك يكون

التزيين أمراً عرضيًّا طارئاً ، ووجه التزيين أنهم كانوا إما أغنياء ، وإما فقراء ، فإن كانوا فقراء يقل الواحد منهم لماذا أجلب لنفسى همًّا على همّ ، وإن كانوا أغنياء يقل الواحد منهم : إن الأبناء سيأخذون منك ويفقرونك . إذن ففيه أمران : إما فقر موجود بالفعل ، وإما فقر مخوَّف منه ، ولذلك تجد الآيات التى تعرضت لهذا المعنى ، تأتى على أسلوبين اثنين ؛ فالعَجُز مختلف باختلاف الصدر ، والذين يحبون أن يستدركوا على بعض أساليب القرآن لأنه مرة يقول :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الإسراء)

ومرة ثانية يقول :

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

فما الفرق بين العبارتين ؟ .

ونقول لمثل هذا القائل : أنت تقارن بين التذييل « نحن نرزقكم وإياهم » ، و « نحن نرزقهم وإياكم » . هذه تذييل لآية ، وهذه تذييل لآية ثانية . هات ذيل الآية مع صدرها تجد أن ذيل كل آية مناسب لصدرها . ومادام قد اختلف فى الصدر فلابد أن يختلف فى الختام ، ففى الآية الأولى يقول الحق سبحانه : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق » فالإملاق وهو الفقر واقع موجود . إذن فشغل الإنسان برزقه أولى من شغله برزق من يعوله من الأولاد ، فيقول الحق لهؤلاء :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

فالإملاق موجود ، وشغلهم برزق أنفسهم يملأ نفوسهم . لذلك يقول لهم : « نرزقكم وإياهم » فيطمئنهم سبحانه نحن نرزقكم ثم نرزقهم . أما إن كان الإملاق غير موجود فالحق يقول :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الإسراء)

أى لا تقتلوا أولادكم خوفاً من فقر ، فأنتم تملكون رزقكم ، وحين يأتى الأولاد نرزقهم ونرزقكم معهم . وهكذا نرى أن الصدر مختلف فى الآيتين ، وكذلك العجز ، والشركاء كانوا يزينون قتل الأولاد ، وهذه مسألة تحتاج إلى تزيين قاس ؛ لأن حب الأبناء غريزة فى النفس البشرية ، والنفس تحب أن يكون لها ذرية ؛ لأن الإنسان يفهم أنه مهما طال عمره فسوف يموت فيحب أن يظل اسمه فى الأجيال المتتابعة . ونجد الإنسان وهو ممتلىء بالسعادة حين يأتيه حفيد ، ويقول : لقد ضمنت ذِكْرى لجيلين قادمين ، وينسى أن الذكر الحقيقى هو الذى يقدمه الإنسان من عمل ، لا ذكرى الأبناء وحب امتداد الذات . وقتل الأبناء يحتاج إلى تزيين شديد ، كأن يقال : إن أنجبت أبناء فسيفقرونك ويذلونك ، فأنتم أمة غارات وأمة حروب وكل يوم يدخلك أبناؤك فى قتال ونزال فتكون بين فقد لأبنائك أو انتهاب لمالك ، وإن كانوا بنات فسيتم سبيهن من بعدك ، وهكذا تكون المبالغة فى الإغراء لعملية تناقض الفطرة السليمة فى امتداد النسل .

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأنعام)

و « لكثير من المشركين » تفيد أن بعضهم كان يرفض قتل الأولاد ، و « يردوهم » من الردى ، وهو الهلاك ، والموت .

﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأنعام)

أى يخلطوا عليهم الدين ، فهل كان عندهم دين ؟ . لقد ورث هؤلاء من أمر قيم الدين ما كان سابقاً وهو ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام حتى مالوا وزالوا عنه إلى الشرك ، إنهم زينوا لهم أعمالاً ليوردوهم موارد الهلكة . وحاولوا أن يخلطوا عليهم ما بقى لهم من دين .

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأنعام)

لأن وأد الأولاد وقتلهم إنما ينافى فكرة خلق الله ، فهل يخلق الله لتقتل أنت ؟!

كأنهم يصادمون إرادة الإيجاد من الحق سبحانه وتعالى ، لكنّه - سبحانه - لو شاء ما فعلوا ذلك ، فهو قد أعطاهم الاختيار ، ومن باب الاختيار ينفذون إلى كل مراد لهم ، ولو لم يخلق الله فيهم اختياراً ما فعلوا ذلك ؛ لأنه لو أراد ألا يضلوا لما فعلوا ، وقد أراد الله أن يوجد خلقاً لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم الملائكة .

إذن فهذه المسألة ليست عزيزة على الله ، وسبحانه ساعة يقهر على مراد له ، إنما يكون ذلك لمصلحة المخلوق ، وساعة يتركه مختاراً فمن إمداد الخالق له بالاختيار ولا يفعل المختار شيئاً غصباً عن الله ؛ لأن الألوهية تقتضى أمرين اثنين : تقتضى قدرة تتجلى فى الأشياء القهرية التى لا يستطيع العباد أن يقفوا أمامها ، والإنسان هو الكائن الوحيد الذى له حق الاختيار بين البديلات فى مراداته ، أما بقية الكون فسائر بقانون التسخير وليس له اختيار .

والكائنات المسخرة أثبتت لله طلاقة القدرة ، ولكنها لا تثبت لله محبوبية المخلوق ؛ لأن المحبوبية تنشأ من أنك تكون حرًّا فى أن تفعل ، ولكنك تؤثر فعلاً مراد الله على مرادك . (ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون) .

و « الافتراء » هو الاختلاق والكذب المتعمد ، وهم مفترون ، لأنهم أرادوا أن يغيروا صدق الواقع فى الإنجاب ، فقد خلق الله الزوجين - الذكر والأنثى - من أجل الإنجاب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

وهذا تمادٍ فى الشرك ؛ لأنهم قسموا الحيوانات والحرث وحجزوا قسماً للأصنام ، وهذه الأنعام المرصودة للأصنام لا يتصرف فيها أحد ، فلا يؤخذ لبنها ولا يستخدمها أحد كمطايا ، ولا يتعدى نفعها للناس . ولم يتنبهوا إلى أن هذه الأنعام نعمة من الله ، ولابد من الانتفاع بها ، وليس من حسن التعقل أن تترك حيواناً تستطيع أن تستفيد من تسخيره لك ولا تفعل ، هم قد فعلوا ذلك وحكى الحق عنهم فقال :

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة الأنعام)

أى هى أنعام محرم استخدامها ، وحرموا أيضاً ركوبها .

﴿ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة الأنعام)

وتمادوا فى الكفر فذكروا أسماء الأصنام عليها :

﴿ وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة الأنعام)

وهذا لون من الافتراءات قد فعلوه ونسبوه إلى أنه متلقًّى من الله ، ومأمور به منه ـ سبحانه ـ ولو قالوا: إن هذا الأمر من عندهم لكان وقع الافتراء أقل حدة ، لكنه افتراء شديد لأنهم جاءوا بهذه الأشياء ونسبوها إلى الله ، وهم قد انحلوا عن الدينِ وقالوا على بعضٍ من سلوكهم إنه من الدين ، ولذلك يجازيهم الله بما افتروا مصداقاً لقوله :

﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة الأنعام)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ

﴿لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾

ويقودهم الباطل إلى باطل آخر فادعوا أن ما فى بطون هذه الأنعام من اللبن ومن الأجنة إذا نزلت حيّة فهى للذكور منهم فقط ، ولا تأكل النساء من ذلك شيئاً ، وإن مات منها شىء أكله الرجال والنساء وهذا يدل على التشقيق فى القسمة .

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم :

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

(من الآية ١٣٩ سورة الأنعام)

أى سيجازيهم على كذبهم وافترائهم بما يليق عقاباً للكاذبين ؛ لأنه ـ سبحانه ـ (حكيم) فى أفعاله وأقواله وشرعه وقدره (عليم) بما يفعلونه من خير وشر ، إنه سيجازيهم على ما فعلوه أتم الجزاء وأكمله .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

وجْه الخسران أنهم لم يلتفتوا إلى أن الله يرزقهم ويرزق أبناءهم أيضاً ، ولعلك أيها الأب قتلت ولداً ، كنت ستعيش أنت فى رحاب رزقه ، وكثيراً ما يكون البعض من الأولاد صاحب رزق وفير ، ويقال عن مثل هذا الابن : إن وجهه وجه الخير والسعد

والبركة ، فمن يوم أن وُلد ولد معه الخير ، وذلك حتى لا يتأبى الإنسان على عطاء الله ؛ لأنك حين تتأبى على عطاء الله تحرم نفسك العطاء فيما تظنه غير عطاء ، وهذا خسران كبير .

إننا نلحظ أن العرب كانوا فى بيئة تستجيب وتلبى الصريخ ، فساعة يصرخ من فى شدّة نزلت به واستنجد ، يجد من ينقذه ، والأولى بالنجدة أهل الرجل وأولاده . والمثال على ذلك ما حدث من جد رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما ذهب ليحفر البئر ، وجاءت قريش ووقفت له حتى لا يحفر ، فقال : لو أن لى عشرة أبناء سأضحى بواحد منهم . إذن فكثرة الأولاد فى هذه المسائل تعطى العزوة وتكثر الصريخ ، ولا يفعل ذلك إلا المفطور على النجدة .

وإن قتلت ابناً خوفاً من الفقر فقد تخسر رزقاً قد يكون فى طى من تقتل من الذرية ، وفوق ذلك تفقد مباهج الشأن أو العزوة أو الآل . أو على الأقل أنهم قد خسروا لأنهم عاكسوا مرادات الله فى الإيجاد بالإنجاب .

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ١٤٠ سورة الأنعام)

و « سفهاً » تعنى طيشاً ، وحمقاً ، وجهلاً .

﴿ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾

(من الآية ١٤٠ سورة الأنعام)

وهم حين يحرمون على أنفسهم ما رزقهم الله من الأنعام ، فهم أهل حمق وضلال وخسران فلو تركوها لانتفعوا منها فى حمل أثقالهم أو فيما تدره من لبن ، أو فى أكل لحمها . إنهم بحمقهم وجهلهم قد خسروا كثيرا ، وهم مع ذلك فعلوا ما فعلوا بكذب متعمد على الله ، وهم قد ضلوا ولم يكونوا أهلاً للهداية ، وكان يكفى أن يصفهم بقوله : « قد ضلوا » ؛ لكنه أضاف : « وما كانوا مهتدين » لأن الضلال هوعدم الذهاب إلى المقصد الموصل للغاية ، وقد يكون ذلك عن جهل بالطريق ، لكن الحق سبحانه رسم لهم طريق الحق فآثروا الذهاب إلى الضلال مع وجود طريق الحق .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

وقول الحق : « أنشأ » أى أوجد على إبداع لم يسبق له مثيل فلم يكن هناك نماذج توضيحية تدل الله سبحانه ، وإنما ابتدأها على غير مثال سابق ؛ لأنه لا يوجد خالق سواه . والخالق إذا لم يكن هناك سواه من شريك أو ندٍ فإنه حين يخلق إنما ينشىء خلقاً على غير نظام أو مثالٍ كان قد سبقه .

وكلمة « جنات » تؤدى ما نعرفه من المكان المحدد الذى يجمع صنوف الزروع والثمار مما نقتات ، ومما نتفكه به ، وتسمى جَنَّة وتسمى جَنَّات ؛ لأن المادة كلها تدل على الستر وعلى التغطية ، ومنه الجُنون لأن فيه ستراً للعقل ، ومنها الجنّ لأنهم مستورون عن رؤية العين ، وكذلك « المِجَنّ » لأنه الذى يستر عن الإنسان طعنات الخصم .

والجَنَّة هى المكان الممتلىء بالزرع والثمار وتعلو الأشجار فيه وتكثف وتلتف أغصانها وفروعها بحيث تستر من يكون بداخلها وتستره أيضاً عن بقية الأمكنة ، لأنه لا حاجة له إلى الأمكنة الأخرى ؛ ففى الجنة كل مقومات الحياة من غذاء وفاكهة ومرعى ، وماء وخضرة ومتعة ، وفيها كل شىء . كما تسمى البيت العظيم المكتمل الذى يضم ويشتمل على كل المرافق « قصراً » لأنَّه قَصَرَك عن أى مكان سواه ؛ لأن فيه الأشياء التى تحتاج إليها كلها ، فلا تحتاج إلى شىء بعده .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

ومادة العرش تدل على العلو ، ومنه قيل للسقف « عرش » ، ويطلق العرش أيضاً على السرير ؛ مثل قوله الحق : (ورفع أبويه على العرش) .

ويطلق العرش على الملك مثل قوله الحق : (ولها عرش عظيم) .

كلِ ذلك يدل على « العلو » وقوله الحق هنا : « معْروشات وغير معروشات » ، أى أنّ الزرع من نوع العنب ، حين نعنى به نجعل له القوائم والقواعد التى يقوم عليها ؛ لأن امتداد أغصانه اللينة لا تنهض أن تقوم وحدها ، ولكنْ هناك نوع أيضاً يقوم وحده نسميه العنب الأرضى ، وكأن الكلام فيها يختص بالكَرْم . أى : أنك إذا ما نظرت إلى الزرع الذى لا ساق له كالبطيخ ، وكالشمّام ، وكالكوسة ، وكل الزروع التى ليس لها ساق تجدها مفروشة فى الأرض أى غير قائمة على قواعد وقوائم وعروش . وإن كنا الآن نحاول أن نرفعها لنعطى لها قوة فى الإنتاج . والكلام جاء على ما كان موجوداً عند العرب أيام بعثة النبى صلى الله عليه وسلم (وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع) . والزرع يطلق ويراد به ما نقتات به من الحبوب .

﴿ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

وحين ننظر إلى هذه الآية نجد أنه قد سبقتها آية فيها كل هذه المعانى يقول سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وبعض الناس يحاولون نقد القرآن فيقولون : إنه يكرر المعانى الواحدة ؛ لأنهم لا يمتلكون فطنة أن المتكلم هو الله ، وسبحانه يتكلم فى كل شىء لأمر حكيم ، فهو هنا يتكلم عن هذه الأشياء كدليل على الخالق ووحدانيته بدليل أنه ذيل الآية بقوله : (إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) ، ولكن الكلام فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قد جاء بقصد الحديث عن الانتفاع بها فيقول :

﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

ولاشك أن استقامة العقيدة بالإيمان بالإله الواحد تحتاج إلى الدليل أولاً ؛ لأن فائدتها أشمل ، وأعم ، وأعمق ، وأخلد من الأكل ، لأن الأكل قصارى ما فيه أنه يقوتنا هذه الحياة ، ولكن الأدلة الأولى تعطينا الثواب الباقى والنعيم المقيم ؛ لذلك فالآية الأولى متعلقة بالدليل ، وهذه الآية متعلقة بالانتفاع ، وهنا نلاحظ أنه قال : « كلوا من ثمره إذا أثمر » ، وفى هذا إباحة لتناول الأشياء منه قبل أن تنضج دون أن يترتب على ذلك لون من الضرر وإلا عالجناها بما يزيل وينفى عنا الضرر ، فإذا ما وجدت ثماراً لم تنضج لك أن تأكل منها ، ولم يجعل الحق لنا حرجاً فيما نحرث ونبذر ونروى ولكن الله سبحانه هو الذى يزرع ونحن نأكل منه ، ونجد أهل الريف يشوون الذرة قبل أن تنضج ويقول سبحانه : (وآتوا حقه يوم حصاده) .

لقد قالوا إن الآية مختصة بما يُحصَد وهى الزروع ، أما الأشياء التى لا يقال فيها : حصد فهى خارجة عن ذلك مثل الفواكه ، لكن الإمام أبا حنيفة يرفض ذلك ويرى : أن كل ما تنبته الأرض ينطبق عليه هذا النص ؛ لأنه لا يصح أن تأخذ معنى الحصاد على العرف ، ولكن بفهم اللغة .

ما معنى الحصاد فى اللغة ؟ . الحصاد فى اللغة القطع ، فحينما تفصل الثمرة المطلوبة فهذا هو الحصاد . ولكن يوم الحصاد للحبوب ؛ تكون الغلال فى السنابل ، ويرى الإمام أبو حنيفة أن تعطى من البداية لمن حضر القسمة ، وكذلك حينما تدرسه وتذريه تعطى ، وعندما تغربل الحبوب أعط أيضاً ، ويبتدىء الحصاد من ساعة أن تُكيل ، وما تقدم غير محسوب ، ما تأتيه من الحق يوم حصاده هو غير المفروض ؛ لأنه لم يقل الحق المعلوم ، وفى هذا اتساع لدائرة امتداد الخير إلى غير الزارعين .

﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنعام)

والإسراف هو مجاوزة الحد ، والبعض قد فسّر الإسراف بالزيادة فقط ، ولكن الحقيقة أن أى تجاوز للحد زيادة أو نقصاً يسمى إسرافاً ؛ لأنه مأخوذ من « سرف الماء » ، وهو أن يُطلق الماء ويذهب فى غير نفع ، وسيدنا مجاهد يقول : لو أن للإنسان مثل جبل أبى قبيس ذهباً ثم أنفقه فى حل ما عُدَّ سرفاً ، ولو صرف درهماً واحداً فى معصية يعد سرفاً .

إذن فمعنى : « ولا تسرفوا » أمران اثنان بمعنى لا تتجاوزوا الحدود التى شرعها الحق فتستعملوا هذا فى معصية ، أو لا تسرفوا فى أن تعطوا للفقير أقل مما يستحق .

وكان حاتم الطائى كريماً جداً ، وقعدوا يلومونه على هذا الكرم ، فقال واحد له : لا خير فى السرف . رد عليه فقال له : ولا سرف فى الخير . أى أنه مادام فى الخير فلا يكون سرفاً .

وإذا كنا سنأخذ الأمر على المعنيين الاثنين : النقص والزيادة ، فما المانع أن نعطى للفقير أكثر ؟ . ويحكى الأثر أن أناساً قد تأخذهم الأريحية والنشاط للبذل والعطاء ساعة يرون كثرة غلتهم ، وما أفاء الله عليهم من ريع أرضهم . إنهم يعطون الكثير مثلما عمل ثابت بن قيس ، وكان عنده خمسون نخلة وجزها وأعطاها كلها للفقراء ، ولم يترك لأولاده شيئاً . فلما رُفع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أعط ولا تسرف ، لماذا ؟ مخافة أن تحتاج بعد ذلك إلى ما أعطيت فتندم على أنك أعطيت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾

وبعد أن تكلم سبحانه عن نعمه علينا فى الزراعة ونعمه علينا فى الماشية قال : « ومن الأنعام » وهى الإبل والبقر والغنم ، « حمولة » والحمولة هى التى تحمل ، فيقال : « فلان حَمول » أى يتحمل كثيراً . والحق يقول :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ﴾

(من الآية ٧ سورة النحل)

والذى تحمله فوق ظهرها يسمى « حُمُولة » . ولذلك نقول عن السيارة التى تنقل « حُمُولة كذا طن » . (ومن الأنعام حمولة وفرشاً) .

والإبل نحمل عليها الرحال ، وكل متطلباتنا ، و« فرشا » معناها : مقابل الحمولة . فالحمولة هى المشتدة التى تقوى على أن تحمل . وكل ما لا يستطيع الحمل لصغره ، أو لأنه لم يعد لذلك ، إذا ما نظرت إليه نظرة سطحية تجده وكأنه فارش للأرض . أو « ومن الأنعام حمولة » ؛ وهى التى تحمل لكم متاعكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . « وفرشا » أى ومن الأنعام ما تتخذون منه فرشا بأن ننسج من وبره وصوفه وشعره ما نفرشه .

﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وفى الحديث عن الأنعام ،جاء بالحمولة والفرش ويأتى أيضاً بسيرة الأكل ؛ لأننا نأكل لحمها وألبانها ومشتقات الألبان كلها ، وهكذا تتعدد المنافع ، فهى تحملنا ونأخذ من أصوافها وأوبارها وشعورها الفرش ، والوبر وهو شعر الجمال ، والصوف وهو شعر الغنم ، وشعر الماعز يتميز بلمعة وانفصالية بين شعيراته .

ونلحظ أنه سبحانه قال فى الآية الأولى : « كلوا » ، وفى الثانية : « كلوا » ؛ لأن ذلك جاء بعد الكلام عما حرموه على أنفسهم من أرزاق الله فى الأرض . فكان ولابد أن يؤكد هذا المعنى ، ويوضح : إن الذى خلق هو الله ، والذى كلّف هو الله ، فلا تأخذوا تحليلاً لشىء ولا تحريماً لشىء إلا ممن خلق وممن كلّف .
(كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) .

الشيطان هو الذى يوسوس لهم بالمخالفة لمنهج الله ، وعداوة الشيطان ظاهرة . فإذا ما كانت العداوة سابقة ، فقد أنزل آدم وحواء من رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية وجرأهما على المخالفة فخرجا من الجنة ، كان من الواجب أن نحتاط فى قبول هذه الوسوسة .

ثم يفصل الحق لنا الأنعام التى نتخذها حمولة ، أو نأخذ منها فرشاً فقال :

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

وكلمة « أزواج » ، جمع زوج ، و « الزوج » يطلق على الشىء معه ما يقارنه مثل « زوج النعل » ، ونحن فى أعرافنا نأخذها على الاثنين ، لكنها فى الأصل تطلق على الواحد ومعه ما يقارنه ، إلا أنه إذا لم يكن هناك فارق بين الاثنين بحيث لا يتم الانتفاع بأحدهما إلا مع الآخر ولكن لا تميز لأحدهما على الآخر كالجورب مثلا ، ففى مثل هذا نستسمح اللغة فى أن نسمى الاثنين زوجا ، لكن إذا كان هناك خلاف بين الاثنين لا نقول على الاثنين : زوج .

والذكر والأنثى من البشر ، صحيح أنهما يقترنان فى أن كل واحد منهما إنسان ، لكن للذكر مهمة وللأنثى مهمة مختلفة . أما الجوارب فكل « فردة » منها نضعها فى أى قدم لأنه لا فارق بينهما ، إذن كلمة « زوج » تطلق ويراد بها الشىء الواحد الذى معه ما يقارنه . والحق يقول :

﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

وكلمة « زوج » هنا أطلقت على حوّاء ؛ فآدم زوج وحواء زوج ، والحق هوالقائل :

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة النجم)

ولم يقل عن الاثنين : إنهما « زوج » وإلا لقال : خلق الزوج الذكر والأنثى . إذن فكلمة « زوج » تطلق على واحد معه ما يقارنه ، مثلها مثل كلمة « توأم » وهى لا تقال للاثنين ، بل تقال لواحد معه آخر . لكن الاثنين يقال لهما : توأمان .

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأنعام)

و « من الضأن اثنين » أى ذكرها وأنثاها فنسمى الذكر كبشا والأنثى « نعجة » . ومن المعز اثنين ، والذكر نسميه « تيساً » ، والأنثى نسميها « عنزة » ، وبذلك يكون معنا أربعة ، ومن هنا نفهم أن الزوج مدلوله فرد ومعه ما يقارنه .

﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأنعام)

وما دمتم أنتم تحرمون وتحللون ، وتقولون : إن هذا من عند الله فقولوا لنا أحرّم الذكرين أم حرّم الأنثيين ؟ ولا يجدون جواباً ؛ لأنه سبحانه لا حرّم هذا ولا حرّم ذاك ، ولذلك أبرزت المسألة إبراز الاستفهام ، والشىء إذا أبرز إبراز الاستفهام فمعناه أنه أمر مقرر بحيث إذا سألت الخصم لا يقول إلا ما تتوقعه ، واسمه السؤال أو الاستفهام التقريرى . ويقول الحق : « نبئونى بعلم إن كنتم صادقين » أى أخبرونى بعلم ذلك فى التحريم إن كنتم أهل صدق ؛ لأنكم لستم أهلاً للتحريم ، إنما يحرّم ويحلل من خلق وشرع . فإن كان عندكم علم قولوا لنا هذا العلم .

ثم يأتى الحق بخبر الأربعة الباقية من الأنعام فيقول :

﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

ومن البقر اثنين : ذكر وأنثى أيضاً ، والذكر من البقر نسميه ثوراً ، ويخطئ بعض الناس فى تسمية الأنثى من البقر « بقرة » ، إن البقرة اسم لكل واحد منهما : للذكر والأنثى ، والتاء فى بقرة للوحدة ، واسم الأنثى « ثورة ». ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الانثيين﴾ أنتم تقولون : إنكم لم تتبعوا رسولاً ، وكنتم على فترةٍ من الرسل ، ولم يأت لكم رسول ، إذن فلا تحريم إلا من الله ، ولا يبلغكم تحريم الله إلا عن طريق رسول . بل أكنتم شهداء مسألة التحريم ، أى أشاهدتم ربكم ورأيتموه حين أمركم بهذا التحريم ، أم أنتم الأنبياء ؟ . إنكم تتعمدون الكذب على الله لإضلال الناس . إذن ، فالحق لا يهدى من يظلم نفسه ويظلم الناس .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا

﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

والحق سبحانه وتعالى قد تكلم عن التحريم فى آيات كثيرة ؛ فهناك الآية التى قال فيها :

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحصر فى أربعة فقط ، فيقول سبحانه :

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة الأنعام)

فكيف يتفق هذا النص مع النص الآخر ؟!

من يقول ذلك نقول له : أنت لا تفرق بين إيجاز وإطناب ، ولا تفرق بين إجمال وتفصيل ؛ فالذى تُرِك فى هذه الآية داخل فى الميتة ؛ لأن المُنخنقة والمُتردّية والنطيحة وما أكل السبع ، والذى ذُبح على النُّصب وما أُهلّ به لغير الله موجود وداخل فى كلمة « الميتة » .

ثم : من قال : إن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع ؟ التشريع أيضاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بتفويض من الله فى قوله تعالى :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فلا تقل إن المحرمات فقط محصورة في هذه الآية لأن فيه محرمات كثيرة ، بدليل أن الله مرّة يُجْملها ، فيحّرم علينا الخبائث ؛ فكل خبيث مُحرّم . وقلنا من قبل : إن الدم المسفوح مُحرّم ، والدم المسفوح هو السائل الذى ينهال ويجرى وينصب ساعة الذبح ، وهل هناك دم غير مسفوح ؟ نعم ، وهو الدم الذى بلغ من قوة تماسكه أن كوّن عضواً في الجسم كالكبد أو الطِّحال . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أحلّت لنا ميتتان ودمان : فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال »[1] وفى رواية أخرى : السمك والجراد .

وعلى منطق التحريم للميتة والدم كان لابد ألا نأكل الميتة من السمك . ولا الكبد والطحال ، ولكن الله أحل لنا السمك والجراد والكبد والطحال لأنها لا تضر الجسم ، فالسمك والجراد ليس لهما نفسٌ سائلة أى دم يجرى ؛ فإذا ما ذبحنا أحدهما لا يسيل له دم ، أمّا الكبد والطحال فهما من دم وصل من الصلاحية أنه يكوّن عضواً في الجسم ، ولا يتكوّن عضو في الجسم يؤدى مهمة من دم فاسد ، بل لابد أن يكون من دمٍ نقى .

والحق الذى شرّع يقدر الظروف المواتية للمكلّفين ، وقد تمر بهم ظروف وحالات لا يجدون فيها إلا الميتة ، وهنا يأكلون أكل ضرورة على قدر دفع الضر والجوع . لكن على المسلم ألا يملأ بطنه من تلك الأشياء .

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة الأنعام)

وأنواع الاضطرار : ألّا تجد ما يؤكل من الحلال ، أو أن يكون ما يؤكل من الحلال موجوداً إلا أن هناك من يكرهك على أن تأكل هذا المحرم ، فالإكراه داخل فى الاضطرار ، والاضطرار يحملك ويدفعك إلى أن تمنع عن نفسك الهلاك ؛

(١) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقى عن ابن عمر .

فتأخذ من الطعام حتى تقتات فلا تموت من الجوع ، فإذا كان الله قد أباح لك أن تأكل من الميتة فى حال مظنة أن تموت من الجوع فما بالك من الإكراه بالموت العاجل ؛ إنه أولى بذلك ؛ لأنه سبحانه هو الذى رخص ، وهو الذى شرع الرخصة ، ومعنى ذلك أنها دخلت التكليف ؛ لأن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ، ومادمت قد دخلت فى دائرة التكليف فهنا يكون الغفران والرحمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

هنا يأتى الحق بالتحريم الثانى ، وهو التحريم للتهذيب والتأديب ، مثلما قال من قبل :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فـ « الظُفُر » هو ما يظهر عندما ننظر إلى أقدام بعض الحيوانات أو الطيور ، فهناك حيوانات نجد تشقق إصبعها ظاهراً والأصابع مفصولة ومنفرجة بعضها عن بعض ، فهذه ليست حراما عليهم ، ونوع آخر نجد أصابعها غير مفصولة وغير منفرجة مثل الإبل ، والنعام ، والبط ، والأوز وهى ذو الظُفُر . فكل ذى ظُفُر حُرِّم على اليهود ، وقد حرم عليهم لا لخبث وضرر فى المأكول ، ولكن تأديبا لهم لأنهم ظلموا فى أخذ غير حقوقهم ؛ لذلك يحرمهم الله من بعض ما كان حلالا لهم ؛ فالأب يعاقب ابنه الذى أخذ حاجة أخيه اعتداء ؛ فيمنع عنه المصروف ،

والمصروف فى ذاته ليس حراماً ، ولكن المنع هنا للتأديب . والحق هو القائل :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾

(الآية ١٦٠ ومن الآية ١٦١ سورة النساء)

ولأنهم فعلوا كل ذلك يأتى لهم التحريم عقاباً وتأديباً

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

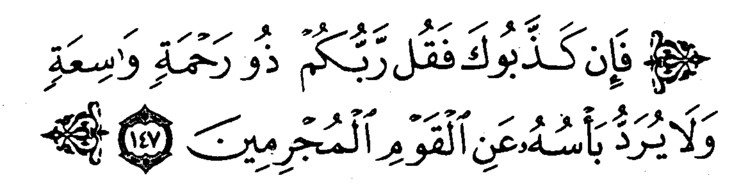
وأنت حينما تذبح الذبيحة تجد بعضاً من الدهن على الكلى ، ونجد فى داخلها ما يسمونه « منديل الدهن » وكذلك « ألية الخروف » ، وحين تقطع الرأس تجد فيها نوعاً من الدهون ، وقد حرّم الحق عليهم فى البقر والغنم شحومهما . وكذلك « كل ذى ظُفُر » مُحرّم كله . وهناك استثناء فى البقر والغنم هو : ﴿ إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا ﴾ .

أى أحل لهم ما هو فوق الظهر من الشحم ، وأحل لهم ما حملته الحوايا من الشحوم و « الحوايا » جمع حوية أو حاوية أو حاوياء وهى ما تحوّى من الأمعاء أى تجمع واستدار ، وفى الريف تقول المرأة عن قطعة القماش التى تبرمها وتلفها وتصنع منها دائرة مستديرة تضعها على رأسها لتحميه عندما تحمل فوقه الأشياء ؛ تقول : صنعت « حواية » والحواية هنا هى الأمعاء الغليظة ، وطولها كذا متر ، ومن حكمة تكوينها الربانية نجدها تلتف على بعضها ، ولذلك اسمها « الحوايا » ، وهى ما نسميه « الممبار » . وكذلك حلل لهم ما اختلط بعظم فى القوائم والجنب والرأس والعين ، وكذلك أحل لهم شحما اختلط بعظم منه الألية ، لأن الألية تمسك بِعَجْب الذنب . أى أصله ، وهو الجُزْىء فى أصل الذَّنب عند رأس العُصْعُص . ولأنه رحيم فهو ينزل عقوبة فيها الرحمة فيبيح له شيئا ويحرم شيئا آخر .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ .

وليس هذا التحريم تعديًا عليهم ، أو تعنتاً فى معاملتهم ، بل لأنهم بَغَوْا ، والباغى يجب أن يأخذ حظه من الجزاء ؛ حتى يفكر ماذا يحقق له البغى من النفع ، وماذا يمنع عنه من النفع أيضاً ، وحين يقارن بين الاثنين قد يعدل عن بغيه ، وهم قد صدّوا عن سبيل الله ، وأخذوا ربا لينمّوا أموالهم وأكلوا أموال الناس بالباطل ، لذلك حرّم عليهم الحق بعض الحلال . وسبحانه صادق فى كل بلاغ عنه ، ونعرف بذلك أن علة التحريم لبعض الحلال كانت بسبب ظلمهم وما بدر منهم من المعاصى فكان التحريم عقوبة لهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :



وكان مقتضى أنهم يكذبونك فيما أخبرت به عن الله ، أن يعجل الله لهم بالعذاب ؛ لكن الحق لم يعجل لهم بالعذاب لأنه ذو رحمة واسعة .

﴿ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ﴾

(من الآية ١٤٧ سورة الأنعام)

ولكن إياكم أن تطمعوا فى الرحمة الدائمة ؛ إنها رحمة تأجيل فقط . ولن يفوتكم عذابه ، وهنا يحننهم أيضاً فيقول سبحانه : « ربكم ذو رحمة واسعة » وكأنه يقول لهم : راجعوا أنفسكم واستحوا من الله ولا يغرنّكم أنه ربّ ، خلق من عَدَم وأمدّ من عُدْم ، وتولّى التربية ، لكنه لن يرد ويمنع بأسه وعذابه عن القوم المجرمين منكم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (١٤٨)

وكلما تقرأ آية فيها « سيقول » فاعلم أنها تنطوى على سرّ إعجازى للقرآن ، والذى يعطى هذا السرّ هو الخصم حتى تعرف كيف يؤدى عدوّ الله الدليل على صدق الله ، مما يدل على أنه فى غفلة . ومن قبل قال الحق سبحانه :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

و « سيقول » معناها أنهم لم يقولوا الآن ، ويخبر القرآن أنهم سيقولون ، ولم يخبئ ويستر القرآن هذه الآية ، بل قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآناً يُقرأ ويُصلى به . ولو أن عندهم شيئاً من الفكر لكانوا يسترون القول حتى يُظهروا المتكلم بالقرآن بمظهر أنه لا يقول الكلام الصحيح ، أو على الأقل يقولون إنه يقول : « سيقول السفهاء » ، ونحن لسنا بسفهاء فلا نقول هذا القول . لكنهم يقولون القول السفيه برغم أن الآية قد سبقتهم بالتنبؤ بما سوف يقولون ؛ لأن الذى أخبر هو الله ، ولا يمكن أن يجئ احتياط من خلق الله ليستدرك به على صدق الله . هم سمعوا الكلمة ، ومع ذلك لم يسكتوا بل سبقتهم ألسنتهم إليها ليؤيدوا القرآن .

وكل مسرف على نفسه فى عدم اتباع منهج الله يقول : إن ربنا هو الذى يهدى وهو الذى يضلّ ، ويقول ذلك بتبجح ووقاحة لتبرير ما يفعل من سفه . وسيظل المسرفون على أنفسهم وكذلك المشركون يقولون ذلك وسيحاولون تحليل ما حرّم الله . وقد جاء المشركون بقضيتين : قضية فى العقيدة ، وقضية فى التكليف ؛ قالوا

فى قضية العقيدة : « لو شاء الله ما أشركنا » ، وكأنهم أشركوا بمشيئة الله . وجاءوا إلى ما حرموا من حلال الله وقالوا إنهم قد فعلوا ذلك بمشيئة الله أيضاً ؛ ليوجدوا لأنفسهم مبرراً ، وهذا القول ليس قضية عقلية ؛ لأنها لو كانت وقفة عقلية لكانت فى الملحظين : الخير والشر ، فالواحد منهم يقول : كتب ربنا علينا ـ والعياذ بالله ـ الشر ، لماذا يعذبنى إذن ؟! ولا يقول هذا الإنسان « وكتب الله لى الخير » . هذاما كان يفرضه ويقتضيه المنطق لكنهم تحدثوا عن الشر وسكتوا عمَّا يعطى لهم من خير .

وقولهم « لو شاء الله ما أشركنا » صحيح المعنى ؛ لأنه سبحانه لو شاء أن يجعل الناس كلهم مهديين لفعل ، لكنه شاء أن يوجد لنا اختياراً ، وفى إطار هذا الاختيار لا يخرج أمر عن مشيئته الكونية . بل يخرج الكفر والشر عن مراده الشرعى . وعلمنا من قبل أن هناك فرقاً بين الكونية والشرعية ؛ فكفر الكافر ليس غصباً عن الله أو قهراً عنه سبحانه ، إنما حصل وَحدث بما أعطاه الله لكل إنسان من اختيار ، فالإنسان صالح للاختيار بين البديلات :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

فالإنسان قادر على توجيه الطاقة الموهوبة له من الله الصالحة للخير أو للشر . إذن فاختيار الإنسان إما أن يدخله إلى الإيمان وإما أن يتجه به إلى الكفر ، لذلك يقول الحق عن الذين يدّعون أن كفرهم كان بمشيئة الله :

﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة الأنعام)

والسابقون لهم قالوا ذلك وفعلوا مثل ما يفعل هؤلاء من التكذيب ؛ وجاءهم بأس وعذاب من الله شديد ، ولذلك يأمر الحق محمدًا صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة الأنعام)

ويسألهم محمدٌ صلى الله عليه وسلم عن علم يؤكدون به صحة ما يدعونه . . ويزعمونه أى هل عندكم بلاغ من الله ، والحق أنهم لا علم لديهم ولا دليل ، إنهم يتبعون الظن ، ويخرصون ، أى أن كلامهم غير واضح الدلالة على المراد منه ، إنه تخمين وظن وكذب .

لذلك يقول سبحانه :

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

نعم فلو شاء سبحانه لقسرهم على الهداية وما استطاع واحد منهم أن يخرج عن الهداية ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل أراد أن يكون الإقبال على الإيمان به ، واتباع التكاليف أمراً داخلاً فى اختيارهم . ألم يخلق سبحانه خلقاً لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ؟ ألم يخلق الكون كله مؤتمراً بأمره ؟!

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ ﴾

(من الآية ١٤٩ سورة الأنعام)

و « الحجة » هى الدليل الذى تقيمه لتأييد قولك فى الجدل ، ولذلك نسمى عقودنا حجة على الملكية . أو « الحجة البالغة » أى التى لاينفذ منها شىء أبداً يعطل المراد منها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا

تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

ومادمتم لا تملكون العلم فمن المحتمل أنكم تملكون شهوداً على ما تقولون . والخطاب : « هلم شهداءكم » هو خطاب للجماعة ، و« هلم » يستوى فيها المفرد والمفردة والمثنى مذكراً كان أو مؤنثاً . والجمع مذكراً أو مؤنثاً ، فتقول : هلم يا زيد إلىّ ، وهلم يا هند إلىّ ، وهلم أيضاً لجماعة الذكور ولجماعة الإناث ،وهذه لغة الحجازيين . وتختلف عن لغة بنى تميم التى يزيدون عليها فيقال : « هلم يا رجل » ، و« هلمى يا امرأة » ، و« هلما ، وهلموا ، وهلممن » . والقرآن نزل بلغة قريش « الحجازيين » ، والحق يقول : « هلم شهداءكم » . أى هاتوا وأحضروا شهداءكم أن الله حرّم هذا ، إنكم بلا علم ، وكذلك لا شهود عندكم على المدعى ؛ فإن كان عندكم شهود هاتوا هؤلاء الشهود .

وماذا إن أحضروا شهود زور ؟ إنه ـ سبحانه ـ يحذر رسوله ويوضح له أنهم حتى ولو أحضروا شهداء إياك أن تصدقهم فهم كذابون :

وكأن الله يريد أن يفضح الشهود أيضاً أمام المشهود أمامهم ، ويعطى أيضاً قضيتين اثنتين ؛ فسبحانه يدحض ويبطل حجتهم ، ويفضح الشهود الذين جاءوا بهم . فكأنه قال : هاتوا هؤلاء الذين قالوا لكم هذا الكلام ، وفى ذلك فضيحة لمن لقنهم هذه الأوامر .

ويأمر الحق رسوله ألا يتبع الذين كذبوا بآياته سبحانه . وكلمة « أهواء » ، جمع هوى ، وهو ما يختمر فى الذهن ليلوى الإنسان عن الحق ؛ فهو شهوة ترد على الذهن فتجعله يعدل عن الحق :

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأنعام)

وهم لا يكذبون بآيات الله فقط بل لا يؤمنون بالآخرة أيضاً ؛ لأنهم لو كانوا يؤمنون بالآخرة لعلموا أنهم مجازون على هذا جزاء يناسب جرائمهم ، ولو أنهم قدروا هذه المسألة لامتنعوا عن اتباع أهوائهم .

ويذيل الحق الآية بقوله الكريم :

﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأنعام)

ونفهم من كلمة « يعدل » أنها من العدل بمعنى القِسط ؛ إذا قيل : عدل فى كذا ، أو عدل بين فلان وفلان ؛ أو عدل فى الحكم ، أما عدل بكذا فيكون المراد منها أنه جعله عديلا ومساويًا . وجاءت بهذا المعنى فى آية أخرى هى قوله الحق :

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾

(سورة الأنعام)

أى يجعلون ما لا يصح أن يكون مساويًا لله ، مساويا وعدلا لله . وهذا فعل من جعلوا لله شركاء ، وكذلك من لا يؤمنون بالله ؛ فالواحد منهم يعدل عن ربه عدولاً ويميل ويعرض عنه ويشرك به ويسوِّى به غيره . ويجب أن نلحظ عند النطق بكلمة « التوحيد » وهى : « لا إله إلا الله » ألا نقف عند قول : (لا إله) لأن ذلك يعنى إنكار ونفى وجود إله وهذا والعياذ بالله كفر . إذن يجب علينا أن نصلها بما بعدها فنقول : (لا إله إلا الله) أو نكون عند نطقنا بلفظ (لا إله) قد انعقدت قلوبنا على وحدانيته وما يجب له ـ تعالت عظمته ـ من صفات الجلال والكمال ، ومعنى (لا إله إلاالله) أنه لا معبود بحق إلا الله ، لأن المعبودين بباطل كثيرون كالأصنام والنجوم والجن وبعض الإنس والملائكة وغير ذلك .

وكلمة « بربهم يعدلون » تفيد أنهم أهل شرك ، وكذلك من ينكر وجود الله إنه عن ربنا يعدل ويميل ويحيد عن الاعتراف به إلها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾

ننظر فى هذه الآية فلا نجد شيئاً من المحرمات من الأطعمة التى بها قوام الحياة ، ولكن نجد فيها المحرمات التى إن اتبعناها نهدر القيم المعنوية التى هى مقومات الحياة الروحية ، إنها مقومات الحياة من القيم ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ﴾ .

والأداء القرآنى هنا يأخذ لفظ « تعال » بفهم أعمق من مجرد الإقبال ، فكأن الحق يقول : أقبل علىّ إقبال من يريد التعالى فى تلقى الأوامر . فأنت تقبل على أوامر الله لتعلو وترتفع عن حضيض تشريع البشرية ؛ فلا تأخذ قوانينك من حضيض تشريع البشر ؛ لأن الشرط الواجب فى المشرع ألاّ يكون مساويًا لمن شرَّع له ، وألاّ يكون منتفعاً ببعض ما شرَّع ، وأن يكون مستوعباً فلا تغيب عنه قضية ولا يغفل عن شىء والمشرع من الخلق لا يشرع إلا بعد اكتمال عقله ونضجه . ولا يقدر أن يمنع نفسه من الانتفاع بالتشريع .

الرأسمالى ـ مثلاً ـ يشرع ليستفيد ، والماركسى يشرّع ليستفيد . وكل واحد

يشرع وفى نفسه هوى ، ومن بعد ذلك تعدّل التشريعات عندما نستبين أنها أصبحت لا تفى ولا تغطى أمور الحياة ، فكأن المشرع الأول لقصور علمه غابت عنه حقائق فضحها المجتمع حين برزت القضايا ، فنظر فى قانونه فلم يجد شيئاً يغطى هذه القضايا ، فيقول : نعدل القانون ، ونستدرك . ومعنى استدراك القانون أى أن هناك ما جهله ساعة قنن .

إذن يشترط في المقنن ألاّ يكون مساويًا للمُقَنن له ، وألاّ تغيب عنه قضية من القضايا حتى لا يُسْتَدرَك عليه ، وألاّ يكون منتفعاً بالتشريع ، ولا يوجد ذلك فى بشر أبداً ، فأوضح الحق : اتركوا حضيض التشريع البشرى وارتفعوا إلى السماء لتأخذوا تقنينكم منها ؛ فحين ينادى الله « تعالوْا » فمعناها ارتفعوا عن حضيض تقنين بشريتكم إلى الأعلى لتأخذوا منه تقنيناتكم التى تحكم حركة حياتكم ، فهو لا ينتفع بما شرع ، بل أنتم الذين تنتفعون ، ولأنه لا يغيب عنه شىء سبحانه ، وهو خالق ، هو أولى أن يشرع لكم .

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

« أتل » من التلاوة وهى القراءة ﴿ ما حرَّم ربكم عليكم ﴾ أي ما جعله حراما . . أى يمتنع عليهم فعله ، وسأقول لكم كل البلاغات بلاغاً بعد بلاغ .

﴿ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

لقد جاء سبحانه بتحريم الشرك من خلال تركيب لغوى يؤكد علينا ألا نشرك به ؛ فأنت ساعة تأتى لتلقى أوامر لمن ترأسه تقول له : استمع إلى ما أمنعك منه فاتبعه . ثم تبدأ فى التفصيل ، والحق هنا جاء بأول بند من المحرمات والمحظورات هو ألا نشرك به شيئاً . أى أتلو عليكم تحريم الشرك ، فأول المحرمات الشرك ، وعلينا أن نوحد الله ، فكل نهى عن شىء أمر بمقابله وكل أمر بشىء نهى عن مقابله . وعلى ذلك فكل أمر يستلزم نهيًا ، وكل نهى يستلزم أمراً . فلا تلتبس عليكم الأوامر والنواهى . أو تكون (عليكم) منقطعة عما قبلها ، أى عليكم ترك الشرك ، وعليكم إحسانا بالوالدين ، وألاّ تقتلوا أولادكم ، وألاّ تقربوا

الفواحش . . أى ألزموا ذلك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ وسبحانه يأمر هنا بتأكيد الإحسان إلى الوالدين ؛ فهو أمر بإيجاب ويستلزم نهيا عن مقابله وهو عقوق الوالدين ، أى لا تعقوهم . فعدم الإحسان إلى الوالدين يدخل فيما حرّم الله . ثم يقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

أى استبقوا حياة أولادكم ، فإن أردتها من قبيل النهى فقل هو نهى عن قتل الأولاد ،وإن أردتها من قبيل الإيجاب فقل : استبقوا الحياة . وقوله:﴿ من إملاق ﴾ أى من فقر ، فكأنهم كانوا فقراء ، ومادام الإملاق موجوداً فشغل الإنسان برزق نفسه يسبق الانشغال برزق من يأتى بعده ؛ فيا أهل الإملاق تذكروا أن الله يرزقكم ويرزق من سيأتى زيادة عليكم وهم الأولاد . ويقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

وهذا نهى عن القرب ، أى نهى عن الملابسات التى قد تؤدى إلى الفعل لا نهى عن الفعل فقط ؛ فحينما أراد الله أن يحرم على آدم وعلى زوجه الشجرة قال :

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأعراف)

لأن القرب قد يغرى بالأكل ،وكذلك ﴿ ولا تقربوا الفواحش ﴾ أى لا تأتى إلى مقدمات الفواحش بأن تلقى نظرة أو تحدّق النظر إلى محرمات غيرك ، وكذلك المرأة التى تتبرج ؛ إنها تقوم بالإقبال على مقدمات الفواحش ، فإذا امتنعت عن المقدمات أمنت الفتنة والزلل ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى المشبهات وقع فى الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن

حمى الله تعالى فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »[1] .

ويمنعك الحق : ألاّ تقرب ، أى أبعد نفسك عن مظنة أن تستهويك الأشياء ، مثلها مثل « اجتنب » تماماً ، وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

ويقول :

﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

وهنا يقول تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ .

وكل ما ظهر من الفواحش هو من أفعال الجوارح التى ترتكب الموبقات و« وما بطن » هو من أفعال السرائر مثل الحقد ، والغل ، والحسد .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

وكلمة « النفس » يختلف الناس فى معناها ، ولا تطلق النفس إلا على التقاء الروح بالمادة ، والروح فى ذاتها خيّرة ، والمادة فى ذاتها خيّرة مسبحة عابدة .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

وإذا التقت الروح بالمادة تقوم الحياة ، فمعنى قتل النفس أن نفصل الروح عن المادة بهدم البنية وهذا غير الموت ؛ لأن الله هو الذى يميت النفس ، أما الإنسان

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير .

فهو يقتل النفس إن هدم بنيتها . والذى وهب الحياة هو الله ، فلا يسلب الحياة إلا هو . وبعد ذلك يشرع الله لنا أن نسلب الحياة قصاصاً ، أو للزنا من الثيب المحصن رجلا أو امرأة ، أو للردّة ، فهذا قتل بحق ،لكن سبحانه وتعالى يلعن من يهدم بنيان الله بغير الحق ، والإنسان بنيان الله فلا تعتدى عليه . ولذلك أمرنا الله بالقصاص من إنسان قتل إنساناً ؛ حتى يحافظ كل واحد على حياة نفسه ، وحين يحفظ الإنسان كل نفس ، فإنّه ينجو بنفسه ويسلم .

هكذا يأمر الحق بأن نقتل الثيّب ، والثيب الزانى يطلق على الذكر والأنثى وهو من تزوج ودخل على زوجه وذاق كل منهما عسيلة الآخر وأفضى إليه ، وكذلك المرتد ، فنحن نحرص على حرية الاعتقاد ؛ بدليل أننا لا نقتل الكافر الأصلى لكفره ، ولكن يجب على الإنسان أن يفهم أن الدخول إلى الإيمان بالإسلام يقتضى أن يدرسه دراسة مستوفية مقنعة ، وأن يعلم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين ، فإذا علم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين ، فلن يدخله إلا وهو مقتنع تمام الاقتناع . ونحن نحمى بالاختيار ، فنعلن لكل من يقبل على الإسلام ونحذره : إياك أن تدخل بظاهر القول دون فهم لمعنى الإسلام لأنك لو دخلت ثم بعد ذلك ارتدْدت فسوف تقتل ، ومادام الشيء ثمنه الحياة ، فالواجب أن يحتاط الإنسان الاحتياط الشديد . وفي ذلك أيضاً ثقة من أن الإنسان إذا ما بحث فى الأدلة فسيقتنع بأن له إلهاً حقا ، ولكننا لا نقتل الكافر الأصلى .

إذن فقتل المرتد حماية لحزم الاختيار ، فإياك أن تدخل بدون روية ؛ لأنك لو دخلت ثم ارتددت فسوف تقتل ، وبذلك يصفى الحق المسألة تصفية لازمة بأن يعرض من يقبل على الإسلام جميع الحجج على نفسه ، ولا يدخل إلا بنية على هذا ، ففى أى عقد يحاول الإنسان أن يعرف التزاماته وأن تتضح أمامه هذه الالتزامات . ولا يدخل إلى الدين الدخول الأهوج ، أو الدخول الأرعن ، أو الدخول المتعجل . بل يلزمه أن يدخل بتؤدة وروية .

وفى الزواج يدخل الإنسان بكلمة ويخرج بكلمة أيضا هى : « أنت طالق » ، ولذلك تحتاط المرأة ، فمادامت قد عرفت أن بقاء زواجها رهن بكلمة فعليها أن تحرص ألا تضع هذا الحق إلا فى يد أمينة عليه . وساعة أن يقول لها أبوها :

اسمعى ، إن لك أن تختارى الزوج الذى إن أحبك أكرمك ، وإن كرهك لا يظلمك ؛ لأنه بكلمة منه تنتهى الحياة الزوجية . إذن فعلى المرأة أن تفكر فى الإنسان الأمين على هذه الكلمة .

ومع ذلك فهناك احتياط للغفلة ؛ فالرجل يتزوج بكلمة واحدة ، من مرة واحدة لكن فى الطلاق هناك ثلاث مراحل ؛ كرصيد للغفلة . فالرجل يتزوج المرأة بكلمة « زوّجتك نفسى أو يزوجها وليها ويكون القبول من الزوج وبهذا يتم الزواج » . لكن فى الطلاق أباح الله لغفلة الرجل ولرعونته أن يطلق مرة ، ثم يراجع هومن غير دخول أحد بينهما ، ثم يطلق ثانية ، ويراجعها ، ولكن بعد الطلاق الثالث يجد التنبيه من الحق : لقد احتطنا لك برصيد من غفلتك . ولكن عندما تريدها زوجاً لك فلا يتم ذلك إلّاأن تتزوج غيرك ، وبعدها قد تعود لك أو تبقى مع من تزوجها . فاحتط جيداً للأمر الذى تدخل عليه ، وللتعاقد الذى التزمت به . فإذا كان هذا هو الشأن فى تعاقد الزواج ، فما بالنا بالرّدة ؟ إنّنا نقتل المرتد ، ولا نفعل به ذلك قبل أن يؤمن وقبل أن يعلن إيمانه وقبل الدخول فى حيز المؤمنين ، ليعلم أنه إن رجع عن الإسلام فسيقتل . وهكذا يصعِّب الإسلام الدخول إليه ، ويحمى الاختيار فى الوقت نفسه .

ويتابع سبحانه :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّـٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

و « الوصية » لا تكون إلا للأمور المهمة التى لا تستقيم كالحياة إلا بالقيام بها ، إنها فى أمهات المسائل التى لا يصح أن نغفلها . ولذلك حين تنظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لقد ظل ثلاثة وعشرين عاماً يستقبل من السماء ويناول أهل الأرض ، ثم جاء فى حجة الوداع وركّز كل مبادئ الدين فى قوله تعالى :
﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ .

و « وصاكم » غير شرّع ؛ فشرّع تأتى بكل التشريعات وما فيها من تفاصيل صغيرة ، والوصية تضم أمهات المسائل فى التشريع . و العقل يجب أن يسع المسألة من أولها إلى آخرها ؛ فلو استعملت عقلك فى كل منهى عنه ، أو فى كل مأمور

به فى الآية فستجد التعقل يعطيك التوازن فى القرار ، وقد ختم الحق الخمسة الأشياء التى ذكرها فى هذه الآية بـ ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ . هذه الأوامر متفق عليها فى جميع الرسالات وفى جميع الأديان ، ويسمونها : « الوصايا العشر » .

والأشياء الخمسة التى أوصى بها سبحانه هى :

* ألا تشركوا به شيئاً .
* وبالوالدين إحساناً .
* ولا تقتلوا أولادكم من إملاق .
* ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .
* ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق .

فكان يجب أن يقول : ذلكم وصاكم بها ، لكنه قال : ﴿ وصاكم به ﴾ ، فكأن أوامر الله ونواهيه أمر واحد متلازم تتمثل كلها فى : التزم ما أَمَرَ اللَّهُ به ، واجتنب ما نهى الله عنه .

وقوله سبحانه : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ فكأن العقل لو خُلِّى ليبحث هذه الأشياء بحثاً مستقلاً عن منهج السماء لوجد أن ضرورة العيش على الأرض تتطلب وجود هذه الأشياء .

إذن ، كيف نُعْصم من أهوائنا المتضاربة بعضها مع بعض ؟ . لابد أن يكون الإله واحداً حتى لا يتبع كل واحد منا هواه . إننا نعرف أن الأصل فى الإنسان هو الأب والأم . ولذلك وصَّى بالأصل فى ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ ، ووصى أننا لا نقتل الأولاد خشية الفقر ؛ لأن الحياة تستمر بهم ، وبعد ذلك لابد أن تكون الحياة نظيفة ، طاهرة لجميع الأفراد ، ولا تشوبها شائبة الدنس أبداً ، ولا يتأتّى ذلك إلا إذا تركنا الفواحش : ما ظهر منها وما بطن ؛ لأننا نلاحظ أن كل الأولاد غير الشرعيين يُهْمَلون ؛ فالحق سبحانه وتعالى يريد طهارة الأنسال فى الحياة ؛ حتى يتحمل كل واحد مسئولية نسله . ويكون محسوباً عليه أمام المجتمع ، ويحذرنا سبحانه من أن نقتل النفس إلا بالحق ؛ لأن النفس أصل استبقاء الحياة .

ثم يجئ الحق بعد ذلك فى الآية التالية ليكمل الوصايا فيقول :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

ونعلم أن اليتيم هو من فقد أباه ، ولم يبلغ مبلغ الرجال ، هذا فى الإنسان ، أما اليتيم فى الحيوان فهو من فقد أمه . وقوله الحق :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

هنا يفرض سبحانه أن اليتيم له مال ، فلم يقل : لا تأكل مال اليتيم . بل أمرك ألّا تقترب منه ولو بالخاطر ، ولو بالتفكير ، وعليك أن تبتعد عن هذه المسألة . وإذا كان قد قال : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ﴾ فهل هذا الأمر على إطلاقه ؟ . لا ؛ لأنه أضاف وقال بعد ذلك : ﴿ إلا بالتى هى أحسن ﴾ أى بأن نُثمِّر له ماله تثميراً يسع عيشه ، ويبقى له الأصل وزيادة ، ولذلك قال فى موضع آخر :

﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

فلا يأخذ أحد مال اليتيم ويدخره ، ثم يعطيه منه كل شهر جزءًا حتى إذا بلغ الرشد يجد المال قد نقص أو ضاع ، لذلك لم يقل : ارزقوهم منها ، بل قال : ﴿ وارزقوهم فيها ﴾ أى ارزقوهم رزقاً ناشئاً منها . فَمالُهم ظرفية للرزق ، ولا يتأتّى هذا إلا بأن نثمرها لليتيم ، ولا نحرم الوصاية على اليتيم لرعاية ماله من أصحاب

الكفاءات فى إدارة الأعمال والأمناء ، وقد يوجد الكفء فى إدارة العمل ، والأمين فيه لكن حاله لا ينهض بأن يتحمل تبعات ومؤنة حياته وقيامة بإدارة أموال اليتيم ؛ فقال ـ سبحانه ـ فى ذلك :

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

أى أن يهب الوصىّ تلك الرعاية لله ، وحين يهب تلك الرعاية لله ولا يأخذ نظير القيام بها أجراً ؛ يضمن أنه إن وُجِدَ فى ذريته إلى يوم القيامة يتيم فسيجد من يعوله حسبة لله وتطوعاً منه مدخراً أجره عند الله . والحق هو القائل :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

وحينما يجد اليتيم من يرعاه ، وحين يتعاطف المجتمع مع كل يتيم فيه ، ويتولى أمور اليتامى أناس أمناء قادرون على إدارة أمورهم فسوف يقل جزع الإنسان من أن يموت ويترك صغاره ؛ لأنه سيجد كرامة ورعاية لليتيم ، فالناس تخاف من الموت لأن لهم عيالاً صغاراً ويرون أن المجتمع لا يقوم برعاية اليتامى ، لكن الإنسان إن وَجَد اليتيم مُكرّماً ، ووجد له آباء من الأمة الإسلامية متعددين ، فإن جاءه الموت فسوف يطمئن على أولاده لأنهم فى رعاية المجتمع ، ولكن لا تنتظر حتى يصلح شأن المجتمع بل أصلح من نفسك وعملك تجاه أى يتيم ، ويمكنك بذلك أن تطمئن على أولادك فستجد من يرعاهم بعد مماتك ، وحين يرعى المجتمع الإيمانى كل يتيم ستجد الناس لا تضيق ذرعاً بِقَدَر الله فى خلقه بأن يموت الواحد منهم ويترك أولاداً . والمثل واضح فى سورة الكهف بين العبد الصالح وسيدناموسى حينما مرّا على قرية :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا ﴾

(من الآية ٧٧ سورة الكهف)

فلم يطلبا نقوداً ليدخراها ، ولكنهما طلبا طعاماً لسد الجوع ، وهذه حاجة مُلحّة . ومع أنهما استطعما أهل القرية أبى أهل القرية أن يضيفوهما . ومعنى ذلك أنها قرية

لئيمة الأهل . وعلى الرغم من أن العبد الصالح وجد ردّهم عليه وامتناعهم عن إطعامهما ، ولكنه عندما وجد جداراً ، وبفراسته علم أن الجدار يريد أن ينقض ؛ وكأن الجدار له إرادة ، فأقام الجدار ، ولأمه سيدنا موسى عليه السلام ، وكان سيدنا موسى منطقيًّا مع نفسه ، فقد طلب هو وشيخه من أهل القرية مجرد الطعام فرفضوا ، فكيف ترد عليهم بأن تبنى لهم الجدار ، وكان يجب أن تأخذ على البناء أجرة ، فهم قوم لئام ، هذا كلام موسى . لكن العبد الصالح جازاهم بما يستحقون ؛ لأنه ببنائه الجدار قد حال بينهم وبين أخذ الكنز ، لأنه لو ترك الجدار ينهار لظهر الكنز الذى تحته وهو ليتيمين ، وهكذا عرف العبد الصالح كيف يربيهم .

وبعد ذلك أراد الله أن يشرح لنا أن الجدار كان لغلامين يتيمين فى المدينة .

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الكهف)

فكأن استخراج الكنز مقارن ببلوغ الرشد ، وكأن العبد الصالح قد بنى الجدار بناءً موقوتاً ، بحيث لا ينهار إلا حين يبلغ الغلامان مبلغ الرشد ، لقد بنى العبد الصالح البناء وكأنه يضبط الميقات فلا يتماسك الجدار إلا لساعة بلوغ الغلامين أشدهما ، وعندئذ يستخرج الغلامان كنزهما . وبعد ذلك جاء لنا بالحيثية لكل ذلك ، فقال سبحانه :

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الكهف)

فكأن صلاح الأب هو الذى أراد به الحق أن يظهر لنا كيف حمى كنز الأبناء ، فيأتى العبد الصالح وموسى لأهل القرية اللئام ، ويطلبان طعاماً ، فلا يطعمونهما ، فيبنى العبد الصالح الجدار الموقوت الذى يصون الكنز من اللئام . والحق يقول هنا :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

ومن لا يقدر على قرب مال اليتيم بالتى هى أحسن فليبتعد عنه .

وحتى لا يتحرز ويتوقى الناس من رعايتهم مال اليتيم ، قال سبحانه :

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

وكلمة « فليأكل بالمعروف » أى لا يكنز ولا يدخر منه أبداً ، بل يأكل بما يدفع الجوع فقط ويكتسى مايستر جسمه . ونعرف أن اليتيم لم ينضج عقله بعد ، وكذلك الكبير السفيه هو أيضاً لا يقدر على التصرف ؛ لذلك قال الحق فى أدائه البيانى حيث يؤدى اللفظ ما يوحى بالمعانى الواسعة :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

وجعل الحق مال السفيه فى مرتبة مال الولى ؛ لأن السفيه لا يحترم ملكيته وقد يبددها . ولكن المال يعود لهذا الإنسان حين يذهب عنه السفه فيقول الحق :

﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إنه أداء قرآنى عجيب ، يشجع الناس ألا يتركوا السفيه يبدد ماله فتكون خسارة للمجتمع كله ، فمادام هو فى سفه فانظر إلى المال كأنه مالك ، ولتكن أميناً عليه أمانتك على مالك . وعندما ترى وتجد رشده وتطمئن على ذلك ، فإن الحق يأمرك أن تعيد له ماله . ونعود إلى اليتيم ، هنا يقول الحق :

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ﴾ .

هذا إن كان له مال ، فماذا عن اليتيم الذى لا مال له ؟ . هنا تكون الوصية أقوى ، عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » (وأشار بالسّبابة والوسطى وفرّج بينهما)[1] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) رواه البخارى ، والترمذى ، وأبو داود .

« الساعى على الأرملة والمساكين كالمجاهد فى سبيل الله وكالذى يصوم النهار ويقوم الليل »[١] .

وخذوا بالكم واجعلوا مسح رأس اليتيم لله ، فمن الجائز أن تكون لليتيم أم جميلة ، ويريد الولى أن يتقرب منها عن طريق الولد ، احذروا ذلك ، فإنه فضلاعلى أنه يسخط الله ويغضبه فهو خسة ولؤم ونذالة .

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

لم يقل الله ـ سبحانه ـ بالتى هى حسنة ولكنه قال : ﴿ بالتى هى أحسن ﴾ لتشديد الحرص على مال اليتيم حتى يبلغ أشده لأن بلوغ الأشد ، يعنى أن اليتيم صارت له ذاتية مستقلة ، وما المعيار فى الذاتية المستقلة ؟ ؛ أن يصبح قادراً على إنجاب مثله ، وهذا معيار النضج . مثله مثل الثمرة حين تنضج ؛ أى صارت البذرة التى فيها صالحة لأن نضعها فى الأرض لتكون شجرة . وأنت إن قطفت الثمرة قبل أن تنضج لا تجد طعمها حلوا ، ولا تستسيغ مذاقها إلا حين تستوى البذرة وتنضج .

و « الأشد » أي أن الإنسان يصير قادراً على إنجاب مثله وهو ما نسميه البلوغ ، ويصبح أيضاً قادراً على حسن التصرف فى المال وفى كل شىء . ويتابع سبحانه :

﴿ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

والكيل هى المعايير لما يكال حجماً ، والموازين هى المعايير لما يُقَدّر كثافة ، فهناك معيار للحجم ومعيار للكثافة . معيار الحجم الكيل ، ومعيار الكثافة هو الوزن ، وهناك أيضاً التقديرات العادلة فى القياس ، للأقمشة مثلاً ، المقياس فيها هو المتر ، إذن كل شىء بحسبه ، وإذا أردت الموزون فلابد أن يكن بالقسط ، أى بالعدل .

وهذه المسألة من الصعب تحقيقها ، ولذلك تختلف الموازين باختلاف نفاسة الأشياء ، فحين نزن الفول أو العدس أو البطاطس أو القلقاس ، فنحن نزنه بميزان

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد .

كبير ؛ لأن فرق الميزان قد يكون حول الكيلوجرام ، فالأمر حينئذ يكون مقبولاً . وحين نزن أشياء أثمن قليلاً ، نأتى بالميزان الدقيق . فإن كان الشىء الموزون ذهباً نحيط الميزان بجدران زجاجية لأن لفحة الهواء قد تقلل أو تزيد الوزن .

إننا نحاول أن نمنع تأثير تيارات الهواء عليها . وحين نزن المواد الكيماوية نأتى بميزان يعمل بالذرة . إذن كل موزون يأخذ درجة ميزانه بمقدار نفاسته وتأثيره ؛ لأن تحقيق العدالة فى الميزان مسألة صعبة ، وكذلك الأمر فى الكيل . فحين يكيل الإنسان كيلاً يمسك إناء الكيلة ويهزّه ؛ حتى يأتى المكيال دقيقاً محرراً ، وإن أراد أن يلغى ضميره ويأخذ أكثر من حقه فهو يملأ المكيال بأكثر مما يحتمل ويسند الزيادة بيده حتى لا تقع . وربنا يقول :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ ﴾

(سورة المطففين)

فحين يكتال يستوفى ويطفف أى يزيد ما سوف يأخذه شراء ، وحين يبيع يقلل الكيل أو الوزن ليأخذ ثمناً أكثر من ثمن ما يزن أو يكيل . وأصل المبادلات غالباً بين طرفين ، وبعض المتنطعين يقول : كيف يقول الحق : ﴿ ويل للمطففين ﴾ والتطفيف فى أى مسألة يكون بالزيادة ، لا بالنقص . ونقول : انتبه إلى أن المتحدث هو الله ، والتطفيف إنما هو الرغبة فى الاحتفاظ بالزيادة للنفس ، أما النقص فيكون للآخرين ،والتطفيف يزيد طرفاً وينقص من طرف ، وكل صفقة بين اثنين فيها بيع وشراء . فإن أراد واحد أن يجعل الخسران على طرف وأن يستوفى لنفسه فهو مطفف .

ولذلك تأتى دقة الأداء القرآنى من ربنا :

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

وقال الحق ذلك لأنه يعلم أن الكيل والميزان بالعدل أمر متعذر ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لواسع رحمته فى التشريع لنا لم يجعل مجال الاستطاعة أمراً يمكن أن تتحكم فيه أشياء لا تدخل فى الاستطاعة ؛ ففى ضبط المكيال والميزان قال : ﴿ لا نكلف نفساً

إلا وسعها ﴾ ، لأن المكيال والميزان أداتان تتحكم فيهما ظروف لا تدخل فى نطاق الإنسان . ولذلك قلنا : إن وزن الأشياء التى نعلمها إن كانت من الأشياء التى ليست فيها نفاسة فوزنها له آلة . وإن كانت فى المتوسط فوزنها له آلة ، وإن كان فى الأشياء النفيسة الدقيقة التى للقدر الصغير فيها قيمة مؤثرة ، فإن لها آلة مضبوطة مصونة من عوامل الجو حتى لا تتأثر بهبّة الهواء ، فقول الحق : ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ إباحة للأشياء الزائدة أو الناقصة التى لا تدخل فى الاستطاعة ، ثم قال سبحانه :

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

نعلم أن القول نسبة كلامية ينطق بها المتكلم ليسمعها مخاطب ، ينفعل للمطلوب فيها خبراً أو إنشاءً ، والقول مقابله الفعل ، وكلاهما عمل ، فالقول عمل والفعل عمل ؛ فإذا قلت : قل أو افعل ، فافهم أن القول متعلق بجارحة اللسان ، والفعل متعلق بكل الجوارح ما عدا اللسان ، فإذا رأيت ، وإذا سمعت ، وإذا شممت ، وإذا لمست كل ذلك يطلق عليه أنه فعل ، ولكن إذا ما تحرك اللسان فذلك قول : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ .

وهل العدل مقصور على القول ؟ أو العدل أيضاً يكون فى الفعل ؟ إن العدل قد يكون فى خلاف بين اثنين ، وهذا لا يتأتى بفعلك ، وإنما يتأتى الحكم والفصل فيه بقولك ، وإذا ما تعودت العدل فى قولك ، ألفته وأنست به وأحببته حتى فى أعمالك الخاصة الأخرى .

والقول منه الإقرار ، وإن تقر على شىء فى نفسك فقله بالعدل وبالحق ، والشهادة . قلها بالحق ، والحكم . قله بالحق . والوصية . قلها بالحق . والفتوى . قلها بالحق . إذن فالحق فى القول أمر دائر فى كثير من التصرفات ؛ لأنك إذا قلت بالحق أمكنك أن تعدل ميزان حركة الحياة ؛ فميزان حركة الحياة لا يختل إلا إن رجح باطل على حق ؛ لأنك إذا حكمت لواحد بشىء لا يستحقه فقد أعطيته ما ليس له ، وإنك بعملك هذا تجعل المتحرك فى الحياة يزهد فى الحركة . لكن إذا ما حافظت على حركة كل متحرك ، وأخذ كل واحد حظه من الحياة بقدر ما يعمل اتزنت كل

الأمور ، ولم يعد هناك قوم يعيشون على جهد غيرهم وعرق سواهم ، إذن فقول العدل هو مناط حركة الحياة الثابتة المستقيمة الرتيبة الرشيدة : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ .

والذى يؤثر فى العدل هو الهوى ، وحين يوجد الهوى فهو يحاول أن يميلك إلى ناحية ليس فيها الحق ، وأولى النواحي أن يكون الأمر متعلقاً بك أو بقرابة لك ، وقد تريد إن حكمت ـ والعياذ بالله ـ باطلا ، أن تسعد ذا قرباك ،وأنت بذلك لم تؤد حق القرابة ؛ لأن حق القرابة كان يقتضى أن تمنع عنه كل شىء محرّم وتحمى عرضه ، وتحمى دينه قبل أن تحمى مصلحته فى النفعية الزائلة . ولذلك يأمرك الحق بأن تقول الكلمة بالعدل ولو كان المحكوم له أو عليه ذا قربى ؛ لأنك حين تحكم بالباطل فأنت فى الواقع حكمت عليه لا له .

﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

ونحن نعلم أن عهد الله هو ما عاهدنا الله عليه ، وأول عهد وقمة العهود هو الإيمان به سبحانه ، وترتب على ذلك أن نتلقى منه التكليف ، فكل تكليف من تكاليف الله لخلقه يُعتبر عهداً داخلاً فى إطار الإيمان ؛ لأن الله لا يحكم حكماً أو يبينه لمكلَّف إلا بعد أن يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

أى يا من آمنت بالعهد الأصيل فى القيم وهو العقيدة ، وآمنت بى إلهاً : خذ التكليف منى ؛ لأنك قد دخلت معى فى عهد هو الإيمان .

ولذلك لا يكلف الله بالأحكام كافراً به ، إنما يقول : ﴿ ياأيها الذين آمنوا ﴾ ، ولذلك يجب أن نأخذ كل حكم بدليله من الإيمان بمن حكم به ، فلا تبحث عن العلة فى كل حكم ، وإنما علة كل حكم أن تؤمن بالذى أمرك أن تفعل كذا ، فَعِلَّة كل أمر هى الحكم .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

و « ذلكم » إشارة إلى ما تقدم ، من أول قوله سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

إلى أن انتهينا إلى قوله سبحانه :

﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

والتوصية تخصيص للتشريع ؛ لأن التشريع يعم أحكاماً كثيرة جدًّا ، ولكن الوصية التي يوصى الله بها تكون هى عيون التشريع . ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنه عن هذه الآيات : « إنها محكمات لم ينسخهن شىء من جميع الكتب ، وقيل إنهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار » .

ولم يوجد شرع جاء لينسخ واحدة من هذه الوصايا ، ولذلك يقول اليهودى الذى أسلم وهو كعب الأحبار : « والذى نفس كعب بيده إنّ هذه الآيات لأول شىء فى التوراة : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ﴾ » . ثم نجد أن هذه الوصية الأخيرة هى جامعة لكل شيء ؛ نجد تسع وصايا قد مرّت ؛ خمسا منها قال فيها : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، وأربعاً قال فيها : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ ، والعاشرة يقول : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ، وهذه الوصية العاشرة هى الجامعة لكل أنواع الفضائل التكليفية إنّها قوله الحق :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا

تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

أي أنه ختم الوصايا التسع بهذا القول ؛ لأن الصراط المستقيم يشمل الوصايا التسع السابقة ويشمل كل ما لم يذكر هنا . وقلت : إننا نلاحظ أن الخمس الأول ذيلها الحق بقوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، والأربع التى بعدها ذيلها الحق بقوله : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ والواحدة الجامعة لكل شىء قال تذييلاً لها : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ .

فما الفرق بين التعقل والتذكر والتقوى ؟

إن الأشياء الخمسة الأولى التى قال الحق فيها :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

هذه الأشياء كانت موجودة فى بيئة نزول القرآن ، إنهم كانوا يشركون بالله ويعقون والديهم ويقتلون الأولاد ويقارفون الفواحش ويقتلون النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، فأوضح لهم : تَعَقَّلوها ، فإذا ما تعقلتموها تجدون أن تكليف الله بمنعكم من هذه الأفعال ، إنه أمر يقتضيه العقل السليم الذى يبحث فى الأشياء بمقدمات سليمة ونتائج سليمة ، لكن « الأربع » الأخرى ، هم كانوا يفعلونها ويتفاخرون بها . ففى التى كانوا يعملونها من القيام على أمر مال اليتيم والوفاء فى الكيل والميزان والعدل فى القول والوفاء بالعهد قال : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أى إياكم أن تغفلوها ؛ فإذا كنتم تفعلونها وأنتم على جاهلية ؛ فافعلوها من باب أولى وأنتم على إسلامية . ثم جاء بالوصية الجامعة :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ونظراً لأن هذه الوصية تستوعب كل الأحكام إيجابًا وسلبًا ، نهيًا وأمراً ، فوضح لهم أنه يجب عليكم أن تتبعوا الصراط المستقيم : لتقوا أنفسكم آثار صفات القهر من الحق سبحانه وتعالى ، وأول جنودها النار .

والصراط : هو الطريق المعبّد ، ويأخذون منه صراط الآخرة ، وهو ـ كما يقال ـ « أدق من الشعرة ، وأحدّ من السيف » ، ما معنى هذا الكلام ؟ . معناه أن يمشى عليه بيقظة تامة واعتدال ؛ لأنه لو راح يمنة يهوى في النار ، ولو راح يسرة يسقط فيها ، فهو صراط معمول بدقة وليس طريقاً واسعاً ، بل ـ كما قلنا ـ « أدق من الشعرة وأحدّ من السيف » فلتمش على صراط الله ومنهجه معتدلاً ، فلا تنحرف يمنة أو يسرة ؛ لأن الميل ـ كما قلنا ـ يبعدك عن الغاية ، إنك إذا بدأت من مكان ثم اختل توازنك فيه قدر ملليمتر فكلما سرت يتسع الخلل ، وأى انحراف قليل فى نقطة البداية يؤدى إلى زيادة الهوة والمسافة .

كذلك الدين ، كلما نلتقى فيه ويقرب بعضنا من بعض ، نسير فى الطريق المستقيم ، وكلما ابتعدنا عن التشريع تتفرق بنا السبل .

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ جلّى بالحركة الفعلية منطوق النسبة الكلامية ، حينما جلس بين أصحابه وخطّ خطًّا . وقال : هذا سبيل الله .
ثم خط خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن يساره ، ثم قال : هذه سبل وعلى كلٍ سبيل منها شيطان ؛ يدعو إليها ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ .

ولذلك فكل أهل الحق ، وأهل الخير كلما اقتربوا من المركز كان الالتقاء ، وهذا الالتقاء يظل يقرب ويقرب ويقرب إلى أن يتلاشى ويصير الكل إلى نقطة واحدة .

وانظر إلى جلال الحق حينما يجعل الصراط المستقيم إليه فى دينه ، منسوباً إلى رسوله : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً ﴾ فالرسول يسير على هذا الصراط وهو لا يغش نفسه ، والذى يفعله ويمشى فيه يأمركم بأن تمشوا فيه ، وهو لم يأمركم أمراً وهو بنجوة وبعدٍ عنه ، ولو غشكم جميعاً لا يغش نفسه ، وهذا هو صراطه الذى يسير فيه .

والسبيل هنا معروف أنّه إلى الله فكأن سبيل الله هو طريق محمد صلى الله عليه وسلم . ونسب الفعل والحدث لله وحده ؛ ففى البداية قال : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً ﴾ ، ثم قال : « سبيله » فالصراط لم يعمله محمدٌ لنفسه ، ولكن أراده الله للمؤمنين جميعاً ، ورسول الله هو الذى يأخذ بأيديهم إليه .

وحين ننظر إلى كل الخلافات التى تأتى بين الديانات بعضها مع بعض ، بين اليهودية والنصرانية على سبيل المثال :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

والمشركون قالوا : لا هؤلاء على شىء ، ولا هؤلاء على شىء :

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

أى أننا أمام ثلاثة أقوال : اليهود قالوا : ليست النصارى على شىء ، والنصارى قالوا : ليست اليهود على شىء ، وقال الذين لا يعلمون ـ وهم أهل مكة ـ مثل قولهم ، ثم نجد الدين الواحد منهما ينقسم إلى طوائف متعددة ، وكل طائفة لها شىء تتعصب له . وترى أن الذى تقول به هو الحق ، والذى يقول به غيرها هو الباطل ، وكيف ينشأ هذا مع أن المصدر واحد ، والتنزيلات الإلهية على الرسل واحدة ؟! إن

آفة كل هذا تنشأ من شهوة السلطة الزمنية ، وكل إنسان يريد أن تكون له مكانة ونفوذ وخلافة . وهذا يريد أن يتزعم فريقاً ، وذاك يريد أن يتزعم فريقاً ، ولو أنهم جُمعوا على الطريق الواحد لما كانوا فرقاء .

ونجده صلى الله عليه وسلم يقول : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة »[١] .

وفى راوية : « كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة » ، والجماعة : هم أهل السنة والجماعة ، وفى رواية : « ما أنا عليه وأصحابى » .

ونلاحظ دقة هذا القول فى عدد المذاهب والفرق ، وإن كنتم لا تسمعون عن بعضها لأنها ماتت بموت الذين كانوا يتعصبون لها ، والذين كانوا يريدون أن يعيشوا فى جلالها .

إذن الآفة تأتى حين ننظر إلى حكم من الأحكام ، يرى فيه واحد رأيا ، ويأتى الآخر فيري فيه رأيا آخر ، لا لشىء إلا للاختلاف . ونقول لهم : انتبهوا إلى الفرق بين حكم مُحْكَم . وحكم تركه الله مناطاً للاجتهاد فيه ، فالحكم الذى أراده الله محكماً جاء فيه بنص لا يحتمل الخلاف ، وهذا النص يحسم كل خلاف . والحكم الذى يحبه الله من المكلّفين تخفيفاً عنهم على وجه من الوجوه يأتى بالنص فيه محتملاً للاجتهاد ، ومجىء النص من المشرع فى حكم محتمل للاجتهاد هو إذن بالاجتهاد فيه ؛ لأنه لو أراده حُكما لا نختلف فيه لجاء به محكماً .

والمثال المستمر ما تركه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنته الشريفة ، فحينما أراد الحق سبحانه وتعالى ألاّ يضع السلاح قبل أن يؤدب بنى قريظة ، وهم من شايعوا مشركى مكة فى الحرب . فقال صلى الله عليه وسلم : « لا يُصَلِّيَنَّ أحدٌ العصرَ إلا فى بنى قريظة »[٢] .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة .

(٢) رواه البخارى فى المغازى ، والبيهقى فى الدلائل والسنن .

فذهب الصحابة فى طريقهم إلى بنى قريظة ، وآذنت الشمس بالمغيب وهم فى الطريق فانقسم صحابة رسول الله إلى قسمين : قسم قال : نصلى العصر قبل أن تغيب الشمس ، وقال قسم آخر : قال رسول الله لا نصلين العصر إلا فى بنى قريظة . فصلى قوم العصر قبل مغيب الشمس ، ولم يصل الآخرون حتى وصلوا إلى بنى قريظة ، ورفعوا أمرهم إلى المشرع وهو رسول الله ، فأقرّ هذا ، وأقرّ هذا ، لأن النص محتمل .

لماذا ؟ . لأن كل حدث من الأحداث يتطلب ظرفاً له زمان ومكان ؛ فالذين قالوا إن الشمس كادت تغرب ولابد أن نصلى العصر قبل مغيبها نظروا إلى الزمان . والذين قالوا لا نصلى إلّا فى بنى قريظة نظروا إلى المكان . وحينما رُفِعَ الأمر إلى المشرع الأعلم أقرّ هؤلاء وأقرّ هؤلاء .

إذن فالحكم إن كان فيه نص محكم فلا احتمال للخلاف فيه . وإن كان الله قد تركه موضعاً للاجتهاد فيه فهو يأتى لنا بالنص غير المحكم . ومَن ذهب إليه لا يصح أن نخطئه ، ولذلك بقى لنا من أدب الأئمة الذين بقيت مذاهبهم إلى الآن بعضهم مع بعض . نجد الواحد منهم يقول : الذى ذهبت إليه صواب يحتمل الخطأ ، والذى ذهب إليه مقابلى خطأ يحتمل الصواب ، وجميل أدبهم هو الذى أبقى مذاهبهم إلى الآن ، وعدم أدب الآخرين جعل مذاهبهم تندثر وتختفى ولا تدرون بها ، والحمد لله أنكم لا تدرون بها .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

ونحن إذا سمعنا كلمة « ثم » نعلم أنها من حروف العطف ، وحروف العطف

كثيرة ، وكل حرف له معنى يؤديه ، وهنا ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ ، وإيتاء موسى الكتاب كان قبل أن يأتى قوله : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ فالتوراة جاءت ثم الإنجيل ، ثم جاء القرآن ككتاب خاتم . فكيف جاءت العبارة هنا بـ « ثم » ؟ . مع أن إتيان موسى الكتاب جاء قبل مجىء قوله الحق : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ ؟

ونقول لأصحاب هذا الفهم : أنت أخذت « ثم » لترتيب أفعال وأحداث ، ونسيت أن « ثم » قد تأتى لترتيب أخبار . فقد يأتى مَن يقول لك : لماذا لا تسأل عن فلان ولا تؤدى الحق الواجب عليك له ؛ كحق القرابة مثلا ، فتقول : كيف ، لقد فعلت معه كذا ، ثم أنا فعلت مع أبيه كذا ، ثم أنا فعلت مع جدّه كذا .

إذن ، فأنت تقوم بترتيب أخبار . وتتصاعد فيها ، وتترقى ، ولذلك قال الشاعر العربى :

إن من ساد ثم ساد أبوه   ثم قد ساد قبل ذلك جدّه

فالسيادة جاءت أولاً للجد ، ثم جاءت للأب ، ثم انتقلت للابن . و « ثم » فى هذه الحالة ليست لترتيب الأحداث وإنما جاءت للترتيب الإخبارى أى يكون وقوع المعطوف بها بعد المعطوف عليه بحسب التحدث عنهما لا بحسب زمان وقوع الحدث على أحدهما فالمراد الترقى فى الإخبار بالأحداث .

وانظر إلى القرآن بكمال أدائه يقول :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأعراف)

ونعلم أن الأمر من الله للملائكة بالسجود لآدم كان من البداية . فسبحانه فى هذا القول الكريم يريد أن يرتب حالنا ، إنه ـ سبحانه ـ خلقنا بعد أن صورنا ، وصورنا ، بعد أن قال للملائكة اسجدوا لآدم .

ولله المثل الأعلى ، تجد من يقول لابنه : لقد اعتنيت بك فى التعليم العالى ،

ثم لا تنس أني قد اعتنيت بك فى التعليم الثانوى ، ثم لا تنس أننى قد اعتنيت بك فى التعليم الإعدادى ؛ ثم لا تنس أنني قد اعتنيت بك من قبل كل ذلك فى التعليم الابتدائى . وأنت بذلك ترتقى إخباريًا لا أحداثيًا . فقد يكون الحدث بعد ولكن ترتيب الخبر فيه يكون قبل .

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأنعام)

طبعاً ما دام جاء بسيرة موسى فالكتاب هو التوراة وإذا أطلق الكتاب من غير تحديد ؛ فإنّه ينصرف إلى القرآن ، لأنه هو الكتاب الجامع لكل ما فى الكتب ، والمهيمن على كل ما فى الكتب . أما لو قيل مثلاً : أنزلنا على موسى الكتاب ، فيكون الكتاب هو التوراة ، أو أنزلنا على عيسى الكتاب ، فيكون الكتاب هو الإنجيل .

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

والتمام هو استيعاب صفات الخير ، ولذلك يقول الحق :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

و « أكملت » فلا نقصان ، وأتممتها فلا استدراك . ولماذا جاء بالتمام على الذى أحسن فى أمر موسى عليه السلام ؟ . جاء ذلك لأن الذين تصدوا للجاج والجدل معه صلى الله عليه وسلم هم اليهود .

وأنتم تعلمون أنهم صوروا فى مصر هنا فيلماً سينمائيًا اسمه « الوصايا ٱلعشر » عن قصة سيدنا موسى عليه السلام . والوصايا العشر هى التى أقر « كعب الأحبار » أنها موجودة فى التوراة وجاءت فى الآيات السابقة التى تناولناها وشرحناها . فمن المناسب أن يأتى هنا ذكر موسى عليه السلام .

وحينما جاء موسى عليه السلام بالتوراة كما أنزلها الله عليه عاصره أناس آمنوا بما فى التوراة ، وكانوا من الناجين ، وقد ماتوا . أما الذين استمرت حياتهم إلى أن جاء رسول الله ، فكان من المطلوب منهم أن يؤمنوا به ؛ لأن الحق أوضح لهم فى التوراة أن هناك رسولاً قادماً ، ولابد أن تؤمنوا حتى تتم نعمة الإحسان عليكم ، لأنكم وإن كنتم مؤمنين بموسى ، وعاملين بمنهجه فلا بد من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم . والسابقون لكم أحسنوا فى زمن بعثة رسالة موسى عليه السلام ، وجاء محمد بالرسالة الخاتمة فإن أردتم أن يتم الله عليكم الحسن والكرامة والنعمة ، فلا بد أن تعلنوا الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، منكم من أحسن الاقتداء بموسى عليه السلام وآمنوا بمحمد فتم لهم الحسن : ﴿ وتفصيلاً لكل شىء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون ﴾ .

« و تفصيلاً لكل شىء » أى أنّه مناسب لزمنه ، ولله المثل الأعلى ، عندما يكون لك ولد صغير السن فتقول : أنا فصّلت له ملابسه ، أى فصّلت له الملابس التى تناسبه . وحين يكبر لن تظل ملابسه القديمة صالحة لأن يرتديها . « وتفصيلاً لكل شىء » أى القيم التى تناسب الوقت الذى يعيشونه ، فإذا ما جئنا بتفصيل جديد فى القرآن فهو مناسب لوقته ، ولقائل أن يقول : هنا تفصيل ، وهنا تفصيل ، فما الفرق بين تفصيل وتفصيل ؟ . نقول : إن كل تفصيل مناسب لزمنه ، وآيات القرآن مفصلة جاهزة ومعدة لكل زمن وللناس جميعا إلى أن تقوم الساعة .

والآفة ـ دائماً ـ فى القائمين على أمر التشريع ، فحينما تأتيهم حالة لذى جاه وسلطان يحاولون إعداد وتفصيل حكم يناسبه ، فنقول لمثل هذا الرجل : أنت تفصل الحكم برغم أن الأحكام جاهزة ومعدّة وظاهرة ، إننا نجد القوالب البدنية تختلف فيها التفصيلات للملابس بينما القوالب المعنوية نجد فيها التساوى بين الناس كلها ، فالصدق عند الطفل مثل الصدق عند اليافع ، مثل الصدق عند الرجل ، مثل الصدق عند المرأة ، مثل الصدق عند العالم ، مثل الصدق عند التاجر . وليس لكل منهم صدق خاص . وكذلك الأمانة . ورحمنا الإسلام بالقضية العقدية وكذلك بالقضية الحكمية الجاهزة . المناسبة لكل البشر ، وليست هناك آية على مقاس واحد تطبق عليه وحده ، لا ، فالآيات تسع الجميع .

﴿ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأنعام)

والهُدَى هو ما يدل على الغايات ، لأن دين الفطرة قد انطمس بعدم تبليغ الآباء إلى الأولاد منهج السماء فى أمور الحياة ومتعلقاتها والقيم التى يجب أن تسود . والآفة أن الأب يعلم ولده كيف يأكل ويشرب ، وينسى أن يعلمه أمور القيم ، لكن الحق سبحانه وتعالى رحم غفلتنا ، ورحم نسياننا ؛ فشرع وأرسل لكل زمان رسولاً جديداً ، وهدْيا جديداً ليذكرنا .

﴿ لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأنعام)

إن كل آفة تنبع من العزوف عن تشريعات الله ، وهم ينسون أن يضعوا فى أذهانهم لقاء الله ، لكن لو أن لقاء الله متضح فى أذهانهم لاستعدوا لذلك ؛ لأن الغايات هى التى تجعل الإنسان يقبل على الوسائل . والشاعر يقول :

ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى ومن أين والغايات بعد المذاهب

ونقول لهذا الشاعر : قولك : ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى كلام صحيح ، أما قولك : ومن أين والغايات بعد المذاهب ، هذا كلام غير دقيق ، فالغاية هى التى تحدد المذهب ، وكذلك شرع الله الغاية أولاً ، وبعد ذلك جعل لها السبيل . وقد شرع الله لكل شىء ما تقتضيه ظروف البشر الحياتية ، ولذلك لا استدراك عليه لأن فيه تفصيلا لكل شىء .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾

و « هذا » إشارة وعادة ما تأتى وترد على متقدم ، ولكن إذا لم يكن لاسم

الإشارة متقدم أو حاضر يشار إليه فهذا دليل على أنك إن أشرت لا ينصرف إلا إليه لأنه متعين ينصرف إليه الذهن بدون تفكير لوضوحه . وكلمة « كتاب » تدل على أنه بلغ من نفاسته أنه يجب أن يُكتَب ويسجَّل ؛ لأن الإنسان لا يُسجل ولا يكتب إلا الشيء النافع ، إنما اللغو لا يسأل عنه ، وقال ربنا عن القرآن : إنه « كتاب » ، ومرة قال فيه : « قرآن » فهو « قرآن » يتلى من الصدور ، و « كتاب » يحفظ في السطور . ولذلك حينما جاءوا ليجمعوه أتوا بالمسطور ليطابقوه على ما في الصدور .

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ (من الآية ١٥٥ سورة الأنعام)

و « أنزلناه » أي أَمَرْنا بإنزاله ، ونزل به الروح الأمين ، وكلمة مبارك مأخوذة من « البركة » أي أنه يعطي من الخير والثمرة فوق ما يُظَنُّ فيه ، وقد تقول : فلان راتبه مائتا جنيه ، ويربي أولاده جيداً ويشعر بالرضا ، وتجد من يقول لك : هذه هي البركة . كأن الراتب لا يؤدي هذه المسئوليات أبداً . وكلمة « البركة » تدل على أن يد الله ممدودة في الأسباب ، ونعلم أن الناس ينظرون دائماً إلى رزق الإيجاب ، ولا ينظرون إلى الرزق الأوسع من الإيجاب وهو رزق السلب ، فرزق الإيجاب يأتي لك بمائتي جنيه ، ورزق السلب يسلب عنك مصارف لا تعرف قدرها . فنجد من يبلغ مرتبه ألفاً من الجنيهات ، لكن بعض ولده يمرض ، ويحتاج ولد آخر إلى دروس خصوصية فتتبدد الألف جنيه ويحتاج إلى ما فوقها .

إذن فحين يسلب الحق المصارف وإنفاق المال في المعصية أو المرض فهذه هي بركة الرزق ، ونجد الرجل الذي يأتي ماله من حلال ويعرق فيه يوفقه الله إلى شراء كل شيء يحتاج إليه ، ويخلع الله على المال القليل صفة القبول ، ونجد آخر يأتي ماله من حرام فيخلع الله على ماله صفة الغضب فينفقه في المصائب والبلايا ويحتاج إلى ما هو أكثر منه .

وأنت حين تقارن القرآن بالتوراة في الحجم تجده أصغر منها ولكن لو رأيت البركة التي فيه فستجدها بركة لا تنتهي ؛ فكل يوم يعطي القرآن عطاءه الجديد ولا تنقضي عجائبه ، ويقرأه واحد فيفهم منه معنى ، ويقرأه آخر فيفهم منه معنى جديداً . وهذا دليل على أن قائله حكيم ، وضع في الشيء القليل الفائدة الكثيرة ،

وهذا هو معنى ﴿ كتاب أنزلناه مبارك ﴾ ؛ فكل كتاب له زمن محدود وعصر محدود وأمة محدودة ، أما القرآن فهو يواجه من يوم أن أنزله الله إلى أن تقوم الساعة قضايا متجددة يضع لها حلولاً . والمهم أن القرآن قد جاء على ميعاد مع طموح البشريات ، وحضارتها وارتقاءاتها فى العقول ؛ لذلك كان لابد أن يواجه كل هذه المسائل مواجهة تجعل له السبق دائماً ولا يكون ذلك إلا إذا كانت فيه البركة .

وكلنا يعلم أن القرآن قد نزل على رجل أمّى ، وفى أمة أميّة ، ولذلك حكمة بالغة لأن معنى « أمّى » أى أنه لم يأخذ علماً من البشر ، بل هو كما ولدته أمه ، وجاءت ثقافته وعلمه من السماء .

إذن فالأمية فيه شرف وارتقاء بمصادر العلم له . ونزل القرآن فى أمة أمية ؛ لأن هذا الدين وتلك التشريعات ، إنما نزلت فى هذه الأمة المتبديّة المتنقلة من مكان إلى آخر وليس لها قانون بل يتحكم فيها رب القبيلة فقط ، وحين تنزل إليها هذه القيم الروحية والأحكام التشريعية ففى ذلك الدليل على أن الكتاب الذى يحمل هذه القيم والأحكام قادم من السماء . فلو نزل القرآن على أمة متحضرة لقيل نقلة حضارية ، لكنه نزل على أمة لا تملك قوانين مثل التى كانت تُحكم بها الفرس أو الروم .

ومادام الكتاب له هذه الأوصاف التى تريح الخلق من عناء التشريع لأنفسهم ويضم كل الخير ، لذلك يأتى الأمر من الله :

﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأنعام)

وساعة تأتى بـ « لعل » فاعلم أن فيها رجاء ، وقد ترجو أنت من واحد وتقول : لعل فلاناً يعطيك كذا ، والرجاء هنا من واحد ، ومَن يفعل العمل المرجو إنسان آخر ، وقد يفعل الآخر هذا العمل ، وقد يغضب فلا يفعله ؛ لأن الإنسان ابن أغيار ، بل ومن يدرى أنه ساعة يريد أن يفعل فلا يقدر . وإذا قلت : « لعلى أفعل لك كذا » ، وهنا تكون أنت الراجى والمرجوّ فى آن واحد ، ولكنك أيضاً ابن

للأغيار ، فأنت تتوقع قدرتك على الفعل وعند إرادتك الفعل قد لا تتيسر لك مثل هذه القدرة .

ولماذا أنزل الحق هذا الكتاب ؟ . يأتى الحق هنا بالتمييز للأمة التى أراد لها أن ينزل فيها القرآن فيقول :

﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

فالكتاب يصفى العقائد السابقة التى نزلت على الطائفتين من اليهود والنصارى ، وإذا كنتم قد غفلتم عن دراسة التوراة والإنجيل ؛ لأنكم أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة ؛ لذلك أنزلنا إليكم الكتاب الكامل مخافة أن تصطادوا عذراً وتقولوا : إن أميتنا منعتنا من دراسة الكتاب الذى أنزل على طائفتين من قبلنا من اليهود والنصارى . وكأن الله أنزل ذلك الكتاب قطعاً لاعتذارهم .

﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

قد يحتج المشركون من أن التوراة والإنجيل لو نزلت عليهم لكانوا أهدى من

اليهود والنصارى ، وفى هذا القول ما يعنى أن أذهانهم مستعدة لتقبل الإيمان ، وقد قطع الله عليهم كل عذر فجاء لهم بالقرآن ، ويقول الحق :

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾

(من الآية ١٥٧ سورة الأنعام)

و « صدف » من الأفعال التى تُستعمل متعدية وتُستعمل لازمة ، ومعنى « لازمة » أنها تكتفى بالفاعل ولا تتطلب مفعولاً ، فمثلاً إذا قيل لك : جلس فلان . تفهم أن فلاناً قد جلس ويتم لك المعنى ولا تتطلب شيئاً آخر . لكنك إن قيل لك : ضَرَب زيد ، فلابد أنك تنتظر من محدثك أن يبين لك من الذى ضُرب ، أى أنك جئت بفعل يطلب شيئاً بعد الفاعل ليقع عليه الفعل . وهذا اسمه فعل « متعد » أى يتعدى به الفاعل إلى مفعول به .

و « صدف » فيها الخاصتان . وجاء الحق بهذه الصيغة المحتملة لأن تكون لازمة وأن تكون متعدية ليصيب الأسلوب غرضين ؛ الغرض الأول : أن تكون « صدف » بمعنى انصرف وأعرض فكانت لازمة أى ضل فى ذاته ، والأمر الثانى : أن تكون صدف متعدية فهى تدل على أنه يصرف غيره عن الإيمان ، أى يضل غيره ،ويقع عليه الوزر ؛ لضلال نفسه أولاً ثم عليه وزر من أضل ثانياً ، ولذلك جاء سبحانه باللفظ الذى يصلح للاثنتين « صدف عنها » أى انصرف ، ضلالاً لنفسه ، وصدف غيره أى جعل غيره يصدف ويعرض فأضل غيره ، وبذلك يعذبه الله عذابين ، فيقول سبحانه :

﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة الأنعام)

فكأن المسألة يرتكبها : الذين صدفوا أنفسهم ، وصرفوها عن الإيمان ، ويصدفون كل من يحاول أن يؤمن . وهؤلاء هم القوم الذين أعرضوا وانصرفوا عن منهج الهدى ، أو تغالوا فى ذلك فصرفوا غيرهم عن منهج الهدى ، ولو أنهم استقرأوا الوجود الذى يعايشونه لوجدوا الموت يختطف كل يوم قوماً على غير طريقة رتيبة ، فلا السن يحكم ويحدد وقت وزمن انقضاء الأجل ، ولا الأسباب تحكمه ،

ولا المرض أو العافية تحكمه ، فالموت أمر شائع فى الوجود . ومعنى ذلك أن على كل إنسان أن يترقب نهايته ، فكأنه يتساءل : لماذا إذن يصدفون ؟ . وماذا ينتظرون من الكون ؟ . أرأوا خلوداً فى الكون لموجود معهم ؟ .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

فهل ينتظرون من عطاءات الوجود المحيط بهم إلا أن تأتيهم الملائكة التى تقبض الروح ؟ والملائكة تأتى هنا مجملة . وفى آيات أخرى يقول :

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة النحل)

ولن يتأبى أحد على الملائكة ؛ لذلك يلقون لهم السلم وتنتهى المسألة . ويتابع سبحانه :

﴿ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

ووقف العلماء عند هذا القول الكريم لأنهم أرادوا أن يفسروا الإتيان من الرب على ضوء الإتيان منا ، والإتيان منا يقتضى انخلاعاً من مكان كان الإنسان فيه إلى مكان يكون فيه ، وهذا الأمر لا يصلح مع الله . ونقول : أفسرت كل مجىء على

ضوء المجىء بالنسبة لك ؟ بالله قل لى : ما رأيك فى قوله تعالى :

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٩ سورة ق)

كيف جاءت سكرة الموت وهى المخلوقة لله ؟ إننا لا نعرف كيف يجىء الموت وهو مخلوق ؟ فكيف تريدون أن نعرف كيف يجئ الله ؟ . عليكم أن تفسروا كل شىء بالنسبة لله بما يليق بذات الله فى إطار « ليس كمثله شىء » ولنتأدب ونعط العقول مقدارها من الفهم ، ولنجعل كل شىء منسوبا لله بما يناسب ذات الله ؛ لأن المجىء يختلف بأقدار الجائين ، فمجىء الطفل غير مجىء الشاب ، غير مجىء الرجل العجوز ، غير مجىء الفارس ، فما بالنا بمجىء الله سبحانه ؟!! إياك - إذن - أن تفهم المجىء على ضوء مجىء البشر . وأكررها دائماً : عليك أن تأخذ كل شىء بالنسبة له سبحانه لا بقانونك أنت ، ولكن بقانون الذات الأعلى ، واجعل كل ما يخصه فى إطار « ليس كمثله شىء » ، ولذلك قل : له سمْع ليس كسمعنا ، وبصر ليس كبصرنا ، ويد ليست كأيدينا ، فى إطار « ليس كمثله شىء » . وإياكم أن تسمعوا مناقشة فى قوله : « يأتى ربك » . وقل إن إتيان الله ومجيئه ليس كفعل البشر ، بل سبحانه « ليس كمثله شىء » ﴿ أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك ﴾ .

و « بعض آيات ربك » ، هى العلامات ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « بَادِرُوا بالأعمال سِتًّا : طلوعَ الشمس من مغربها ، والدُّخَان ، ودابَّةَ الأرض ، والدَّجَّالَ ، وخُوَيْصَةَ أَحدِكُمْ وأمْرَ العامّة »[1] .

و « خُوَيْصَةُ أحدكم » تصغير : خاصة ، والمراد حادثة الموت التى تخص الإنسان ، وصغّرت لاستصغارها فى جنب سائر العظائم من بعث وحساب وغيرهما وقيل : هى ما يخص الإنسان من الشواغل المقلقة من نفسه وماله وما يهتم به .

و « أمر العامّة » : أى القيامة ؛ لأنها تعم الخلائق ، أو الفتنة التى تعمى

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبى هريرة .

وتصم ، أو الأمر الذى يستبد به العوام ويكون من قبلهم دون الخواص .

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

لأن الإيمان لا يكون إلا بأمر غيبى ؛ فكل أمر مشهدى مدرك بالحواس لا يسمى إيماناً ؛ فأنت لا تقول : أنا أؤمن بأنى أقرأ الآن فى كتاب خواطر الشيخ الشعراوى حول آيات القرآن الكريم ؛ لأنك بالفعل تقرأ هذه الخواطر الآن . وأنت لا تقول : أنا أؤمن بأن النور يضىء الحجرة ؛ لأن هذا أمر مشهدى ، وليس أمراً غيبيًّا . والإيمان يكون دائماً بأمر غيبى ، ولكن إذا جاءت الآيات فإننا ننتقل من الإيمان بالأمر الغيبى إلى الإيمان بالأمر الحسى ، وحينئذ لا ينفع الإيمان من الكافر ، ولا تقبل الطاعة من صدقة أو غيرها من أنواع البر والخير بعد أن تبلغ الروح الحلقوم وتقول : لفلان كذا ولفلان كذا ، وقد كان لفلان . هذا لا ينفع ؛ لأن المال لم يعد مَالَك ، بل صار مال الورثة ، كذلك الذى لم يؤمن وبعد ذلك رأى الآيات الستة التى قال الشارع عنها : إنها ستحدث بين يدى الساعة أو قبل مجىء الساعة . وساعة ترى هذه الآيات لن يُقبل منك أن تقول : آمنت ؛ لأن الإيمان إنما يكون بالأمر الغيبى ، وظهور الآيات هو أمر مشهدى فلن يُقبل بعده إعلان الإيمان . والحق هو القائل :

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

أى أن الإيمان يجب أن يكون سابقاً لظهور هذه الآيات ، وألا يكون المانع له من العمل القصور ، كأن يكون الإنسان ـ والعياذ بالله ـ مجنوناً ولم يفق إلا بعد مجىء العلامة ، أو لم يَبْلُغ إلا بعد وجود العلامة فهذا هو من ينفعه الإيمان .

وقد عرض الحق لنا من هذه الصور ما حدث فى التاريخ السابق ، فهو القائل :

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

(سورة يونس)

وماذا كان رد الله عليه ؟ لقد قال سبحانه :

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾

(من الآية ٩١ سورة يونس)

إذن إذا بلغت الروح الحلقوم ، وهذه مقدمات الموت فلا ينفع حينئذ إعلانك الإيمان .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

هم منتظرون الخيبة ونحن منتظرون الفلاح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

هذه الآية تشرح الآية التى سبقت خواطرنا عنها ، وهى قوله الحق :

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ

﴿ وَصَّـٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

والذين فرقوا دينهم نسوا أن الدين إنما جاء ليجمع لا ليفرق ، والدين جاء ليوحد مصدر الأمر والنهى فى الأفعال الأساسية فلا يحدث بيننا وبين بعضنا أى خلاف ، بل الخلاف يكون فى المباحات فقط ؛ إن فعلتها فأهلاً وسهلاً ، وإن لم تفعلها فأهلاً وسهلاً ، وما لم يرد فيه افعل ولا تفعل ؛ فهو مباح .

إذن الذين يفرقون فى الدين إنما يناقضون منهج السماء الذى جاء ليجمع الناس على شىء واحد ؛ لتتساند حركات الحياة فى الناس ولا تتعاند ، وإذا كان لك هوى ، وهذا له هوى ، وذلك له هوى فسوف تتعاند الطاقات ، والمطلوب والمفروض أن الطاقات تتساند وتتعاضد .

والشيع هم الجماعة التى تتبع أمراً ، هذا الأمر يجمعهم ولو كان ضلالا . وهناك تشيع لمعنى نافع وخير ، وهناك تشيع لعكس ذلك ، والتشيع على إطلاقه هو أن تجتمع جماعة على أمر ، سواء أكان هذا الأمر خيراً أم شرًّا .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة الأنعام)

إذن هم بعيدون عن منهجك يا محمد ، ولا يصح أن ينسبوا إلى دينك ؛ لأن الإسلام جاء لإثبات القيم للوجود مثل الماء لإثبات حياة الوجود . ونعرف أن الماء لا يأخذ لوناً ولا طعماً ولا رائحة ، فإن أخذ لوناً أو طعماً أو رائحة فهو يفقد قيمته كماء صاف . وكذلك الإسلام إن أخذ لوناً ، وصار المسلمون طوائف ؛ فهذا أمر يضر الدين ، وعلينا أن نعلم أن الإسلام لون واحد .

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة الأنعام)

إن شاء سبحانه عاجلهم بالهزيمة أو بالعذاب ، وإن شاء آجلهم إلى يوم القيامة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

هناك « حسن » ، و« حسنة » ولا تقل : إن حسنة هى مؤنث حسن ، لأن فيها تاء . كأنها تاء التأنيث ، ولكن اسمها « تاء المبالغة » تأتى على اللفظ الذى للذكر ، مثلما تقول : « فلان علاّمة » ، و« فلان راوية للشعر » وفلان نسَّابة . هذه هى تاء المبالغة .

و الحسنة هى الخير الذى يورث ثواباً ، وكلما كان الثواب أخلد وأعمق كانت الحسنة كذلك . وإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ .

فـ « أمثالها » جمع « مثل » ، والمثل مذكر ، والقاعدة تقول : حين يكون المعدود مذكراً نأتى له بالتاء ، وحين يكون مؤنثاً نحذف التاء لأن أصل الأعداد مبنى على التاء ، لأنك عندما تعد تقول واحد ، اثنان ثلاثة إلى عشرة فأصل الأعداد مبنى على التاء ، وإذا استعملته مع المؤنث تخالف بحذف التاء فيه ، وإن استعملت العدد مع الأصل وهو المذكر ، تستعمله على طبيعته فتقول : « ثلاثة رجال » . وإذا أردت أن تتكلم عن الأنثى ، تقول : « ثلاث نسوة » ، والحق هنا يقول : ﴿ فله عشر أمثالها ﴾ ، و« مثل » ـ كما قلنا ـ مذكر . والحق لم يجعل الأصل فى العطاء هو « المثل » ، بل جعل الأصل هو الحسنة :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

وهذا هو مطلق الرحمة والفضل . ولذلك ورد الحديث القدسى .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى - « إن ربكم عز وجل رحيم . من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله عز وجل ولا يهلك على الله إلا هالك »[1] .

ونعرف أن الحق يجزى الحسنة بعشر أمثالها ويضاعف ذلك إلى سبعمائة ضعف ، لأن كل فعل تلازمه طاقة من الإخلاص فى نفاذه ، فكأن الحق قد وضع نظاماً بأن الحسنة بعشر أمثالها ، ثم بالنية المخلصة تبلغ الأضعاف إلى ما شاء الله . وقد وضع الحق هذا النظام ؛ لأنه جل وعلا يريد للحسنة أن تُفعل ، وينتفع الغير بها ، فإن كان فاعلها حريصاً على الأجر الزائد فهو يقدمها بنية مخلصة ، ويقول الحق لنا :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الحديد)

ويقول أيضاً :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

ويحدد هنا جزاء الحسنة بأن ثوابها عشر أمثالها ، ونية معطى الحسنة هى التى يمكنها أن تضاعفها إلى سبعمائة أو أزيد . والحق سبحانه وتعالى يعطى مثلاً لذلك فى قوله تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى .

وإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعطيها أنت حبة فتعطيك سبعمائة فماذا يعطى خالق الأرض ؟ إن عطاءه غير محدود ولا ينفد ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

مادام لا يجزى إلا مثلها فهم لا يظلمون أبداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾

و « ديناً قيماً » أى تقوم عليه مسائل الحياة ، وهو قائم بها ، و « قيماً » مأخوذة من « القيمة » أو من « القيام » على الأمر ، وقام على الأمر أى باشره مباشرة من يصلحه ، كذلك جاء الدين ليصلح للناس حركة حياتهم بأن أعطاهم القيم ، وهو قائم عليهم أيضاً : ﴿ ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ .

وفى كل أمر مهم له خطره ومنزلته يأتى لنا الحق بلمحة من سيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، لأنه صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه فيه القدر المشترك الذى يجمع كفار مكة ، وأهل الكتاب الذين يتمحكون فيه . فقالت اليهود : إبراهيم كان يهوديًا ، وقالت النصارى : إن إبراهيم كان نصرانيًا ، وربنا يقول لهم ولنا :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة آل عمران)

واليهودية والنصرانية جاءتا من بعده . أما بالنسبة للجماعة الأخرى ففى بيئتهم ، وكل حركات حياتهم ، وتجارتهم ونفعهم من آثار إبراهيم عليه السلام ما هو ظاهر وواضح . يقول الحق :

﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

فسيدنا إبراهيم هو الذى رفع القواعد من البيت الحرام ، وهو الذى عمل لهم مهابة جعلت تجارتهم تذهب إلى الشمال وإلى الجنوب ولا يتعرض لها أحد ، وجاءت لهم بالرزق الوفير . وحين يقول الحق :

﴿ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأنعام)

المقصود هو الدين الذى تعيشون فى كنف خيرات آثاره ، و « الحنف » هو اعوجاج فى القدم . وبطبيعة الحال لم يكن دين إبراهيم مائلاً عن الحق والصواب بل هو مائل عن الانحراف دائم الاستقامة . ونعرف أن الرسل إنما يجيئون عند طغيان الانحراف ، فإذا جاء إبراهيم مائلاً عن المنحرف ؛ فهو معتدل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ ﴾

و « صلاتى » مقصود بها العبادة والركن الثانى فى الإسلام الذى يتكرر كل يوم خمس مرات ، وهى الركن الذى لا يسقط أبداً ؛ لأن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ـ كما قلنا سابقاً ـ يكفى أن تقولها مرة فى العمر ، وقد يسقط عنك الصوم إن كنت لا تستطيع ، وقد لا تزكى لأنه ليس لك مال ، وقد لا تستطيع

الحج ، وتبقى الصلاة التى لا تسقط أبداً عن العبد . وهى - كما نعلم - قد أخذت من التكليف حظها من الركنية .

إن كل تكليف من التكاليف جاء بواسطة الوحى إلا الصلاة فإنها جاءت بالمباشرة ، تلقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه دون واسطة . وحين يقول الحق : « إن صلاتى » ، فهو يذكر لنا عمدة الأركان والتى اشتملت على كل الأركان كما أوضحنا سابقاً . حتى إن الإنسان إذا كان راقداً فى مرض ولا يستطيع القيام فعليه أن يحرك رأسه بالصلاة أو يخطر أعمال الصلاة على قلبه . ويقول الحق : ﴿ ونسكى ﴾ . و « النسك » يطلق ويراد به كل عبادة ، والحق يقول :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الحج)

« النسك » إذن هو عبادة ويطلق بالأخص على أفعال كثيرة فى الحج ، مثل نسك الطواف ونسك السعى ، ونسك الوقوف بعرفة ، ونسك الرمى ، ونسك الجمار ، وكل هذه اسمها مناسك ، والأصل فيها أنها مأخوذة من مادة « النسيكة » وهى السبيكة من الفضة التى تصهر صهراً يُخرج منها كل المعادن المختلطة بها حتى تصير غاية فى النقاء . فسميت العبادة نسكاً لهذا ، أى يجب أن تصفى العبادة لله كما تصفى سبيكة الفضة من كل المعادن التى تخالطها : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى ﴾ .

وهنا أمران اختياريان ، وأمران لا اختيار للإنسان فيهما ، الصلاة والمناسك كلاهما داخل فى قانون الاختيار ، لكن المحيا والممات لا يدخل أى منهما فى قانون الاختيار ؛ إنهما فى يد الله ، والصلاة والنسك أيضاً لله ، ولكن باختيارك ، وأنت لا تصلى إلا لأنك آمنت بالآمر بالصلاة ، أو أن الجوارح ما فعلت كذا إلا لله . إذن فأنت لم تفعل شيئاً من عندك أنت ، بل وجهت الطاقات المخلوقة لله لتأدية المنهج الذى أنزله الله . إذن إن أردت نسبة كل فعل فانسبه إلى الله .

ولماذا جاء بالصلاة والنسك وكلاهما أمر اختيارى ؟ ؛ لأنه إن كان فى ظاهر الأمر لكم اختيار ، فكل هذا الاختيار نابع من إيجاد الله لكم مختارين . وهو الذى وضع

المنهج فجعلكم تصلون ، أو : إن صلاتى لله ونسكى لله ، أى أن تخلص فيها ، ولا تشرك فيها ، ولا تصلى مرائياً ، ولا تصنع نسكاً مرائياً ، ولا تذهب إلى الحج من أجل أن يقولوا لك « الحاج فلان » أبدا ، بل اجعلها كلها لله ؛ لأنك إن جعلتها لغيره فليس لغيره من القدرة على الجزاء ما يجازيك الله به ، إن جعلتها لغيره فقد اخترت الخيبة فى الصفقة ؛ لذلك اجعل الصلاة والنسك للذى يعطيك الأجر .

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

والحياة هبة الله ، وإياك أن تصرف قدرة الحياة ومظاهر الحياة فى غير مايرضى الله . فينبغى أن تكون حياتك لله لا لشهوتك ، ومماتك لله لا لورثتك ، وتذكر ذلك جيداً لأن الحق يقول بعد ذلك :

﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

وهذا القول يدل على أن بعض الخلق قد يجعل لله شريكاً فى العبادة فيجعل صلاته ظاهرية رياءً ، ومناسكه ظاهرية رياءً ، وحياته يجعلها لغير واهب الحياة . ويعمل حركاته كلها لغير واهب الحياة ، ويجعل مماته للورثة وللذرية ؛ لذلك عليك أن تتذكر أن الله لا شريك له .

﴿ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأنعام)

وهذا أمر من الله لرسوله ، وكل أمر للرسول هو أمر لكل مؤمن برسالته صلى الله عليه وسلم ، والأوامر التى صدرت عن الرب هى لصالحك أنت . فسبحانه أهل لأن يُحب ، وكل عبادة له فيها الخير والنفع لنا ، وأنا لا أدعيه لنفسى بل هو عطاء من ربكم وربى الذى أمر . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حينما رأى أن رسوله صلى الله عليه وسلم مشغول بأمر أمته أبلغنا :

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة التوبة)

وفى كل شىء كان صلى الله عليه وسلم يقول : أمّتى أمتى أمتى ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يطمئن رسوله على محبوبية أمته فقال له : « إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك »[١] .

والحديث بتمامه كالآتى :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم : ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى ﴾ الآية .

وقال عيسى عليه السلام : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

فرفع يديه وقال : « اللهم أمتى أمتى » وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسلْه ما يُبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فسأله وأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال عز وجل : « يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنُرضيك فى أمتك ولا نسوؤك »[٢] .

ونزل قوله الحق :

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾

(سورة الضحى)

روى عن على رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « إذن لا أرضى وواحد من أمتى فى النار »[٣] .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم فى كتاب الإيمان .

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ .

وحين يقول صلى الله عليه وسلم : وأنا أول المسلمين فى أمته فهذا قول صحيح صادق لأنه قبل أن يأمر غيره بالإسلام آمن هو بالإسلام ، وكل رسول أول المسلمين فى أمته . لكنْ هناك أناس يقولون : لنأخذ العبارة هكذا ، ونقول : إن الرسول صلى الله عليه وسلم له منزلة بين رسل الله أجمعين تتجلّى فى أنه أُخِذ العهد على غيره له ، ولم يؤخذ العهد عليه لأحد . فإذا كان أول المسلمين فى أمته ، فهو أول المسلمين بين الرسل أيضاً ، وإن لم تأخذها حدثاً خذها للمكانة . وأضرب هذا المثل : هب أن كلية الحقوق أنشئت مثلاً سنة كذا وعشرين ، ولكل سنة كان لها أول من التلاميذ ثم جاء واحد وحصل على ١٠٠٪ هذا العام فنقول عنه : إنه الأول على كلية الحقوق من يوم أن أنشئت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

معنى الرب أنّه هو الذى تولى التربية ، وله السيادة ، وكل شىء فى الوجود مربوب لله ، فكيف أخذ شيئاً من الأشياء التى هو ربها وخالقها ليكون شريكاً له ؟!! إن ذلك لا يصح أبداً . ﴿ قل أغير الله أبغى ربًّا ﴾ .

وهذا إنكار يأتى فى صورة استفهام من كل سامع . وكأن الحق يقول لكل منا : أعرضْ هذا على ذهنك عرضاً غير متحيّز ، وأنا سأئتمنك على الجواب . ولا يقال

ذلك إلا وقد تأكد أن الجواب يكون : لا ، فلو كان الجواب يحتمل هذه أو تلك لما آمنك على الجواب . وكأنه يقول : إن أى عاقل يجيب على هذا السؤال سيوافقنى فى أنه لا ينبغى أن يتخذ غير الله ربًّا .

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

و «أبغى» أى أطلب ، و «تكسب» مأخوذة من مادة «كسب» ، و «اكتسب» ، و «كسب» دائماً تأتى فى الخير - كما علمنا من قبل - ، و «اكتسب» تأتى فى الشر . لكنْ هناك أناس يعتادون على فعل السيئات ولم تعد تكلفهم شيئاً ، فكأنها لسهولة ذلك عليهم تعتبر كسباً . ومن الحمق أن تقول هذا كسب ، وهو عليك وليس لك ؛ لأنك حين تنظر إلى التسمية نفسها تفهم أنها ليست رصيداً لك بل عليك .

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

والوزر هو الحمل الشاق ، وإن اشتق منه شىء فإن المشقة والصعوبة تلازمه ؛ ككلمة «وزير» ، والحق هو القائل :

﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَـٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١﴾

(سورة طه)

كأن موسى عليه السلام عرف أن حمل الرسالة إلى اليهود عملية شاقة فقال لله : أعطنى أخى يساعدنى فى هذه المشقة .

والحق هو القائل :

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾

(سورة الشرح)

وكان النبى عليه الصلاة والسلام فى أول استقباله للوحى قد عانى من وقع هذه

العملية وكان أمرها شاقاً عليه ؛ لأن المسألة تقتضى التقاءات مَلَكية ببشرية ، ولابد أن يحدث تفاعل ، وهذا التفاعل الذى كانَ يظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحمر وجهه ، ويتصبب منه العرق ، وبعد ذلك يقول : زملونى زملونى ودثرونى ، وإن كان قاعداً وركبته على ركبة أحد بجانبه فيشعر جاره بالثقل ، وإن كان على دابة تئط وتئن تعباً ، لأن التقاء الوحى برسول الله صلى الله عليه وسلم يحتاج إلى أمرين : إما أن يتحول الوحى وهو حامل الرسالة إلى بشرية مماثلة لبشرية الرسول ، وإما أن الرسول ينتقل إلى ملائكية تتناسب مع استقباله للملك . وهكذا كان التقاؤه بالملكية يتطلب انفعالاً وتفاعلاً .

لكن لما أنس صلى الله عليه وسلم بالوحى عرف حلاوة استقباله نسى المتاعب ، ولذلك عندما فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتاق إليه . وكان الوحى من قبل ذلك يتعبه ، ويجهده ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبقى فى نفسه حلاوة ما أوحى به إليه ، وتهدأ نفسه وترتاح ويشتاق إلى الوحى ، فإذا ما استقبل الوحى بشوق فلن يتذكر المتاعب .

﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

إذن مادة الوزر هى الثقل بمشقة ، أى لا يحمل إنسان مشقة ثقيلة عن آخر ؛ فالمسئولية لا تتعدى إلا إذا تعدى الفعل ، وعرفنا من قبل الفارق بين من ضل فى ذاته ، ومن أضل غيره ليحمل أوزاره مع أوزارهم لتعديه بإضلالهم . وسنعود جميعاً إلى ربنا لينبئنا بما كنا فيه نختلف .

ويقول جل وعلا بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰئِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ

بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

وهناك قول كريم فى آية أخرى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة فاطر)

وهنا يقول الحق : ﴿ خلائف الأرض ﴾ .

ومعنى « خليفة » أى الذى يخلف غيره ؛ فإما أن يخلفه زماناً ، وإما أن يخلفه مكاناً . وخلفة الزمان أن يأتى عصره بعد عصره ، ويومه بعد يومه ، وخلفة المكان أى أن يكون جالساً ثم يرحل ليأتى آخر ليستقر مكانه ، وانظر إلى كل قواعد الحياة بالنسبة للإنسان تجده فى شبابه قويًا ، ثم يرحل عنه الشباب ليأخذه آخره ، ويذهب إلى الشيخوخة . وكذلك نجد إنساناً يملك مكاناً ثم يتركه ويأتى واحد آخر يملكه . أو أن الحق سبحانه وتعالى أراد من الخلافة ، لا خلافة بعضنا لبعض ولكن خلافة الإنسان لرب الإنسان فى الأرض ؛ لأن كل شىء منفعل لله قهراً ، والحق سبحانه وتعالى منح بسعة عطائه ؛ فجعل بعض الأشياء تنفعل لبعضها هبة منه سبحانه ، فإذا أوقدت النار ـ على سبيل المثال ـ تنفعل لك ، وإذا حرثت فى الأرض ووضعت فيها البذور تنفعل لك ، وإذا شربت ترتوى ، وإذا أكلت تشبع . من أين أخذت كل ذلك ؟ .

إنك قد أخذته من أن الحق الذى سخّر لك ما فى الكون ، وجعل أسباباً ومسببات ، فكأنك أنت خليفة إرادات ؛ لكى يثبت لنا سبحانه أنه يفعل ما يريد ، فعلينا أن نأخذ هذه القضية قضية مسلمة ، وإن أردت أن تختبر ذلك فانظر إلى أى إنسان ولو كان كافراً ويريد أن يقوم من مكانه ، وتنفعل له جوارحه فيقوم ، فأى جارحة أمرها أن تفعل ذلك ؟ . إنه لا يعرف إلا أنه بمجرد أنه أراد أن يقوم قد قام . وحتى لا تفهم أنك أخذت كل ذلك بشطارتك فهو يجعل بعضاً من الأمور

مشاعاً عالميًا ، مثل الموت والحياة إنهما أمران ، لا يختلف فيهما الإنجليزى عن الفرنسى ، عن العربى ، وكذلك الضحك والبكاء ، وهل هناك فرق بين ضحكة إنجليزية ، أو ضحكة شيوعية أو ضحكة رأسمالية ؟ . طبعاً لا ، فكلها ضحك وهو لغة عالمية ، ولذلك قال :

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة النجم)

وسبحانه جاء بأمر مشترك موجود فى الناس كلها ، فأنت تتكلم وتعمل على الصورة والكيفيّة التى تريدها ، لكنك ساعة تضحك فهو سبحانه الذى يضحكك . وأنت حين تودّ مجاملة أحد وتضحك له فتفاجأ بأن ضحكتك صناعية .

والحق يوضح لك : إن زمام كونى فى يدى ،أجعل القوم مختارين فى أشياء ، وأجعلهم مرغمين ومتحدين على رغم أنوفهم فى أشياء ؛ فأنا الذى أضحك وأبكى . ولا يوجد بكاء إنجليزى أو بكاء فرنساوى أو بكاء ألمانى ، وكل البشر شركاء فى مثل هذه الأمور .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

إن إرادتك على أبعاضك ،وعلى جوارحك ـ أيها الإنسان ـ موهوبة لك من الواهب الأعلى والمريد الأعلى ، وسبحانه يسلب ذلك من بعض الأفراد ، فيأمر المخ : إياك أن ترسل إشارة لتلك الجارحة لتنفعل . فيصاب هذا الإنسان بالشلل . ولو كان الأمر شطارة من الإنسان لقاوم ذلك .

أنتم ـ إذن ـ خلائف الأرض ؛ تنفعل لكم الأشياء بقدر ما أراد الله أن تنفعل لكم ، فإذا سلب انفعالها عنكم فلكى يثبت أنكم لم تسخروها بقدراتكم ، بل به هو ، إن شاء أطلق الخلافة ، وإن شاء قيد الخلافة . ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ .

كأن من الخلافة أننا لا نكون متماثلين متطابقين ، بل أراد سبحانه أن نكون

متكاملين فى المواهب ، وفى الكماليات ؛ لأن الناس لو كانوا صورة مكررة فى المواهب ، لفسدت الحياة ، فلابد أن تختلف مواهبنا ، لأن مطلوبات الحياة متعددة ، فلو أصبحنا كلنا أطباء فالأمر لا يصلح ، ولو كنا كلنا قضاة لفسد الأمر ، وكذلك لو كنا كلنا مهندسين أو فلاحين . إذن فلا بد من أن تتحقق إرادة الله فى قوله سبحانه :

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

أى أن البعض قد رُفِعَ ، والبعض الآخر رُفِعَ عليه ، فمن هو البعض المرفوع ؟ ومن هو البعض المرفوع عليه ؟ . إن كل واحد فيكم مرفوع فى جهة مواهبه ، ومرفوع عليه فيما لا مواهب له فيه ؛ لأن الحق يريد أن يتكاتف المخلوقون ، ولا ينشأ التكاتف تفضلاً ، وإنما ينشأ لحاجة ، فلابد أن تكون إدارة المصالح فى الكون اضطراراً ، وهذه هى هندسة المكون الأعلى سبحانه التى تتجلى فى أنك وضعت خريطة لمن دخلوا معك فى مرحلة التعليم الابتدائى . ومن ترك منهم الدراسة ومن استمر ليدخل الدراسة الإعدادية . إنك تجدهم أقل عدداً ، ومن درس فى المرحلة الثانوية أقل ، ومن تعلم التعليم العالى أقل ، ومن نال الدكتوراه أقل .

وهكذا نجد أن البعض يتساقط من التعليم لأن هناك أكثر من مهمة فى الكون لا تحتاج إلا إلى حامل الابتدائية فقط ، أو حامل الإعدادية فقط ، أو إلى حامل شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، ولو ظل كل واحد منهم فى التعليم العالى ، فلن نجد لتلك المهام أحداً . لذلك جعل الله التكاتف فى الكون احتياجاً لا تفضلاً .

والحظوا جيداً : أن الإنسان إذا عضّه جوع بطنه أو جوع عياله فهو يقبل أى عمل ، وإن رضى بقدر الله فيما وضعه فيه ، ولم يحقد على سواه فسيتقن هذا العمل ، وسيتفوق فيه وسيرزقه الله الرزق الحلال الطيب . ولذلك قال الإمام على : قيمة كل امرئ ما يحسنه ، فإن أحسن الإنسان عمله ، فهو إنسان ناجح فى الوجود .

وهكذا أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يجعلنا أشخاصاً مكررين ، ولكن جعلنا متفاضلين متفاوتين ، فرفع بعضاً على بعض ، وكل منا مرفوع فيما يجيد ، ومرفوع عليه فيما لا يجيد ؛ حتى يحتاج الإنسان منا إلى غيره ليؤدى له العمل الذى لا يجيده ، وبذلك يرتبط العالم ارتباط مصلحة وحاجة لا ارتباط تفضل .

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

كأن هذا الرفع هو اختبار للبشر فيما أعطاهم الله من المواهب . ليعلم علم الإلزام للعبد ؛ فسبحانه يعلم أزلاً كل ما يصدر عن العبد ، ولكنه يترك للعبد فرصة أن يؤدى العمل ليكون ملتزماً بما فعل . وتكون حجة على العبد . وحينما يقول الحق : ﴿ ليبلوكم ﴾ فالمقصود ليختبركم اختبار إقرار على نفوسكم ، لا إخباراً له .

﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

وسبحانه « سريع العقاب » ، وإياك أن تستبطئ الآخرة ؛ فالثواب والعقاب سيأتى بعد أن ننتهى ونموت . وليس للموت سبب ؛ فكل إنسان عرضة لأن يموت ، وبذلك تكون قيامته قد قامت ، وإن قامت قيامة الإنسان فلن يقوم بأى عمل آخر . إذن فسبحانه سريع العقاب . ولكن البعض من القوم يغريهم حلم الله ويستبطئون الآخرة ، ولذلك يقول أحد العارفين : اجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

إذن فكل صفة من صفات الحق يتجلى ويظهر أثرها فى المخلوق هبة من الله له ، فأنت إذا أردت أن تقف ، مثلاً ، لا تعرف ما هى العضلات التى تحركها لتقف ، ولكنك بمجرد إرادتك أن تقف تقف ، وذلك مظهر لإرادة الله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

ومادمنا خلائف فلابد أن نتكامل ولا نتكرر ، بمعنى أن كل واحد فيه موهبة تنقص من الآخر ، وفى الآخر موهبة تنقص فى غيره ، ليضطر كل مخلوق فى الأرض أن يتعاون مع الآخر ، ليأخذ ثمرة مواهب غيره ، ويعطى هو ثمرة مواهبه . ولا يريد الحق منا أن نعطى ثمرات المواهب تفضلاً ، وإنما يريد أن يجعلها حاجة . فأنت تحتاج إلى موهبة من لا موهبة لك فيه ، إنك تحتاج إلى الغير ، وهو كذلك أيضاً يحتاج إلى عملك .

راجع أصله وخرج حديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وحين يستخلفنا الله تبارك وتعالى بهذه الصورة فبعضنا فى ظاهر الأمر يكون أعلى من بعض ، لذلك يوضح سبحانه : أنا فضلت بعضكم على بعض ، لكنى لم أفضل طائفة لأجعل طائفة مفضولاً عليها ، ولكن كلٌ مفضل فى شىء لأن له فيه مواهب ، ويكون مفضلا عليه فى شىء آخر لا مواهب له فيه ، وهكذا يتساوى الناس جميعا .

إننا جميعاً عيال الله ، وليس أحد منا أولى بالله من أحد ؛ لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ؛ ولذلك إن حاولنا إحصاء المواهب فى البشر وتوزيعها على الخلق جميعاً لوجدنا أن مجموع كل إنسان يساوى مجموع كل إنسان آخر ، ولكن أنت تأخذ فى موهبة ما تفوقاً ، وفى الموهبة الأخرى لا تجد نفسك قادراً عليها ، وفى موهبة ثالثة قد تقدر عليها لكنك لا تحبها ، واجمع الدرجات كلها فى جميع المواهب ستجد أن كل إنسان يساوى الآخر ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

إذن فكل واحد منا يقدر أن يقول : أنامرفوع ، ولكن عليه ألّا يغتر ؛ لأنه مرفوع عليه أيضاً . والتوازن يأتى من هذه الناحية ، فلا غرور برفعتك فى درجة ، ولا مذلة بانخفاضك فى درجة ؛ لأن هذا مراد الله وذلك مراد له - سبحانه - والذى يحترم قدر الله فى توزيع مواهبه على الخلق يعطيه الله خير موهبته ، فلا يتميز ذو موهبة أخرى عليه أبداً .

ولكن أينجح الناس جميعاً فى هذا ؟ . لا ، فهناك أناس يتساقطون ، وهناك من يرى واحداً أغنى منه وهو فقير ، فيبدأ فى الغل والحقد والحسد ، ونقول له : انظر إلى قوتك فقد تكون أقوى منه ، وقد تكون أسعد منه فى أمور كثيرة . خذ الموهبة التى أعطاها الله لك ، والموهبة التى أعطاها لغيرك وستجد مجموع كل إنسان يساوى مجموع كل إنسان ، فالذى ينجح فى هذه المعادلات التفاضلية يكون له من الله ثواب . فيتجاوز له سبحانه عن بعض سيئاته ، ويغفر له . والذى لا يحترم قدر الله فى خلق الله يعاقبه الله ؛ لذلك أوضح سبحانه : أنا أبلوكم وأختبركم ، فمن ينجح

فله غفران ورحمة ، ومن لا ينجح فله عقاب ، ولا تظنوا أن عقابى بعيد ؛ لأن ما بين الإنسان والعقاب أن يموت ، وليس هناك سبب معروف للموت ؛ فمن الممكن أن يموت الإنسان لوقته ، فيبدأ عقابه .

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

وبذلك ختمت سورة الأنعام ،التى استهلها الله بقوله سبحانه : ﴿ الحمد لله ﴾ .

وختمها بقوله : ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ .

فالحمد لله فى الأولى .

والحمد لله فى الآخرة .




سورة الأعراف (٧)
مكية



قبل أن نبدأ خواطرنا فى سورة الأعراف لابد أن نلاحظ ملاحظة دقيقة فى كتاب الله ، الله يقول :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

ونقرأ الكلمة الأخيرة فى سورة الأنعام « رحيمٌ » ، ونجدها مبنية على الوصل ؛ لأن آيات القرآن كلها موصولة ، وإن كانت توجد فواصل آيات ، إلا أنها مبنية على الوصل ، ولذلك تجد ﴿ غفور رحيم ﴾ وعليها الضمة وبجوارها ميم صغيرة ؛ لأن التنوين إذا جاء بعده باء ، يقلب التنوين ميماً ، فالميم الصغيرة موجودة على رحيم ، قبل أن تقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، وتصبح القراءة :

« غفور رحيم » « بسم الله » .

وكل آيات القرآن تجدها مبنية على الوصل ، فكأن القرآن ليس أبعاضاً . وكان من الممكن أن يجعلها سكوناً ، وأن يجعل كل آية لها وقف ، لا ، إنّه سبحانه أراد القرآن موصولاً ، وإن كان فى بعض الآيات إقلاب ، وفى بعضها إدغام ، وهذا بغُنَّة ، وهذا بغير غُنَّة ، ويقول الحق :



﴿ الٓمٓصٓ ① ﴾

وفى هذه الآية فصل بين كل حرف ، فنقرأها : « ألف » ثم نسكت لنقرأ « لام » ثم نسكت لنقرأ « ميم » ثم نسكت لنقرأ « صاد » . وهنا حروف خرقت القاعدة لحكمة ؛ لأن هذه حروف مقطعة ، مثل « الم ، حم ، طه ، يس ، ص ، ق ، وكلها مبنية على السكون مما يدل على أن هذه الحروف وإن خيل لك أنها كلمة واحدة ، لكن لكل حرف منها معنى مستقل عند الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنةٌ ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن أَلِفٌ حرف ، ولامٌ حرف ، وَمِيمٌ حرف »[1] .

والرسول ﷺ أشار إلى أن هذه الحروف بها أمور استقلالية ، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت لها فائدة يحسن السكوت والوقوف عليها ، فهمها من فهمها ، وتعبد بها من تعبد بها ، وكل قارئ للقرآن يأخذ ثوابه بكل حرف ، فلو أن قارئاً قال : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ونطق بعد ذلك بحرف أو بأكثر ، فهو قد أخذ بكل حرف حسنة ، وحين نقرأ بعضاً من فوائح السور ، نجد أن سورة البقرة تبدأ بقوله الحق :

﴿ الٓمٓ ۝١ ﴾

(سورة البقرة)

ونقرأ هنا فى أول سورة الأعراف :

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ ﴾

(سورة الأعراف)

وهى حروف مقطعة . نطقت بالإسكان ، وبالفصل بين كل حرف وحرف . ويلاحظ فيها أيضاً أنها لم تقرأ مسميات ، وإنما قُرئت أسماء ، ما معنى مسميات ؟ وما معنى أسماء ؟ . أنت حين تقول : كتب ، لا تقول « كاف » « تاء » « باء » ، بل تنطق مسمى الكاف كَ ، واسمها كاف مفتوحة ، أما مسماها فهو « كَ » . إذن فكل حرف له مسمى ، أى الصوت الذى يقوله الإنسان ، وله اسم ، والأمى ينطق المسميات ، وإن لم يعرف أسماءها . أما المتعلم فهو وحده الذى يفهم أنه حين يقول : « كتب » أنها مكونة من كاف مفتوحة ، وتاء مفتوحة ، وباء مفتوحة ، أما الأمى فهو لا يعرف هذا التفصيل .

وإذا كان رسول الله قد تلقى ذلك وقال : ألف لام ميم ، وهو أمى لم يتعلم . فمن قال له انطق مسميات الحروف بهذه الأسماء ؟ .

---

(١) رواه الترمذى ، والدارمى .

لابد أنه قد عُلِّمَهَا وتلقاها ، والحق هو القائل :

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة القيامة)

فالذى سوف تسمعه يا محمد ستقرأه ، ولذلك تجد عجائب ؛ فأنت تجد « ألم » فى أول البقرة ، وفى أول سورة آل عمران ، ولكنك تقرأ الآية الأولى من سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الفيل)

ما الفرق بين الألف واللام والميم فى أول سورة البقرة ، وسورة آل عمران وغيرهما ، والحروف نفسها في أول سورة الفيل وغيرها كسورة الشَّرْح ؟ أنت تقرأها فى أول سورة البقرة وآل عمران أسماء . وتقرأها في أول سورة الفيل مسميات . والذى جعلك تفرق بين هذه وتلك أنك سمعتها تقرأ فى أول البقرة وآل عمران هكذا ، وسمعتها تقرأ فى أول سورة الفيل هكذا . إذن فالقراءة توقيف ، وليس لأحد أن يجترئ ليقرأ القرآن دون سماع من معلم . لا ، لابد أن يسمعه أولاً حتى يعرف كيف يقرأ .

ونقرأ « الٓمٓصٓ » فى أول سورة الأعراف ، وهى حروف مقطعة ، ونعرف أن الحروف المقطعة ثمانية وعشرون حرفاً ، ونجد نصفها أربعة عشر حرفاً فى فواتح السور ، وقد يوجد منها فى أول السورة حرف واحد مثل :

﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة ق)

وكذلك قوله الحق :

﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة ص)

وكذلك قوله الحق :

﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ① ﴾

(سورة القلم)

ومرة يأتى من الحروف المقطعة اثنان ، مثل قوله الحق :

﴿ حمٓ ① ﴾

(سورة الأحقاف)

ومرة تأتى ثلاثة حروف مقطعة مثل :

﴿ الٓمٓ ① ﴾

(سورة البقرة)

ومرة يأتى الحق بأربعة حروف مقطعة مثل قوله الحق :

﴿ الٓمٓصٓ ① ﴾

(سورة الأعراف)

ومرة يأتى بخمسة حروف مقطعة مثل قوله الحق :

﴿ كٓهيعٓصٓ ① ﴾

(سورة مريم)

وإذا نظرت إلى الأربعة عشر حرفاً وجدتها تمثل نصف الحروف الأبجدية ، وهذا النصف فيه نصف أحكام الحروف ، فبعضها منشور ، أو مهموس ، أو مخفى ، أو مستعلٍ ، ومن كل نوع تجد النصف ، مما يدل على أنها موضوعة بحساب دقيق ، ومع أن توصيف الحروف ، من مستعلٍ ، أو مفخم ، أو مرقق ، أو منشور ، أو مهموس ، هذا التوصيف جاء متأخراً عن نزول القرآن ، ولكن الذى قاله يعلم ما ينتهى إليه خلقه فى هذه الحروف المقطعة وله فى ذلك حكمة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أميًا ، ولم يجلس إلى معلم ، فكيف نطق بأسماء الحروف ، وأسماء الحروف لا يعرفها إلا من تعلم ؟! فهو إذن قد تلقنها ، وإننا نعلم أن القرآن جاء متحديًا العرب ؛ ليكون معجزة لسيد الخلق ، ولا يُتَحدَّى إلا من كان بارعاً فى هذه الصنعة . وكان العرب مشهورين بالبلاغة ، والخطابة

والشعر ، والسجع وبالأمثال ؛ فهم أمة كلام ، وفصاحة ، وبلاغة ، فجاء لهم القرآن من جنس نبوغهم ، وحين يتحدى الله العرب بأنه أرسل قرآناً لا يستطيعون أن يأتوا بمثله ، فالمادة الخام-وهى اللغة-واحدة ، ومن حروف اللغة نفسها التى برع العرب فيها . وبالكلمات نفسها التى يستعملونها ، لكنهم عجزوا أن يأتوا بمثله ؛ لأنه جاء من رب قادر ، وكلام العرب وبلاغتهم هى من صنعة الإنسان المخلوق العاجز .

وهكذا نعلم سرّ الحروف المقطعة التى جاءت لتثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن من الملأ الأعلى لأنه أمى لم يتعلم شيئاً ، لكنه عرف أسماء الحروف ، ومعرفة أسماء الحروف لا يعرفها ـ كما قلت ـ إلا المتعلم ، وقد علمه الذى علم بالقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم ، ويمكن للعقل البشرى أن يحوم حول هذه الآيات ، وفى هذه الحروف معانٍ كثيرة ، ونجد أن الكثير من المفكرين والمتدبرين لكلام الله وجدوا فى مجال جلال وجمال القرآن الكثير ، فتجد متصوفاً يقول إن « المص » جاءت هنا لحكمة ، فأنت تنطق أول كلمة ألف وهى الهمزة من الحلق ، واللام تنطقها من اللسان ، والميم تنطقها من الشفة ، وبذلك تستوعب مخارج الحروف من الحلق واللسان والشفة .

قال المتصوف ذلك ليدلك على أن هذه السورة تتكلم فى أمور الحياة بدءاً للخلق من آدم . إشارة إلى أولية خلق الإنسان ، ووسطاً وهو المعاش ، ونهاية وهو الموت والحساب ثم الحياة فى الدارة الآخرة ، وجاءت « الصاد » لأن فى هذه السورة قصص أغلب الأنبياء .

هكذا جال هذا المتصوف جولة وطلع بها ، أنردها عليه ؟ لا نردها بطبيعة الحال ، ولكن نقول له : أذلك هو كل علم الله فيها ؟ . لا ؛ لأن علينا أن نتعرف على المعانى التى فيها وأن نأخذها على قدر بشريتنا ، ولكن إذا قرأناها على قدر مراد الله فيها فلن نستوعب كل آفاق مرادات الله ؛ لأن أفهامنا قاصرة .

ونحن البشر نضع كلمات لا معنى لها لكى تدل على أشياء تخدم الحياة ، فمثلا نجد فى الجيوش من يضع « كلمة سر » لكل معسكر فلا يدخل إلا من يعرف

الكلمة . من يعرف « كلمة السر » يمكنه أن يدخل . وكل كلمة سر لها معنى عند واضعها ، وقد يكون ثمنها الحياة عند من يقترب من معسكر الجيش ولا يعرفها .

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ ﴾

(سورة الأعراف)

ونجد بعد هذه الحروف المقطعة حديثاً عن الكتاب ، فيقول سبحانه :

﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ﴾

وساعة تسمع « أنزل » فافهم أنه جاء من جهة العلو أى أن التشريع من أعلى . وقال بعض العلماء : وهل يوجد فى صدر رسول الله حرج ؟ . لننتبه أنه ساعة يأتى أمر من ربنا ويوضح فيه ﴿ فلا يكن فى صدرك حرج ﴾ ، فالنهى ليس لرسول الله ﷺ وإنما النهى للحرج أو الضيق أن يدخل لرسول الله ، وكأنه سبحانه يقول : يا حرج لا تنزل قلب محمد .

لكن بعض العلماء قال : لقد جاء الحق بقوله سبحانه : ﴿ فلا يكن فى صدرك حرج ﴾ ؛ لأن الحق يعلم أن محمداً قد يضيق صدره ببشريته ، ويحزن ؛ لأنهم يقولون عليه ساحر ، وكذاب ، ومجنون . وإذا ما جاء خصمك وقال فيك أوصافاً أنت أعلم منه بعدم وجودها فيك فهو الكاذب ؛ لأنك لم تكذب ولم تسحر ، وتريد هداية القوم ، وقوله سبحانه : ﴿ فلا يكن فى صدرك حرج ﴾ قد جاء لأمر من اثنين : إما أن يكون الأمر للحرج ألا يسكن صدر رسول الله ، وإما أن يكون الأمر للرسول طمأنة له وتسكينا ، أى لا تتضايق لأنه أنزل إليك من إله ، وهل ينزل الله عليك قرآناً ليصبح منهج خلقه وصراطاً مستقيماً لهم ، ثم يسلمك إلى سفاهة هؤلاء ؟ لا ، لا يمكن ، فاطمئن تماماً .

﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الأعراف)

والإنذار لا يكون إلا لمخالف ؛ لأن الإنذار يكون إخباراً بشرٍ ينتظر من تخاطبه . وهو أيضاً تذكير للمؤمنين مثلما قال من قبل فى سورة البقرة : ﴿ هدى للمتقين ﴾ .

وهنا نلاحظ أن الرسالات تقتضى مُرْسِلاً أعلى وهو الله ، ومُرَسَلاً وهو الرسول ، ومُرْسَلاً إليه وهم الأمة ، والمرسَل إليه إما أن يستمع ويهتدى وإما لا ، وجاءت الآية لتقول : ﴿كتاب أنزل ﴾ من الله وهو المرسِل ، و «إليك » لأنك رسول والمرسَل إليهم هم الأمة ، إما أن تنذرهم إن خالفوا وإما أن تذكرهم وتهديهم وتعينهم أو تبشرهم إن كانوا مؤمنين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ومادام العباد سينقسمون أمام صاحب الرسالة والكتاب الذى جاء به إلى من يقبل الهداية ، ومن يحتاج إلى النذارة لذلك يقول لهم :

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

وينهاهم عن الشرك وعدم الاستهداء أى طلب الهداية فيقول :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

وحينما يأتى الحق سبحانه فى مثل هذه الآيات ويقول : « وذكرى » . أو « وذكّر » إنما يلفتنا إلى أن الفطرة المطبوع عليها الإنسان مؤمنة ، والرسالات كلها لم تأت لتنشئ إيماناً جديداً ، وإنما جاءت لتذكر بالعهد الذى أخذ علينا أيام كنا فى عالم الذر ، وقبل أن يكون لنا شهوة اختيار :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

هذا هو الإقرار فى عالم الذر ، إذن فحين يقول الحق : ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ فنحن نلتفت إلى ما نسى الآباء أن يبلغوه للأبناء ؛ فالآباء يعلمون الأبناء متطلبات حياتهم ، وكان من الواجب أن يعلموهم مع ذلك قيم هذه الحياة التى تلقوها ؛ لأن آدم وحواء أول ما نزلا إلى الأرض قال لهما الحق :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وهكذا نعلم أن هناك « هدى » قد نزل على آدم ، وكان من الواجب على آدم أن يعلمه للأبناء ، ويعلمه الأبناء للأحفاد ، وكان يجب أن يظل هذا « الهدى » منقولاً فى سلسلة الحياة كما وصلت كل أقضية الحياة . ويأتى سبحانه لنا بحيثيات الاتباع .

﴿ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

فالمنهج الذى يأتى من الرب الأعلى هو الذى يصلح الحياة ، ولا غضاضة على أحد منكم فى أن يتبع ما أنزل إليه من الإله المربى القادر . الذى ربّى ، وخلق من عدم ، وأمد من عُدْم ، وهو المتولى للتربية ، ولا يمكن أن يربى أجسادنا بالطعام والشراب والهواء ولا يربى قيمنا بالأخلاق . ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ .

ومادام قد أوضح : اتبعوا ما أنزل إليكم من أعلى ، فلا يصح أن تأتى لمن دونه وتأخذ منه ، مثلما يفعل العالَم الآن حين يأخذ قوانينه من دون الله ومن هوى البشر ، فهذا يحب الرأسمالية فيفرضها بالسيف ، وآخر يحب الاشتراكية فيفرضها بالسيف . وكل واحد يفرض بسيفه القوانين التى تلائمه . وكلها دون منهج الله لأنها أفكار بشر ، وتتصادم بأفكار بشر ، والأولى من هذا وذاك أن نأخذ مما لا نستنكف أن نكون عبيداً له .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

وتذكر أيها المؤمن أن عزتك فى اتباع منهج الله تتجلّى فى أنك لا تخضع لمساوٍ لك ، وهذه ميزة الدين الذى يجعل الإنسان يحيا فى الكون وكرامته محفوظة ، وإن جاءته مسألة فوق أسبابه يقابلها بالمتاح له من الأسباب مؤمناً بأن رب الأسباب سيقدم له العون ، ويقدم الحق له العون فعلاً فيسجد لله شاكراً ، أما الذى ليس له رب فساعة أن تأتى له مسألة فوق أسبابه تضيق حياته عليه وقد ينتحر .

ثم بعد ذلك يبين الحق أن موكب الرسالات سائر من لدن آدم ، وكلما طرأت الغفلة على البشر أرسل الله رسولاً ينبههم . ويوقظ القيم والمناعة الدينية التى توجد فى الذات ، بحيث إذا مالت الذات إلى شىء انحرافى تتنبه الذات نفسها وتقول : لماذا فعلت هكذا ؟ . وهذه هى النفس اللوامة . فإذا ما سكتت النفس اللوامة واستمرأ الإنسان الخطأ ، وصارت نفسه أمارة بالسوء طوال الوقت ؛ فالمجتمع الذى حوله يعدله .

وهذه فائدة التواصى بالحق والصبر ، فكل واحد يوصًّى فى ظرف ، ويوصًّى فى ظرف آخر ؛ فحين تضعف نفسه أمام شهوة يأتى شخص آخر لم يضعف فى هذه الشهوة وينصح الإنسان ، ويتبادل الإنسان النصح مع غيره ، هذا هو معنى التواصى ؛ فالوصية لا تأتى من جماعة تحترف توصية الناس ، بل يكون كل إنسان موصِيًا فيما هو فيه قوى ، ويوصًّى فيما هو فيه ضعيف ، فإذا فسد المجتمع ، تتدخل السماء برسول جديد ومعجزة جديدة ، ومنهج جديد ، لكن الله أمن أمة محمد على هذا الأمر فلم يجئ رسول بعده لأننا خير أمة أخرجت للناس . والخيرية تتجلى فى أننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، فالتواصى باقٍ إلى أن تقوم الساعة .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

وهذه خاصية لن تنتهى أبداً ، فإن رأيت منكراً فلابد من خلية خير تنكره

وتقول : لا ، وإذا كان الحق قد جعل محمداً خاتم الرسل ، فذلك شهادة لأمته أنها أصبحت مأمونة ، وأن المناعة الذاتية فيها لا تمتنع ولا تنقطع ، وكذلك لا تمتنع منها أبداً المناعة الاجتماعية فلن يأتى رسول بعد سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

وساعة تسمع « كم » فاعرف أن المسألة خرجت عن العد بحيث تستوجب أن تستفهم عنها ، وهذا يدل على أمر كثير فوق العدد ، لكن عندما يكون العدد قليلاً فلا يستفهم عنه ، بل يُعْرَف . والقرية اسم للمكان المعد إعداداً خاصًّا لمعيشة الناس فيه . وهل القرى هى التى تُهلك أم يُهلك من فيها ؟ . أوضح الحق أنها تأتى مرة ويراد منها المكان والمكين : أو يكون المراد بالقرية أهلها ، مثال ذلك قوله الحق فى سورة يوسف :

﴿ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ ﴾
(من الآية ٨٢ سورة يوسف)

وبطبيعة الحال لن يسأل إنسان المكان أو المبانى ، بل يسأل أهل القرية ، ولم يقل الحق : اسأل أهل القرية ؛ لأن المسئول عنه هو أمر بلغ من الصدق أن المكان يشهد مع المكين ، ومرة أخرى يوضح الحق أنه يدمر القرية بسكانها ومبانيها . ﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا ﴾ .

وأيهما يأتى أولاً : الإهلاك أم يأتى البأس أولاً فيهلك ؟ . الذى يأتى أولاً هو البأس فيهلك ، فمظاهر الكونيات فى الأحداث لا يأتى أمرها ارتجالاً ، وإنما أمرها مسبق أزلاً ، وكأن الحق يقول هنا : وكم من قرية حكمنا أن نهلكها فجاءها بأسنا ليتحقق ما قلناه أزلاً ، أى أن تأتى الأحداث على وفق المرادات ؛ حتى ولو كان هناك اختيار للذى يتكلم عنه الحق .

ونعلم أن القرية هى المكان ، وعلى ذلك فليس لها اختيار . وإن كان لمن يتحدث عنه الله حق الاختيار ، فسبحانه يعلم أزلاً أنه سيفعل ما يتحدث عنه سبحانه . ويأتى به فى قرآن يتلى ؛ ليأتى السلوك موافقاً ما أخبر به الله .

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والبأس هو القوة التى لا ترد ولا تقهر ، و « بياتاً » أى بالليل ، « أو هم قائلون » أى فى القيلولة . ولماذا يأتى البأس فى البيات أو فى القيلولة ؟ . ونجد فى خبر عمّن أُهْلِكُوا مثل قوم لوط أنه حدث لهم الهلاك بالليل ، وقوم شعيب حدث لهم الهلاك فى القيلولة ، والبيات والقيلولة هما وقت الاسترخاء ووقت الراحة وتفاجئهم الأحداث فلا يستطيعون أن يستعدوا .

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى يأتيهم الدمار فى وقت هم نائمون فيه ، ولا قوة لهم لمواجهة البأس .

﴿ فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأعراف)

وإذا قال سبحانه: ﴿ بياتاً أو هم قائلون ﴾ فيصح أن لهذه القرية امتدادات ، ووقت القيلولة عند جماعة يختلف عن وقت من يسكن امتداد القرية ، فيكون الوقت عندهم ليلاً ، والقيلولة هى الوقت الذى ينامون فيه ظهراً للاسترخاء والراحة . ولكن كيف استقبلوا ساعة مجىء البأس الذى سيهلكهم ؟ .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

بهذا القول اتضحت المسألة ، ومن قوله ﴿ دعواهم ﴾ نفهم أن المسألة ادعاء .
ونحن نقول : فلان ادّعى دعوى على فلان ، فإما أن يقيم بينة ليثبت دعواه ، وإما ألّا يقيم .

والدعوى تطلق أيضاً على الدعاء :

﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ١٠ سورة يونس)

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ويشرح ربنا هذا الأمر فى آيات كثيرة ، إنه اعتراف منهم باقترافهم الظلم وقيامهم عليه ، فسبحانه القائل :

﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الملك)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾

والحق يسأل الرسل بعد أن يجمعهم عن مدى تصديق أقوامهم لهم ، والسؤال إنما يأتى للإقرار ، ومسألة السؤال وردت فى القرآن بأساليب ظاهر أمرها أنها متعارضة ، والحقيقة أن جهاتها منفكة ، وهذا ما جعل خصوم القرآن يدعون أن

القرآن فيه تضارب . فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة المعارج)

ويقول جل وعلا :

﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

ثم يقول هنا :

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهذا ما يجعل بعض المستشرقين يندفعون إلى محاولة إظهار أن بالقرآن ـ والعياذ بالله ـ متناقضات . ونقول لكل منهم : أنت تأخذ القرآن بغير ملكة البيان فى اللغة ، ولو أنك نظرت إلى أن القرآن قد استقبله قوم لسانهم عربى ، وهم باقون على كفرهم فلا يمكن أن يقال إنهم كانوا يجاملون ، ولو أنهم وجدوا هذا التناقض ، أما كانوا يستطيعون أن يردوا دعوى محمد فيقولوا : أيكون القرآن معجزا وهو متعارض ؟! لكن الكفار لم يقولوها ، مما يدل على أن ملكاتهم استقبلت القرآن بما يريده قائل القرآن . وفى أعرافنا نورد السؤال مرتين ؛ فمرة يسأل التلميذ أستاذه ليعلم ، ومرة يسأل الأستاذ تلميذه ليقرر .

إذن فالسؤال يأتى لشيئين اثنين : إما أن تسأل لتتعلم ، وهذا هو الاستفهام ، وإما أن تسأل لتقرر حتى تصبح الحجة ألزم للمسئول ، فإذا كان الله سيسأله ، أى يسأله سؤال إقرار ليكون أبلغ فى الاحتجاج عليه ، وبعد ذلك يقولون :

﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الملك)

وهذا اعتراف وإقرار منهم وهما سيدا الأدلة ؛ لأن كلام المقابل إنما يكون شهادة ، ولكن كلام المقر هو إقرار واعتراف .

إذن إذا ورد إثبات السؤال فإنه سؤال التقرير من الله لتكون شهادة منهم على أنفسهم ، وهذا دليل أبلغ للحجة وقطع للسبل على الإنكار . فإما أن يقر الإنسان ، وإن لم يقر فستقول أبعاضه ؛ لأن الإرادة انفكت عنها ، ولم يعد للإنسان قهر عليها ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

والحق هنا يقول : ﴿ فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين ﴾ .

وهو سؤال للإقرار . قال الله عنه :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة المائدة)

وحين يسأل الحق المرسلين ، وهم قد أدوا رسالتهم فيكون ذلك تقريعاً للمرسَل إليهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۝٧ ﴾

أى سيخبرهم بكل ما عملوا فى لحظة الحساب ؛ لأنه سبحانه لم يغب يوماً عن أى من خلقه ؛ لذلك قال : ﴿ وما كنا غائبين ﴾ ، ونعلم أن الخلق متكرر الذوات ، متكرر الأحداث ، متكرر المواقع ، هم ذوات كثيرة ، وكل ذات لها حدث ، وكل ذات لها مكان . فإذا قال الحق للجميع : ﴿ وما كنا غائبين ﴾ أى أنه مع الجميع ، ومادام ليس بغائب عن حدث ، ولا عن فاعل حدث ، ولا عن مكان حدث ، وهؤلاء متعددون . إذن هو فى كل زمان وفى كل مكان .

وإن قلت كيف يكون هنا وهناك ؟ أقول : خذ ذلك فى إطار قوله : ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ ، ومثل هذه المعانى فى الغيبيات لا يمكن أن تحكمها هذه الصور . والأمر سبق أن قلناه حين تحدثنا عن مجىء الله ؛ فله طلاقة القدرة وليس كمثله شىء ، وما كان غائباً فى حدث أو مكان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ ﴾

فى هذه الآيات نجد الحديث عن الوزن للأعمال ، وهذا كله تأكيد للحجة عليهم ؛ فالله لا يظلم أحداً ، وفى وزن الأعمال إبطال للحجة من الذين يخافون النار ، ولم يؤدوا حقوق الله فى الدنيا ، وكل ذلك ليؤكد الحجة ، ويظهر الإنصاف ويقطع العذر ، وهناك قول كريم يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنبياء)

هذه الموازين هى عين العدل ، وليست مجرد موازين عادلة ، بل تبلغ دقة موازين اليوم الآخر أنها هى عدل فى ذاتها . وهنا يقول الحق : ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ . نعم ، الميزان فى هذا اليوم حق ودقيق ، ولنذكر أنه قال من قبل :

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

(سورة الأنعام)

والميزان الحق هو الذى قامت عليه عدالة الكون كله ، وكل شىء فيه موزون ، وسبحانه هو الذى يضع المقادير على قدر الحكمة والإتقان والدقة التى يؤدى بها كل كائن المطلوبَ منه ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾

(سورة الرحمن)

ولم نر السماء قذفت وألقت علينا أحداثاً غير متوقعة منها ، فالكون له نظام دقيق . والوزن فى يوم القيامة هو مطلق الحق ، ففى هذا اليوم تبطل موازين الأرض التى كانت تعانى إما خللاً فى الآلة التى يوزن بها ، وإمّا خللاً فى الوزن ، وإمّا أن تتأثر بأحداث الكون ، وما يجرى فيه من تفاعلات ، أما ميزان السماء فلا دخل لأحد به ولا يتأثر إلا بقيمة ما عمل الإنسان ، وساعة يقول سبحانه : ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ .

فكأن الميزان فى الدنيا يمكن أن يحصل فيه خلل ، وكذلك المِلْك أيضاً ؛ لأنه سبحانه أعطى أسباباً للملك المناسب لكل إنسان ، فهذا يملك كذا ، والثانى يملك كذا ، والثالث يملك كذا ، وبعد ذلك يتصرف كل إنسان فى هذا الملك إن عدلاً ، وإن ظلماً على ضوء الاختيار . لكن حين يأتى اليوم الآخر فلا ملك لأحد :

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

فالأمر حينئذ يكون كله لله وحده ، فإن كان الملك فى الدنيا قد استخلف فيه الحق

عباده ، فهذه الولاية تنتهى فى اليوم الآخر : ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

وسبحانه هو القائل :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة القارعة)

إذن فالميزان يثقل بالحسنات ، ويخف بالسيئات . ونلحظ أن القسمة العقلية لإيجاد ميزان ووازن وموزون تقتضى ثلاثة أشياء : أن تثقل كفة ، وتخف الأخرى ، أو أن يتساويا ، ولكن هذه الحال غير موجودة هنا . ويتحدث الحق عن الذين تخف موازينهم فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

والسورة السابقة جاء فيها بالحالتين ، وفى هذه السورة أيضاً جاء بالحالتين ، ومن العجيب أن هذا الكلام عن الثقل والخفة وعدم وجود الحالة الثالثة وهى حالة تساوى الكفتين يأتى فى أول سورة الأعراف ، ولكنه ـ سبحانه يقول بعد ذلك فى سورة الأعراف : ﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ﴾ .

وهؤلاء هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وقد جعل لهم ربنا مكاناً يشبه عرف الفرس ، وعرف الفرس يعتبر أعلى شىء فيه ، فحينا يأتى شعر الفرس يميناً ، وحينا يأتى شعر الفرس يساراً ، وليس هناك جهة أولى بالشعر من الأخرى . وقد أعد الحق لأصحاب الأعراف مكاناً يسمعون فيه أصحاب النار وهم ينادون أصحاب الجنة ، وأصحاب الجنة وهم ينادون أصحاب النار ، وأصحاب الأعراف

يجلسون ؛ لا هم فى الجنة ولا هم فى النار ، فهم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، وبذلك صحت القسمة العقلية فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

فلا الحسنات ثقلت ليدخلوا الجنة ، ولا السيئات خفت ليدخلوا النار ، فميزانهم تساوت فيه الكفتان . وقال بعض العلماء عن الميزان : إن هناك ميزاناً بالفعل . وقال البعض إن المراد بالميزان هو العدالة المطلقة التى أقامها العادل الأعلى ، والأعجب أن الحق قال : إن هناك موازين ، فهل لكل واحد ميزان أو لكل عمل من أعمال التكليفات ميزان : ميزان العقائد ، وميزان الأحكام . . إلخ ، وهل سيحاسبنا ربنا تباعاً . أو أن هناك موازين متعددة ، بدليل أن سيدنا الإمام عليًّا عندما سألوه : أيحاسب الله خلقه جميعاً فى وقت واحد ؟ فقال : وأى عجب فى هذا ؟ أليس هو رازقهم فى وقت واحد ؟ إذن فالميزان بالنسبة لله مسألة سهلة جدًّا . وهيّنة فسبحانه لا يتأبى عليه شىء .

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(من الآية ٩ سورة الأعراف)

نعم هم قد خسروا أنفسهم فكل منهم كان يأخذ شهوات ويرتكب سيئات يمتع بها نفسه ، ويأتى اليوم الآخر ليجد نفسه قد خسر كل شىء ، وكما يقول المثل العام : خسر الجلد والسقط . لماذا ؟ تأتى الإجابة من الحق : ﴿ بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

المُمَكَّن هو الذى يحتل المكان بدون زحزحة ؛ فيقال : مكّنتك من كذا . أى أعطيتك المكان ولا ينازعك أحد فيه . وقد مكننا سبحانه فى الأرض وجعل لنا فيها وسائل استبقاء الحياة ، وترف الحياة ، وزينة الحياة ، ورياش الحياة ، ولم تبخل الأرض حين حرثناها ، بل أخرجت لنا الزرع ، ولم تغب الشمس عنا بضوئها وإشعاعها وحرارتها . ما فى الدنيا يؤدى مهمته ، ولم نُمكّن فى الأرض بقدراتنا بل بقدرة الله . وكان يجب ألا يغيب ذلك عن أنظارنا أبداً . فلا أحد منا مسيطر على الشمس أو القمر أو الريح أو الأرض ، ولكن الذى خلقها وجعلها مسخرة ، هو ربك وربها ؛ فأنت مُمكّن ، وكل شىء مستجيب لك . بتسخير الله له .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « معايش » جمع معيشة ، والمعيشة هى الحياة ، فالعيش هو مقومات الحياة ، ولذلك سموا الخبز فى القرى عيشاً لأن عندهم دقة بالغة ؛ لأنهم عرفوا أنه مقوّم أساسى فى الحياة .

وقول الحق : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ دل على أن هناك من يشكر ، ومن الناس من يشكر نعم الله شكراً عاماً على مجموع النعم ، أو يشكره شكراً خاصًّا عند كل نعمة ، ومنهم من يشكر شكراًخاصًّا لا عند كل نعمة ، ولكن عند جزئيات النعمة الواحدة ، فعندما يبدأ فى الأكل يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، ويقول بعد الأكل : « الحمد لله » ؛ وهناك من يقول عند تناول لقمة واحدة : « بسم الله » وعندما يمضغها ويبلعها يقول : « الحمد لله » لأنها لم تقف فى حلقه ، وأيضاً حين نشرب علينا أن نشرب على ثلاث دفعات : أول دفعة نقول : « بسم الله » . وننتهى منها فنقول : « الحمد لله » وكذلك فى الدفعة الثانية والدفعة الثالثة . ومن يفعل ذلك فلا تتأتّى منه معصية ، مادامت آثار شربة الماء هذه فى جسمه ؛ لأنها كلها « بسم الله » . فتحرسه من الخطيئة ؛ لأن النعمة الواحدة لو استقصيتها لوجدت فيها نعما كثيرة .

وأنتم حين لا تشكرون إنما تضيقون عليكم أبواب النعم من الله ؛ لأنكم

لو شكرتموه على النعم لزادت النعم عليكم ، ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ومن الحمق ألا نشكر .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

ومسألة الخلق سبق أن تقدمت فى سورة البقرة : خلق آدم ، والشيطان ، والقضية تتوزع على سبع سور ، فى سبعة مواضع موجودة فى سورة البقرة ، وسورة الأعراف ، وسورة الحج ، وسورة الإسراء ، وسورة الكهف ، وسوة طه ، وسورة ص ، إلا أن القصة فى كل موضع لها لقطات متعددة ، فهنا لقطة ، وهناك لقطة ثانية ، وتلك لقطة ثالثة ، وهكذا ؛ لأن هذه نعمة لابد أن يكررها الله ؛ لتستقر فى أذهان عباده ، ولو أنه ذكرها مرة واحدة فقد تُنسى ، لذلك يعيد الله التذكير بها أكثر من مرة . وإذا أراد الله استحضار النعم والتنبيه عليها فى أشياء ، فهو يكررها كما كررها فى استحضار النعم فى سورة واحدة فى قوله سبحانه : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

إنّه يذكر هذه النعم من بدايتها ، فيقول :

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ

﴿٣٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٣٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

وكل نعمة يقول بعدها : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وأراد سبحانه بذلك أن يكثر ويردد تكرارها على الآذان لتستقر فى القلوب حتى فى الآذان الصماء ؛ فمرة يأتى بها فى شىء ظاهره أنه ليس نعمة ، مثل قوله :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

وجاء الحق بذكر كل ذلك ؛ لأنه ساعة يجلى لنا الأمور على حقائقها ونحن فى دار التكليف فهذه رحمة ونعمة منه علينا ؛ لأن ذلك يدعونا إلى اتقاء المحظورات والبعد والتنحى عن المخالفات .

ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ، فحين يدخل الابن إلى المدرسة ، نقول له : إن قصرت فى كذا فسوف ترسب ، وأنت بهذا القول ترحمه بالنصيحة ، فلم تتركه دون أن تبصره بعواقب الأمور ، وأيضا ساعة ترى شرًّا يحيق بالكافرين ، فإن هذا الأمر يسرك ، لأنه لو تساوى الكافرون مع المؤمنين لما كان للإيمان فضل أو ميزة ، فالعذاب نقمة على الكافر ، ونعمة على المقابل وهو المؤمن .

وقد جاءت قصة خلق آدم بكل جوانبها فى القرآن سبع مرات ؛ لأنها قصة بدء الخلق ، وهى التى تجيب عن السؤال الذى يبحث عن إجابته الإنسان ؛ لأنه تلفت ليجد نفسه فى كون معد له على أحسن ما يكون . ولم يجىء الكون من بعد الإنسان ، بل طرأ الإنسان على الكون ، وظل السؤال وارداً عن كيفية الخلق ،

والسؤال مهم أهمية وجود الإنسان فى الكون ، فأنت تستقرىء أجناساً فى الكون ، وكل جنس له مهمة . ومهمته متعلقة بك ، جماد له مهمة ، ونبات له مهمة ، وحيوان له مهمة ، وكلها تصب فى خدمتك أنت ؛ لأن الجماد ينفع النبات ، ويتغذى منه لكى يغذى الحيوان ، والحيوان ينفعك ويغذيك ، إذن فكل الأجناس تصب فى خدمتك . أمّا أنت أيها الإنسان فما عملك فى هذا الكون ؟ ؛ لذلك كان لابد أن يتعرف الإنسان على مهمته . وأراد الحق سبحانه أن يُعرِّف الإنسان مهمته ؛ لأنه جل وعلا هو الصانع ، وحين يبحث الإنسان عن صانعه تتجلى له قدرة الله فى كل ما صنع . وكان لابد أيضاً أن يستقبل الإنسان خبراً من الخالق . إنه ـ سبحانه ـ يُنزل لنا المنهج من السماء ويصاحب هذا المنهج معجزة على يد رسول ، وأنزل الحق عليه المنهج وأوكل له مهمة البلاغ . فالرسول يخبر ، ثم نستدل بالمعجزة على صدق خبره . فكان من اللازم أن نصدق الرسول ، لأنه قادم بآية ومعجزة من الله .

والرسول عليه الصلاة والسلام جاء بالرسالة فى سن الأربعين ومعه المنهج المعجزة ، وأبلغنا أنه رسول من الله . وكان لابد أن نبحث لنتثبت من صدق البلاغ عن الله بالتعقل فى دعواه ؛ فهذا الرسول جاء بعد أربعين سنة من ميلاده ومعه معجزة من جنس ما نبغ فيه قومه ، وليس من جنس ما نبغ فيه هو ، إن معجزته ليست من عنده ، بل هى من عند الله ؛ لأن الرسول جاء بالمعجزة بعد أربعين سنة من ميلاده ، ومن غير المعقول أن تتفجر عبقرية بعد أربعين سنة من الميلاد ؛ لأننا نعلم أن العبقريات تأتى فى آخر العقد الثانى وأوائل العقد الثالث من عمر الإنسان ، ونلتفت فنجده يتكلم كل الكلام البلاغى المعجز . وليس من المعقول أن يأتى بأخبار الكون وهو الأمى الذى مات أبوه وهو فى بطن أمه ، ثم ماتت أمه وهو فى السادسة ، وكذلك مات جده . ورأى الناس يتساقطون من حوله ، فمن الذى أدراه ـ إذن ـ أنه سيمهل ويمد فى أجله إلى أن يصل إلى الأربعين ليبلغنا بمعجزته ؟ .

ولذلك نجد القرآن يستدل على هذه ، فيقول :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ

أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

(سورة يونس)

وهكذا تتجلى الحجة القوية من أنه صلى الله عليه وسلم مكلف بالبلاغ بما يُوحَى إليه ، ويتأكد ذلك مرة ثانية فى قوله الحق :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

وهنا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تلقى الأمر من الله بأن يبيّن لهم : هل علمتم عنى خلال عمرى أنى قلت شعراً أو حكمة أو جئتكم بمثل ؟ إذن إن نحن عقلنا الأمر وتبصرنا وتأملنا دعواه لصدقنا أنه رسول الله ، وأن المعجزة نزلت عليه من السماء .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهكذا نرى أن مسألة الخلق والإيجاد ، كان يجب على العقل البشرى أن يبحث فيها ، ليعلم مهمته فى الوجود . وحين يبحث فيها ليعلم مهمته فى الوجود يجب عليه أن يترك كل تخمين وظن ؛ لأن هذه المسألة لا يمكن أن نأتى فيها بمقدمات موجودة لتدلنا على كيفية خلقنا ولا لأى شيء ومهمة خلقنا ! فكيفية الخلق كانت أمراً غيبيًّا وليس أمامنا ما نستقرئه لنصل إلى ذلك . وقد حكم الله فى قضية الخلق ، سواء أكان الأمر بالنسبة للسموات والأرض وما بينهما أم للإنسان ، وقد حكم سبحانه فى هاتين القضيتين ، ولا مصدر لعلم الأمر فيهما إلا من الله سبحانه ، وأغلق باب الاجتهاد فيها ، وكذلك باب التخمين ، وسمى القائمين بكل بحث بشرى فى هذا المجال بأنهم ضالون مضللون ، ولذلك قال ليحكم هذه

القضية ويحسمها ، ويريح العقول من أن تبحث فيها ؛ قال :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فكأن الذى يقول : كيف خلقت السموات والأرض وكيف خلق الإنسان هو مضل ؛ لأن الله لم يشهده ، ولم يكن هذا القائل عضداً لله ولا سنداً ولا شريكا له .

وقص سبحانه علينا قصة خلق السموات والأرض وخلق الإنسان ، وهذه الآية تتعرض لخلق الإنسان . ومن يبحث بحثاً استقرائيًّا ويرجع إلى الوراء فلابد أن يجد أن الأمر منطقى ؛ لأن العالم يتكاثر ، وتكاثره أمر مرئى ، وليس التكاثر فى البشر فقط ، بل فيمن يخدمون البشر من الأجناس الأخرى ، نجد فيهم ظاهرة التكاثر نباتاً وحيواناً ، وإذا ما نظرنا إلى التعداد من قرن وجدنا العدد يقل عن التعداد الحالى وهو خمسة آلاف مليون ، وكلما عدنا ورجعنا إلى الزمن الماضى يقل التعداد إلى أن نصل إلى اثنين ؛ لأن الخلق إنما يأتى من اثنين ، وحلّ الله لنا اللغز فقال :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

وهذا كلام صحيح يثبته الإحصاء ويقنه ؛ لأن العالم يتكاثر مع مرور الزمن مستقبلا .

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

وهذا كلام صادق . وسبحانه القائل :

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

وأبلغنا سبحانه بقصة خلق آدم ، وكيفية خلق حوّاء فهل أخذ جزءًا من آدم وخلق منه حوّاء ؟ قد يصح ذلك ، أو خلق منها زوجها ويكون المقصود به أنه خلقها من الجنس نفسه وبالطريقة نفسها ؟ وذلك يصح أيضا ، فسبحانه قد اكتفى بذكر خلق آدم عن ذكر خلق حوّاء ، وأعطانا النموذج فى واحد ، وقال : ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ .

و ﴿ منها ﴾ فى هذه الآية يحتمل أن تكون غير تبعيضية ، مثلها مثل قوله الحق : ﴿ رسول من أنفسكم ﴾ .

فسبحانه لم يأخذ قطعة من العرب وقال : إنها « محمد » ، بل جعل محمدًا صلى الله عليه وسلم من الجنس نفسه خلقاً وإيجاداً ، وسبحانه حين يتكلم هنا يقول للملائكة :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

وهذا هو أول بلاغ ، ثم أتبع ذلك :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فقبل النفخ فى الروح ستوجد تسوية ، فلمن تحدث التسوية ، ومن هو « المسوّى منه » ؟ . إن التسوية لآدم . وجاء القول بأنه من صلصال ، ومن حمأ مسنون ، ومن تراب ، ومن طين ؛ إنّها مراحل متعددة ، فإن قال سبحانه عن آدم : إنه من تراب ، نقول : نعم ، وإن قال : « من ماء » نقول : نعم ، وإن قال « من طين » فهذا قول حق ؛ لأن الماء حين يختلط بالتراب يصير طيناً . وإن قال : ﴿ من حمأ مسنون ﴾ ، فهذا جائز ؛ لأن الحمأ طينٌ اختمر فتغيرت رائحته ثم جف وصار صلصالاً . إذن فهى مراحل متعددة للخلق ، ثم قال الحق :﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ .

وهكذا تكتمل فصول الخلق ، ثم قال : ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ .

ويقول العلماء : إن المراد من السجود هو الخضوع والتعظيم ، وليس السجود كما نعرفه ، وقال البعض الآخر : المراد بالسجود هو السجود الذى نعرفه ، وأن آدم كان كالقبلة مثل الكعبة التى نتجه إليها عند الصلاة . ولكنْ لنا هنا ملحظ ، ونقول : إننا لا نسجد إلا لله ، ومادام ربنا قد قال : اسجدوا فالسجود هنا هو امتثال لأمر خالق آدم . والنية إذن لم تكن عبادة لآدم ، ولكنها طاعة لأمر الله الأول . والأمر بالسجود لآدم قد أراده الله ؛ لأنه سبحانه سخر الكون كله لخدمة آدم ، ومن الملائكة مدبرات أمر ، ومنهم حفظة ، ومنهم من هو بين يدى الله ، فلم يكن السجود للملائكة خضوعاً من الملائكة لآدم ، بل هو طاعة لأمر الله ، ولذلك سجد من الملائكة الموكلون بالأرض وخدمة الإنسان ، لكنْ الملائكة المقربون لا يدرون شيئاً عن أمر آدم ، ولذلك يقول الحق لإبليس :

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

والمقصود بالعالين الملائكة الذين لم يشهدوا أمر السجود لآدم ، فليس للملائكة العالين عمل مع آدم ؛ لأن الأمر بالسجود قد صدر لمن لهم عمل مع آدم وذريته والذين يقول فيهم الحق سبحانه :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

وهناك الرقيب ، والعتيد والقعيد . وفى كل ظاهرة من ظواهر الكون هناك مَلَك مخصوص بها ، ويبلغنا الحق بمسألة الخلق ، والخطاب لنا ﴿ خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ وهذا ترتيب إخبارى ، وليس ترتيباً للأحداث . أو أن الحق سبحانه وتعالى طمر الخلق جميعاً فى خلق آدم ، والعلم الحديث يعطينا أيضاً مؤشرات على ذلك ، حين يأتون ببذرة ويكتشفون فيها كل مقومات الثمرة ، وكذلك الحيوان المنوى توجد فيه كل صفات الإنسان . ولذلك نجدهم حين يدرسون قانون الوراثة يقولون : إن حياة كل منا تتسلسل عن آخر ، فأنت من ميكروب أبيك ، وقد نزل من والدك وهو حى ، ولو أنه نزل ميتاً لما اتصل الوجود . ووالدك جاء من ميكروب جده وهو حى ، وعلى ذلك فكل كائن الآن فيه

جزىء حى من لدن آدم ، لم يطرأ عليه موت فى أى حلقة من الحلقات .

إذن فكلنا كنا مطمورين فى جزيئات آدم ، وقال ربنا سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

ونقول : صدق الحق فهو الخالق القادر على أن يخرجنا من ظهر آدم ، وهكذا كان الخلق أولاً والتصوير أولاً ، وكل ذلك فى ترتيب طبيعى ، وهو سبحانه له أمور يبديها ولا يبتديها ، أى أنّه سبحانه يظهرها فقط ، فإذا خاطب آدم وخاطب ذريته فكأنه يخاطبنا جميعاً .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وعرفنا من هم الملائكة من قبل ، وما هى علة السجود . ﴿ فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾ .

والحق سبحانه يستثنيه بأنه لم يكن من الساجدين ، وهذا دليل على أنه دخل فى الأمر بالسجود ، ولكن هل إبليس من الملائكة ؟ لا ؛ لأنك إذا جئت فى القرآن ووجدت نصًا يدل بالالتزام ، ونصًا يدل بالمطابقة والقطع فاحمل نص الالتزام على النص المحكم الذى يقطع بالحكم . وقد قال الحق فى ذلك :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

وفى هذا إخراج لإبليس من جنس الملائكيّة ، وتقرير أنه من الجن ، والجن كالإنس مخلوق على الاختيار ، يمكنه أن يطيع أو أن يعصى ، إذن فقوله الحق : ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ .

يعنى أن هذا الفسوق أمر يجوز منه ؛ لكن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإن تساءل أحد : ولماذا جاء الحديث عن إبليس ضمن الحديث عن الملائكة ؟ . نقول : هب أن فرداً مختاراً من الإنس أو من الجن التزم بمنهج الله كما يريده الله ، فأطاع الله كما يجب ولم يعص . . أليست منزلته مثل الملك بل أكثر من الملك ، لأنه يملك الاختيار . ولذلك كانوا يسمون إبليس طاووس الملائكة ، أى الذى يزهو فى محضر الملائكة لأنه ألزم نفسه بمنهج الله ، وترك اختياره ، وأخذ مرادات الله فنفذها ، فصار لا يعصى الله ما أمره ويفعل ما يؤمر ، وصار يزهو على الملائكة لأنهم مجبورون على الطاعة ، لكنه كان صالحاً لأن يطيع ، وصالحاً ـ أيضاً ـ لأن يعصى ، ومع ذلك التزم ، فأخذ منزلة متميزة من بين الملائكة ، وبلغ من تميزه أنه يحضر حضور الملائكة . فلما حضر مع الملائكة جاء البلاغ الأول عن آدم فى أثناء حضوره ، وقال ربنا للملائكة : ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ .

وكان أولى به أن يسارع بالامتثال للأمر بالطاعة ، لكنه استنكف ذلك . وهب أنه دون الملائكة ومادام قد جاء الأمر للأعلى منه وهم الملائكة ، ألم يكن من الأجدر به وهو الأدنى أن يلتزم بالأمر ؟ لكنه لم يفعل . ولأنه من الجن فقد غلبت عليه طبيعة الاختيار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

ثم قال كما يحكى القرآن الكريم :

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

وهكذا كان الموقف استكباراً واستعلاءً . وقوله الحق :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

ونحن حين نحلل هذا النص ، نجد قوله:﴿ ما منعك ﴾ أى ما حجزك ، وقد أورد القرآن هذه المسألة بأسلوبين ، فقال الحق مرة : ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ . وقال مرة أخرى : ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ . وهذا يعنى أن الأسلوب الأول جاء بـ « لا » النافية ، والأسلوب الثانى جاء على عدم وجود « لا » النافية . وقوله ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ كلام سليم واضح ؛ يعنى : ما حجزك عن السجود . لكن ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ هى التى تحتاج لوقفة . لذلك قال العلماء : إن « لا » هنا زائدة ، ومَنْ أَحْسَن الأدب منهم قال : إن « لا » صلة . لكن كلا القولين لا ينفع ولا يناسب ؛ لأن من قال ذلك لم يفطن إلى مادة « منع » ولأى أمر تأتى ، وأنت تقول : « منعت فلاناً أن يفعل » ، كأنه كان يهم أن يفعل فمنعته .

إذن ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ كأنّه كان عنده تهيؤ للسجود ، فجاءت قوة أقوى منه ومنعته وحجزته وحالت بينه وبين أن يسجد . لكن ذلك لم يحدث . وتأتى « منع » للامتناع بأن يمتنع هو عن الفعل وذلك بأن يقنعه غيره بترك السجود فيقتنع ويمتنع ، وهناك فرق بين ممنوع ، وممتنع ؛ فممنوع هى فى ﴿ منعك أن تسجد ﴾ ، وممتنع تعنى أنه امْتنع من نفسه ولم يمنعه أحد ولكنّه أقنعه . وإن كان المنع من الامتناع فالأسلوب قد جاء ليؤكد المعنى الفعلى وهو المنع عن السجود . وهذا هو السبب فى وجود التكرار فى القرآن . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وسبحانه قد أمر الملائكة وكان موجوداً معهم إما بطريق العلو ، لأنه فاق الملائكة وأطاع الله وهو مختار فكانت منزلته عالية ، وإما بطريق الدنو ؛ لأن الملائكة أرفع من إبليس بأصل الخلقة والجبلة ، وعلى أى وضع من العلو والدنو كان على إبليس أن يسجد ، ولكنه قال فى الرد على ربّه :

﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وسبحانه لم يسأل إبليس عن المقارنة بينه وبين آدم ، ولكن سأله وهو يعلم أزلاً أنّ إبليس قد امتنع باقتناع لا بقهر ، ولذلك قال إبليس : أنا خير منه ، فكأن المسألة دارت فى ذهنه ليوجد حيثية لعدم السجود . ولا يصح فى عرفه الإبليسى أن يسجد الأعلى للأدنى ، فمادام إبليس يعتقد أنه خير من آدم ويظن أنه أعلى منه ، فلا يصح أن يسجد له . وأعلى منه لماذا ؟ لأنه قال : ﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ فكأن النار لها علو ، وهو فى ذلك مخطئ تماماً لأن الأجناس حين تختلف ؛ فذلك لأن لكل جنس دوره ، ولا يوجد جنس أفضل من جنس ، النار لها مهمة ، والطين له مهمة ، والنار لا تقدر أن تؤدى مهمة الطين ، فلا يمكن أن نزرع فى النار .

إذن فالخيرية تتأتى فى الأمرين معا مادام كل منهما يؤدى مهمته ، ولذلك لا تقل : إن هذا خير من هذا ، إنما قل : عمل هذا أحسن من عمل هذا ، فكل شىء فى الوجود حين يوضع فى منزلته المرادة منه يكون خيراً ، ولذلك أقول : لا تقل عن عود الحديد إنه عود مستقيم ، وتقول عن الخطاف : إن هذا عود أعوج ، لأن مهمة الخطاف تقتضى أن يكون أعوج ، وعوجه هو الذى جعله يؤدى مهمته ، لأن الخيرية إنما تتأتى فى متساوى المهمة ، ولكن إبليس قال :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

قالها للمعاندة ، للكبر ، للكفر حين أعرض عن أمر الله وأراد أن يعدل مراد الله فى أمره ، وكأنه يخطّئ الحق فى أمره ، ويردّ الأمر على الآمر . فما كان جزاء الحق سبحانه وتعالى لإبليس إلا أن قال له :

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ

﴿ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

والهبوط يستدعى الانتقال من منزلة عالية إلى منزلة أقل ، وهذا ما جعل العلماء يقولون إن الجنة التى وصفها الله بأنها عالية هى فى السماء ، ونقول : لا ، فالهبوط لا يستدعى أن يكون هبوطاً مكانيًا ، بل قد يكون هبوط مكانة ، وهناك فرق بين هبوط المكان ، وهبوط المكانة ، وقد قال الحق لنوح عليه السلام :

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

أى اهبط من السفينة ، إذن مادة الهبوط لا تفيد النزول من مكان أعلى إلى مكان أدنى ، إنما نقول من مكان أو من مكانة . ﴿ قال فاهبط منها ﴾ .

وهذا تنزيل من المكانة لأنه لم يعد أهلاً لأن يكون فى محضر الملائكة ؛ فقد كان في محضر الملائكة ؛ لأنه ألزم نفسه بالطاعة ، وهو مخلوق على أن يكون مختاراً أن يطيع أو أن يعصى ، فلما تخلت عنه هذه الصفة لم يعد أهلاً لأن يكون فى هذا المقام ، وذلك أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الأعراف)

أى ما ينبغى لك أن تتكبر فيها .

إن امتناعك عن أمر من المعبود وقد وجهه لك وأنت العابد هو لون من الكبرياء على الأمر ، والملائكة جماعة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فمادمت أنت أهل استكبار واستعلاء على هذه المكانة فلست أهلاً لها ، فكأن العمل هو الذى أهلّه أن يكون فى العلو ، فلما زايله وفارقه كان أهلاً لأن يكون فى الدنو ، وهكذا لم يكن الأمر متعلقاً بالذاتية ، وفى هذا هبوط لقيمة كلامه فى أنه من نار وآدم من طين ؛ لأن المقياس الذى توزن به الأمور هو مقياس أداء العمل ، ومن حكمة الحق

أن الجن يأخذ صورة القدرة على أشياء لا يقدر عليها الإنس ، مثل السرعة ، واختراق الحواجز ، والتغلب على بعض الأسباب ، فقد ينفذ الجن من الجدار أو من الجسم ، وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم »[1] .

وهو فى ذلك مثل الميكروب ، لأن هذه طبيعة النار ، وهى المادة التى خُلق منها . وهى تتعدى الحواجز . والجن قد بلغ من اللطف والشفافية أنه يقدر على أن ينفذ من أى شىء ، لكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يوضح للجن : لا تعتقد أن عنصريتك هى التى أعطتك هذا التميز ، وإنما هى إرادة المُعَنْصر ، بدليل أنه جعلك أدنى من مكانة الإنسان ، إنه ـ سبحانه ـ يجعل إنسياً مثل سيدنا سليمان مخدوما لك أيها الجنى ، إنه يسخرك ويجعلك تخدمه . وأنه فى مجلس سليمان ، جعل الذى عنده علم من الكتاب ، يأتى بقوة أعلى من قوة « عفريت » من الجن . فالحق هو القائل :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النمل)

وهذا يدل على أن هناك أذكياء وأغبياء فى عالم الجن أيضاً . وجاء الذى عنده علم من الكتاب فتسامى فوق عفريت الجن فى الزمن ، فقد قال هذا العفريت :

﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النمل)

والمقام هو الفترة الزمنية التى قد يقعدها سليمان فى مجلسه ، فماذا قال الذى عنده علم من الكتاب ـ وهو إنسان ـ ؟

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

---

(١) رواه البخارى فى الأدب ، ومسلم فى السلام ، وأبو داود فى السنة ، وابن ماجه فى الصوم ، ورواه أحمد ٣/١٥٦ ، ٢٨٥ ، ٣٣٧

كأنه سيأتى بعرش بلقيس قبل أن ينته سليمان من ردّ طرفه الذى أرسله ليبصر به شيئاً ، إن سليمان رأى العرش بين يديه ، ولذلك نجد عبارة القرآن معبرة :

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

كأن المسألة لا تتحمل . بل تم تنفيذها فوراً . إذن فالحق يوضح للمخلوقين من العناصر : إياكم أن تفهموا أن تميزكم بعناصركم ، إنني أقدر بطلاقة قدرتى أن أجعل الأدنى يتحكم فى الأعلى ؛ لأنها إرادة من عَنصَرَ العناصر .

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وكلمة ﴿ فاهبط ﴾ تشير وتدل على أن الهبوط أمر معنوى ، أى أنك لست أهلاً لهذه المنزلة ولا لتلك المكانة . هذا ما تدل عليه كلمة ﴿ فاهبط ﴾ ، ثم جاء الأمر بعد ذلك بالخروج من المكان .

والصَّغَار هو الذل والهوان ؛ لأنه قَابَل الأمر باستكبار ، فلابد أن يجازى بالصَّغار . وبذلك يكون قد عومل بضد مقصده ، والمعاملة بضد المقصد لون من التأديب والتهذيب والتعليم ؛ مثلما يقرر الشرع أن الذى يقتل قتيلاً يحرم من ميراثه ، لأنه قد قتله ليعجل الإرث منه ، ولذلك شاء الله أن يحرمه من الميراث ؛ فبارتكابه القتل صار محجوباً عن الميراث .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ومعنى ﴿ أنظرنى ﴾ أمهلنى أى لا تمتنى بسرعة ، ولا تجعل أجلى قريباً ، بدليل قوله سبحانه :

﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

فالإنظار طلب الإمهال ، وعدم التعجيل بالموت ، وقد طلبه إبليس لكى يشفى غليله من بنى آدم وآدم ؛ لأنه جاء له بالصَّغار والذلة والطرد والهبوط ، ولذلك أصر على أن يجتهد فى أن يغرى أولاد آدم ليكونوا عاصين أيضاً . وكأن إبليس فى هذا الطلب أراد أن يُنْقذ من الموت وأن يبقى حيًّا إلى يوم البعث الذى يبعث فيه كل من مات . وكأنه يريد أن يقفز على قول الحق :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

فأوضح الحق : أن تأجيل موتك هو إلى يوم الوقت المعلوم لنا وغير المعلوم لك ؛ لأن الأجل لو عرف فقد يعصى من يعلمه مدة طويلة ثم يقوم بالعمل الصالح قبل ميعاد الأجل ، ولكن الله أراد بإبهام زمان الموت أن يشيع زمانه فى كل وقت . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة الحجر)

والوقت المعلوم هو النفخة الأولى :

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الزمر)

وكأن إبليس كان يريد أن يفر من الموت ليصل إلى النفخة الثانية ، لكن ربنا أوضح أنه باق إلى وقت معلوم ، وآخر الوقت المعلوم هذا لابد أن يكون قبل النفخة الأولى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾

والإغواء . إغراء بالمعصية ، ومن الإغواء الغَىّ وهو : الإهلاك ، يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة مريم)

وحين نقرأ ﴿ فبما أغويتنى ﴾ أى فبإغوائك يا الله لى سأفعل كذا وكذا ، وبذلك يكون قد نسب الإغواء لله . لكن هل يغوى ربنا أو يهدى ؟ . إن الله يهدى دلالة وتمكيناً ، وسبق أن تكلمنا كثيراً عن هداية الدلالة ودلالة التمكين ، وسبحانه خلق الشيطان مختاراً ، ولم يخلقه مرغماً ومسخراً كالملائكة ، ولأنه قد خُلِقَ مختاراً فقد أعطاه فرصة أن يطيع وأن يعصى ، وكأن الشيطان بقوله هذا يتمنى لو أنه قد خلق مقهوراً . ويقول إن الله هو الذى أعطاه سبب العصيان . ولم يلتفت إلى أن الاختيار إنما هو فرصة لا للغواية فقط ، ولكنه فرصة للهداية أيضاً . وأنت أيها الشيطان الذى اخترت الغواية .

إذن فقول الشيطان : ﴿ فبما أغويتنى ﴾ إنما يريد به الشيطان : أن يدخل بمعصيته على الله ، ونقول له : لا ، إن ربنا لم يغو ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يغوى وإنما يهدى ؛ لأن الله لو خلقه مرغماً مقهوراً ما أعطاه فرصة أن يختار كذا أو يختار كذا ؛ فقد خلقه على هيئة « افعل » و « لا تفعل » ، واختار هو ألّا يفعل إلا المعصية .

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والمفهوم من العبارة أنهم بنو آدم ، والقعود لون من ألوان حركة الجسم الفاعل ؛ لأن المتحرك إما أن يكون قائماً ، وإما أن يكون قاعداً ، وإما أن يكون

مضطجعاً نائماً . وأريح الحالات أن يكون نائماً مضطجعاً ؛ لأن الجسم فى هذه الحالة يكون مستريحاً بفعل الجاذبية الأرضية ، وحين يكون الإنسان قاعداً تقاومه الجاذبية قليلاً ، وحين يكون واقفاً فهو يحمل ثقل جسمه على قدميه ، ولذلك نقول لمن وقف طويلاً على قدميه : « اقعد حتى ترتاح » ولو قعد وكان متعباً فيقال له : « اضطجع قليلاً لترتاح » .

ولماذا اختار الشيطان أن يقول:﴿ لأقعدن ﴾ ؟ حتى يكون مطمئناً ، فقد يتعب من الوقفة ، أيضاً وهو فى حالة القعود يكون منتبها متيقظاً ، والحق يقول :

﴿ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾

(من الآية ٥ سورة التوبة)

ولم يقل : « قفوا » حتى لا يرهق الناس أنفسهم بالوقوف الطويل ، ولكن ساعة يواجهون الأمر فعليهم بالنهوض . والقعود أقرب إلى الوقوف ، لأن الاضطجاع أقرب إلى التراخى والنوم ، وقد اختار الشيطان الموقف الذى يحفظ له قوته ، ويبقى له انتباهه: ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ .

ومادام الشيطان سيغوى ، وسيضل الغير ، فسيختار للغواية من يكون فى طريق الهداية . إنما من غَوَى باختياره وضل بطبيعته فالشيطان قد استراح من ناحيته ولا يريده ، وتلك ظاهرة تحدث للناس حينما يجدون ويجتهدون فى الطاعة ؛ فالشاب الطائع الملتزم يحاول الشيطان أن يخايله ليصرفه عن الصلاة والطاعة ؛ لأن الشيطان يتلصص على دين الإنسان ، فهو كاللص ، واللص لا يحوم حول بيت خرب . إنما يحوم اللص حول بيت عامر بالخير .

إننا نلاحظ هذه المسألة فى كل الناس حينما يأتون للصلاة فيقول الواحد منهم : حينما أصلى يأتى لى الوسواس ، ويشككنى فى الصلاة ، نقول له : نعم هذا صحيح ، وحين يأتى لك هذا الوسواس فاعتبره ظاهرة صحية فى الإيمان ؛ لأن معناه أن الشيطان عارف أن عملك مقبول ، ولذلك يحاول أن يفسد عليك الطاعة ؛ لأنك لو كنت فاسداً من البداية ، ووقفت للصلاة دون وضوء لما جاءك الوسواس . لكن الشيطان يريد أن يفسد عليك الطاعة ولذلك يقول الله :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٠٠ سورة الأعراف)

لماذا ؟ . لأن الله خلقك وخلقه ، وإن كنت لا تستطيع دفعه لأنه يجرى منك مجرى الدم فى العروق وينفذ إليك بالخواطر والمواجيد التى لا تضبطها ؛ ويأتى إليك بمهام الأشياء فى وقت الصلاة ؛ فتتذكر الأشياء التى لم تكن تتذكرها ، ويأتى لك بأعقد المسائل وأنت تصلى ؛ وكل ذلك لأنه قال : ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ ، ولم يقل إنه سيقعد على الطريق المنحرف ، ولن يجلس الشيطان فى مجلس خمر ، لكنه يقعد على أبواب المساجد أو فى المساجد ليفسد للناس أعمالهم الصالحة . فماذا نفعل فى هذه الحال ؟ . يدلنا الحق سبحانه أن نستعيذ : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ﴾ .

فمعنى ﴿ فاستعذ ﴾ أى فالتجئ منه إلى الله ؛ لأن الله الذى أعطاه الخاصية فى أن يتغلغل فيك ، وفى دمك ، وفى خواطرك ، هو القادر على منعه ، وحين تقول : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » بفزع والتجاء إليه ـ سبحانه ـ فإنه ـ جل شأنه ـ ينقذك منه . وإن كنت تقرأ القرآن ثم جاء لك الخاطر من الشيطان فقل : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فإذا قلت هذا فكأنك نبهته إلى أنك أدركت من أين جاءت هذه النزغة : مرة واثنتين وثلاثاً ، فيقول الشيطان لنفسه : إن هذا المؤمن حاذق فطن وحذر لا أستطيع غوايته ، ولأبحث عن غيره .

ولذلك رأينا الإمام أبا حنيفة ، وقد شهِرَ عنه الفتيا ، وذهب إليه سائل يقول : ضاع منى مال فى أرض كُنت قد دفنته فيها ، ولا أعرف الآن مكانه . دلنى عليه أيها الشيخ ؟ . وبطبيعة الحال كان هذا السؤال فى غير العلم ، فقال أبو حنيفة : يا بنى ليس فى ذلك شىء من العلم ، ولكنى احتال لك ؛ إذا جاء الليل فقم بين يدى ربك مصليًّا هذه الليلة ، لعل الله سبحانه وتعالى يبعث لك جنداً من جنوده يقول لك عن مكان مالك .

وبينما أبو حنيفة يؤدى صلاة الفجر ، وإذا بالرجل يقبل ضاحكاً مبتسماً قائلا : يا إمام لقد وجدت المال ، فضحك أبو حنيفة ، وقال : والله لقد علمت أن

الشيطان لا يدعك تتم ليلتك مع ربك ، وسيأتى ليُخبرك ، فهلاّ أتممتها شكراً لله ، هيا قم إلى الصلاة .

إذن فقد عرف الشيطان كيف يقعد : وكيف يقسم ، لأنه فى آية أخرى يقول :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

لقد استطاع أن يأتى بالقسم الذى يعينه على مهمته ؛ فقال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم ﴾ أى بامتناعك عن خلقك وعدم حاجتك إليهم فأنت الغالب الذى لا يقهر ؛ لأنك إن أردتهم ما استطعتُ أن آخذهم ، لكنك شئت لكل إنسان أن يختار :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

فأقسم ، ومن هذا الباب يدخل الشيطان على الإنسان : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ .

واستدرك على نفسه أيضاً وقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

لأن الذى يريده الله مهديًّا لا يستطيع الشيطان أن يغويه ؛ لأنه لا يناهض ربنا ولا يقاومه ، إنما يناهض خلق الله ، ولا يدخل مع ربنا فى معركة ، إنما يدخل مع خلقه فى معْركة ليس له فيها حجة ولا قوة ؛ لأن الذى يغلب فى المعارك إما أن يرغمك على الفعل ، وإما أن يقنعك لتفعل أنت بدون إرغام . وهل يملك إبليس واحدة من هذه ؟ . لا ، ولذلك سيأتى فى الآخرة يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

والسلطان قسمان : سلطان يقهر ، وسلطان يقنع . والشيطان يدخل على الإنسان من هذه الأبواب .

ويقول الحق بعد ذلك على لسان إبليس :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فالذى بين اليد هو ما كان إلى الأمام ، ﴿ ومن خلفهم ﴾ أى من الوراء ، و ﴿ عن أيمانهم ﴾ أى من جهة اليمين ، و ﴿ عن شمائلهم ﴾ أى من جهة اليسار . والشيء الذى أمام العالم كله ، ونسير إليه جميعاً هو ﴿ الدار الآخرة ﴾ وحين يأتى الشيطان من الأمام فهو يشككهم فى حكاية الآخرة ويشككهم فى البعث . ويحاول أن يجعل الإنسان غير مقبل على منهج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بلقاء الله ، ويشكّون فى وجود دار أخرى سيُجازى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته . وقد حدث ذلك ووجدنا من يقول القرآن بلسان حاله :

﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

ولذلك يعرض الحق قضية البعث عرضاً لا يجعل للشيطان منفذاً فيها ، فيوضح لنا أنه سبحانه لم يعجز عن خلقنا أولاً ؛ لذلك لن يعجز عن إعادتنا ، والإعادة بالتأكيد أهون من البداية ؛ لأنّه سيعيدهم من موجود ، لكن البداية كانت من عدم ، إنه ـ سبحانه ـ عندما يبيّن للناس أن الإعادة أهون من البداية فهو يخاطبهم بما لا يجدون سبيلاً إلى إنكاره ، وإلاّ فالله ـ جل شأنه ـ تستوى لدى طلاقة قدرته كل الأعمال فليس لديه شيء سهل وهيّن وآخر صعب وشاق ويبلغنا ـ سبحانه ـ بتمام إحاطة علمه فيقول :

﴿ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة ق)

أى أن لكل واحدٍ كتاباً مكتوباً فيه كل عناصره وأجزائه .

والشيطان - أيضاً - يأتى من الخلف ، وخلف كل واحد منا ذريته ، يخاف ضيعتهم ، فيوسوس الشيطان للبعض بالسرقة أو النهب أو الرشوة من أجل بقاء مستقبل الأبناء ، وفساد أناسٍ كثيرين يأتى من هذه الناحية ، ومثل هذا الفساد يأتى حين يبلغ بعض الناس منصبًا كبيراً ، وقد كبرت سنّه ، ويقبل على الله بشرّ ، ويظن أنه يترك عياله بخير . لكن إن كنت تخاف عليهم حقًا فأمّن عليهم فى يد ربهم ، ولا تؤمّن حياتهم فى جهة ثانية .

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

ولماذا لم يأت الشيطان للإنسان من فوق ومن تحت لأن الفوقية هى الجهة التى يلجأ إليها مستغيثا ومستجيرا بربه ، والتحتية هى جهة العبودية الخاصة. فالعبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، فهو فى هاتين الحالتين محفوظ من تسلط الشيطان عليه ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ .

ويقول تعالى :

﴿ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ويأتى الشيطان من اليمين ليزهد الناس ويصرفهم عن عمل الحسن والطاعة . واليمين رمز العمل الحسن ؛ لأن كاتب الحسنات على اليمين ، وكاتب السيئات على الشمال ، ويأتى عن شمائلهم ليغريهم بشهوات المعصية . ونلحظ أن الحق استخدم لفظ ﴿ عن أيمانهم ﴾ و﴿ عن شمائلهم ﴾ ولم يأت بـ« على » لأن « على » فيها استعلاء ، والشيطان ليس له استعلاء أبداً ؛ لأنه لا يملك قوة القهر فيمنع ، ولا قوة الحجة فيقنع . ولأن أكثر الناس لا تتذكر شكر المنعم عليهم ، فيجيد الشيطان غوايتهم . ولذلك يقول الحق تذييلاً للآية :

﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأعراف)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

لقد بلغ الغرور بالشيطان أن تخيّل أنه ذكى ، فشرح لنا خطته ومنهجه فدلل لنا على أن حكم الله فيه قد نفذ بأن جعل كيده ضعيفاً ، فسبحانه القائل :

﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة النساء)

لقد نبهنا الحق لكيد الشيطان وغروره ، والناصح هو من يحتاط ، ويأخذ المناعة ضد النزغ الشيطانى . وهنا يقول الحق :

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾

(من الآية ١٨ سورة الأعراف)

وقال له الحق من قبل :

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إذن فهناك هبوط وخروج بصَغار ومجاوزة المكان ، ثم هنا أيضاً تأكيد بأنه فى حالة الخروج سيكون مصاحباً للذم والصغار والطرد واللعن . ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الأعراف)

وفى هذا إخبار لمن يتبعون الشيطان بأنهم أهل لجهنم ، ولم يعدَّها سبحانه لتسع الكافرين فقط ، لكنه أعدّها على أساس أن كل الخلق قد يكفرون به سبحانه ، كما أعدّ الجنة على أساس أن الخلق جميعاً يؤمنون به ؛ فليس عنده ضيق مكان ، وإن آمن الخلق جميعاً ؛ فإنه ـ جل شأنه ـ قد أعد الجنَّة لاستقبالهم جميعاً ، وإن كفروا جميعاً فقد أعدّ النار لهم جميعاً ؛ تأكيداً لقوله الحق :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

وقوله الحق :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

وبهذا نكون قد شرحنا مسألة إبليس الذى امتنع عن طاعة أمر الآمر الأعلى بالسجود لآدم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

ويعاود القرآن الحديث عن آدم بعد أن تناول مسألة إبليس فيقول : ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ .

كثير من العلماء تواتر نقل العلم عندهم إلى أن الجنة هى جنة الآخرة والخلود ، واعترض البعض متسائلين : كيف يدخل إبليس جنة الخلود ؟ . وكيف يخرج منها ؟ . وهل الذى يدخل الجنة يخرج منها ؟ . وهؤلاء العلماء الذين قالوا : إن الجنة هى جنة الآخرة، لم يفطنوا إلى مدلول كلمة « جنة» ؛ فساعة تطلق كلمة جنة ، تأخذ ما يسمى فى اللغة « غلبة الاستعمال » ، أى تأخذ اللفظ من معانيه المتعددة إلى معنى واحد يستقل به عرفاً ، بحيث إذا سُمع انصرف الذهن إليه ، فأنت إذا سمعت يا مؤمن كلمة الجنة ينصرف ذهنك إلى جنة الآخرة ؛ لأنها هى التى تُعتبر جنة بحق ، لكن حينما يأتى اللفظ فى القرآن والمتكلم هو الله ، فلابد أولاً أن ندرس اللفظ واستعمالاته فى اللغة ؛ لأن القرآن جاء بلسان عربى مبين ، فمن الجائز أن يوجد اللفظ فى اللغة وله معانٍ متعددة . وعندما يتعلق الأمر بالدين والفقه فإننا نأخذ اللفظ من معناه اللغوى ، ونجعله ينصرف إلى المعنى الشرعى الاصطلاحى .

مثال ذلك كلمة « الحج » فأنت ساعة تسمع كلمة « الحج » تقول : هو قصد بيت الله الحرام للنسك والعبادة فى أشهر معلومة ، على الرغم من أن « الحج » فى اللغة هو القصد ، فإذا قصدت أى شىء تقول : حججت إليه . فلما جاء الإسلام أخذ هذا اللفظ من اللغة واستعمله فى الحج بالمعنى الشرعى ، وهو قصد البيت الحرام للنسك ، وكذلك كلمة « الصلاة » إنها فى اللغة الدعاء ، فقوله تعالى : ﴿ وصلِّ عليهم ﴾ أى ادع لهم ، ولما جاء الإسلام أخذ الكلمة من اللغة، وجعلها تطلق على معنى اصطلاحى جديد بحيث إذا أطلق انصرفت إليه ، وهى الأقوال والأفعال المخصوصة ، المبدوءة بالتكبير المختومة بالتسليم بشرائطها الخاصة .

ولكن هل معنى أننا أخذنا اللفظ من اللغة وجعل له الشرع معنًى اصطلاحيًّا أن هذا يكون تركاً لمعناه الأصلى ؟ . لا ؛ لأنك إن أردت أن تستعمله فى معناه الأصلى فلك ذلك ، ولكنك تحتاج إلى قرينة تدل على أنك لا تريد الصلاة الشرعية لأن كلمة « صلاة » أصبحت هى الصلوات الخمس المعروفة لنا ، مع أن معناها الأصلى كان الدعاء ، وهذا هو ما جعل العلماء يذهبون إلى أن كلمة « الجنة » ساعة تُطلق ينصرف الذهن إلى جنة الخلود . ونقول : المعنى اللغوى للجنة أنها المكان الذى فيه أشجار غزيرة ومتنوعة ، أما غزارتها وعلوها فتستر

الإنسان وتُجِنّه عن كل ما حوله ، وأما ما فيها من الثمار والضروريات والكماليات فلأنها تستر الإنسان عن خارجها ويكتفى بأن يكون فيها ، والقرآن لم يجئ بالجنة بمعنى جنة الخلد فقط ، بل يقول أيضاً :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾

(من الآية ٢٦٦ سورة البقرة)

وكذلك يقول سبحانه :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وقوله الحق :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة سبأ)

وأقول : إن علينا أن نبحث فى آفاق مرادات الله حين يُعْلمنا من لدنه ويقفنا على المعنى المراد ، إننا نعلم أن أول بلاغ نزل من الله بخصوص آدم أخبرنا فيه أنه قد خلق آدم خليفة فى الأرض :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

إذن فآدم مخلوق للأرض ، ولا تظلموا آدم وتقولوا إنه مخلوق للجنة ، وكنا سنعيش فيها لكنه عصي وأنزلنا إلى الأرض . لذلك نقول : لا ، وعلينا أن نتذكر أن أول بلاغ من الله عن آدم أنه جعله فى الأرض خليفة . والذى كان يجب أن نسأل

عنه : مادام قد جعله الله خليفة فى الأرض فما الذى جاء بحكاية الجنة هذه ؟!

لقد خلق الله آدم ليكون خليفة فى الأرض ، وكان عليه أن يتلقى من الله التكاليف محصورة فى « افعل » و « لا تفعل » ؛ لأنك إن لم تمتثل سيظهر الفساد فى المجتمع ، أما الذى لا يظهر منه فساد فسبحانه يتركه مباحاً ؛ لذلك فكل ما لم يرد فيه « افعل » و « لا تفعل » لا يفسد به المجتمع . إذن فـ « افعل » و « لا تفعل » هى مقياس ضمان الصلاح فى الأرض .

وهل خلق الله الإنسان هكذا بدون منغصات تفسد عليه منهج الله ؟ . لا ، فمادام الشيطان قد وقف هذا الموقف مع آدم ، وقال أنا سأغوى ؛ فسيزين لك فى « افعل » ، و « لا تفعل » ويأتيك الأمر بالصلاة فينزغك الشيطان حتى لا تصلى . ويأتيك الأمر ألا تشرب الخمر فيزين لك الشيطان أن تشربها ، ويحاول أن ينقل مجال « افعل » إلى مجال « لا تفعل » ، وكذلك يحاول أن يزين لك « أن تفعل » ما هو فى مجال « لا تفعل » فترتبك حركتك .

إن الحق سبحانه يريد منهجاً يحكم حركة الحياة ، ويضمن للخلافة فى الأرض أن تؤدى مهمتها أداءً يسعد الإنسان فيها فى الدنيا وينعم فى الآخرة ؛ لذلك كان لابد أن يدرب الحق سبحانه خليفته فى الأرض على المنهج ؛ حتى لا يتلقى المنهج تلقيًّا نظريًّا ، لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى ألاّ يجعل آدم يباشر مهمة الخلافة إلا بعد أن يعطيه تدريباً على المهمة فى « افعل » و « لاتفعل » . وحذره من العقبات التى تعترض « افعل » ؛ حتى لا تجئ فى منطقة « لا تفعل » ، وكذلك من العقبات فى منطقة « لا تفعل » حتى لا تجئ فى منطقة « افعل » ، واختار له مكاناً فيه كل مقومات الحياة وترفها حتى لا يتعب فى أى شىء أبداً فى أثناء التدريب ، وأوضح له أن هذه هى الجنة وهى بستان جميل وفيه كل مقومات الحياة وترفها ، وأمره : كُلْ من كل شىء فيها ، ولكن لا تقرب هذه الشجرة .

« كل » هذا هو الأمر ، و « لا تقرب » هذا هو النهى . وأوضح سبحانه لآدم أن الذى سيعكر عليه تطبيق منهج الله هو العدو الذى ثبتت عداوته إنه « إبليس » ؛ لأنه حين امتنع عن السجود لآدم تلقى الطرد واللعنة فأقسم وقال :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

كأن الحق سبحانه وتعالى جعل الجنة كمكان فيه كل مقومات الحياة لآدم بصنع الله ـ سبحانه ـ وإعداده ، وأعطى له منها القدر الذى يعطى المقوم بلا فضلات تتعبه ، ولا ينتفخ ولا يعانى من متاعب فى الصحة . . . إلخ ؛ لأنه سبحانه يعطى لآدم القدر المقوم . وسبحانه قادر على كل شيء بدليل أنه يرعى الجنين فى بطن أمه ، والجنين ينمو ، والنمو معناه أنه يتلقى الغذاء ، ولا يخرج منه فضلات ؛ لأن الغذاء الذى يدخله الله له على قدر النمو فقط ، وحين يكون ربنا هو الذى يمد جنة التدريب بالغذاء ، فهو قادر على كامل الإعداد .

إذن فالجنة التى وُجد فيها آدم بداية ليست هى جنة الجزاء ؛ لأن جنة الجزاء لابد أن تأتى بعد التكليف . ولا يمكن أن يكون فيها تكليف ، ومن يسكنها لا يخرج منها . وآدم ـ كما علمنا ـ مخلوق للأرض ، إذن وجود الجنة هنا يعنى أنها مكان التدريب على المهمة فى الخلافة أمراً متمثلاً فى ﴿ فكُلا ﴾ ، ونهياً متمثلاً فى ﴿ ولا تقربا ﴾ ، لم يقل لهما : لا تأكلا ، بل قال : ﴿ لا تقربا ﴾ لأن القِربان مظنة أنه يؤدى إلى الغواية ويدفع إليها . وهو قد أكل منها لأنه جاء ناحيتها واقترب منها ، ولو كان قد استمع ولم يقرب لما أكل منها .

فكأن الله جعل لآدم فى جنة التدريب والتمرين رمزين : الرمز الأول : لـ « افعل » ، والرمز الثانى : لـ « لا تفعل » ، ونجد أن الذى نهى الله عنه قليل بالنسبة لما أباحه وأمر به . وهذا من رحمة الله بالعباد ، فيفعل المؤمن مايؤمر به ، ولا يحوم حول ما حرمه الله ؛ لأنه لا يأمن حين يرى ما حرم الله أن تميل نفسه إليه ، ولذلك قال: ﴿ ولا تقربا ﴾ فلو أنهما لم يقربا ما كانت الشجرة تغريهما بأى منظر . ولذلك فى كثير من الأشياء التى يحرمها الحق سبحانه وتعالى وفى قمتها ما يصون ويحفظ العقيدة الأساسية ، يقول بعدم الاقتراب أو الاجتناب ، فسبحانه هو القائل :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

ولم يقل : « لا تعبدوا الأوثان » ، بل قال : « فاجتنبوا » ، والشأن فى « الخمر » أيضاً جاء بالاجتناب . لكنّ بعضاً من السطحيين يقولون : لم يرد فى الخمر تحريم بل قال بالاجتناب ، ونقول له : الاجتناب أقوى من المنع ومن التحريم ، لأن غاية التحريم أن يمنعك من شرب الخمر . لكن الاجتناب يقتضى ألا تذهب ناحيتها ، ولا تقعد فى المكان الذى توجد فيه ، ولا تعصرها ولا تحملها .

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأعراف)

والظلم هو تجاوز الحد أو إعطاء الشخص غير حقه ، ويوضح سبحانه : أنا لم أجعل لكما حقًا فى أن تقربا ناحية هذه الشجرة ، فإن قربها أىٌّ منكما ، فهو قد خالف ما شرّعته لكما ، « فتكونا من الظالمين » أى تدخلا فى إطار من يظلمون أنفسهم لأن الله لا يظلم أحداً ، وأنت تظلم نفسك لأنك تعطى نفسك شهوة قليلة فى زمن يسير ، وبعد ذلك تأخذ عقابها عذاباً أليماً فى زمن طويل وبشكل أشد . وهذا ظلم لنفسك ، كما أنّه دليل على أنك غير مأمون عليها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠ ﴾

كلمة « وسوس » تدل على الهمس فى الإغواء ، ونعرف أن الذى يتكلم فى خير لا يهمه أن يسمعه الناس . لكن من يتكلم فى شرّ فيهمس خوفاً من أن يفضحه أحد ، وكأن كل شر لابد أن يأتى همساً ، وصاحبه يعرف أن هذا الكلام لا يصح أن يحدث ، ويستحى منه ، ولا يحب أن يعرف المجتمع عنه هذا الشىء ،

و « وسوس » مأخوذة من الصوت المغرى ، لأن الوسوسة هى صوت رنين الذهب والحلى ، إذن فما قاله الشيطان لآدم وزوجه هو كلام مغرٍ ليلفتهما عن أوامر رب حكيم .

وقوله الحق: ﴿ فوسوس لهما ﴾ يعطينا حيثيات البراءة لحواء ؛ لأن الشائع أن حواء هى التى ألحت على آدم ليأكلا من الشجرة ، وكثير منا يظلم حواء على الرغم من أن القرآن يؤكد أن الوسوسة كانت لآدم وحواء معاً .

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأعراف)

وهل وسوس الشيطان لهما ليبدى لهما ما وورى من سوءاتهما ، أو وسوس ليعصيا الله ؟ . لقد وسوس ليعصيا الله ، وكان يعلم أن هناك عقوبة على المعصية ، ويعلم أنهما حين يأكلان من الشىء الذى حرمه ربنا ستظهر سوءاتهما ، و « السوءة » هى ما يسوء النظر إليه ، ونطلقها على العورة ، والفطرة تستنكف أن يرى الإنسان المكتمل الإنسانية السوءة . وكأنهما فى البداية لم ير أحدهما سوءة الآخر أو سوءة نفسه لأن الحق يقول : ﴿ ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما ﴾ .

والسوءات أربع : اثنتان للرجل واثنتان للمرأة ، فكأن كل إنسان منهما لا يرى سوءتيه ، وكذلك لايرى سوءتي الآخر ، لأن السوءات كلها لها ما يخفيها عن الرؤية ، وهذا كلام معقول جداً . ألم تقل سيدتنا أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ : « ما رأيت ولا رأى منى » ، وفى هذا القول تتجلّى قمة الأدب لأنها لم تجئ حتى باللفظ ، لأن العضو مادام سوءة فهو مبنى على الستر . وذلك حين حدَّث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين »[1] ، تعجبت السيدة عائشة فقال لها : « الأمر أخطر من أن ينظر أحد إلى أحد » .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأعراف)

وبماذا ووری ؟ . لابد أن هناك لباساً كان على كل منهما ، وقال العلماء الكثير عن هذا اللباس ، فمن قائل : إن أظافر الإنسان هي بقية اللباس الذى كان موجوداً عند آدم وحواء ، وهو ما كان يوارى السوءات ، ويقال : إنّ أىّ إنسان يكون فى غاية الضحك والانبساط ، ويريد أن يكتم نَفْسه ، ويمنعها ويحول بينها وبين الضحك إنه يحدث له ذلك لو نظر إلى أظافره ، عندئذ لا يمكنه أن يضحك لأنها بقية لحظة الندم على كشف السوءة . وجرّبها فى نفسك ، تجد نفسك قد منعت من الضحك ، وهذا من عمل الإله .

أو أن الستار الذى كان يوارى السوءة هو النور الإلهى الذى كان يلفهما ، والنور الساطع جداً حين يلف لا يبين ، صحيح أنك بالنور ترى الأشياء ، لكنه إن اشتد عمًى على الأشياء فأخفاها فلا تراها ؛ لأن أى أمر إذا زاد على حدّه انقلب إلى ضده ، فإما أن يكون الثوب الأظافر ، وإما أن يكون النور الإلهى الذى كان يغشاهما ويوارى السوءة ، وقد سميت « سوءة » و « عورة » ، لأنها تسوء ، فلماذا تسوء ؟ وما الفرق بين فتحتين : فتحة فى الفم ، وفتحة فى العورة ؟ .

إن فتحة العورة سوءة باعتبار ما يخرج منها . وحينما كانا يأكلان من إعداد ربنا لم يكونا ـ كما قلنا ـ فى حاجة إلى إخراج فضلات ؛ لأن إعداد الله يعطى كلا منهما على القدر الكافى للحركة والفعل ، وكانت المسألة مجرد فتحات مثل بعضها . لكن حينما يخرجان عن مرادات الله فى الطعام ، ويأكلان غير ما أمر الله به ، ويمارسان اختيار الطعام بدأت الفضلات فى الخروج بما لها من رائحة غير مقبولة ، فهل ظهور السوءة لهما هو رمز إلى أن هناك مخالفة لمنهج الله سواء أكان ذلك فى القيم والمعنويات أم فى الأمور المادية ؟ .

نعم ؛ لأن كل شىء يُخَالَف فيه منهج الله لابد أن تبدو فيه العورة ، وإن رأيت أى عورة فى المجتمع فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عطل . وينقل القرآن ما قاله لهما الشيطان من وسوسة :

﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأعراف)

لقد همس الشيطان وأوحى لهما بأن الحق : أراد ألا تقربا هذه الشجرة لأن من يأكل منها يصير مَلَكاً ، أو خالداً . ولم يمحص أى منهما كلمات الشيطان ليعرف أن كيده كان ضعيفاً واهياً وغبياً ؛ لأنه مادام قد عرف أن من يأكل من هذه الشجرة يصير ملكاً أو يبقى من الخالدين فلماذا لم يخطف منها ما يجعله مَلَكاً أو خالداً ؟ وفى هذا درس يبين لنا أن مَن يُزَيّن له ويتصدى له أحد بالإغواء يجب عليه أن يمحص إلى أى غواية يسير ، وأن يدقق فى نتائج ما سوف يفعل .

وإذا كان الشيطان قد قال :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الأعراف)

فلماذا لم ينقذ نفسه بالأكل من هذه الشجرة وتنتهى المسألة ؟ . إذن كان ما يقوله الشيطان كذباً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

« قاسم » مادة فاعل ، تأتى للمشاركة ، أى أن هناك طرفين اثنين ، كل منهما فاعل فى ناحية ومفعول فى ناحية أخرى ، مثل شارك زيد عمراً ، وهى تعنى أيضاً أن عمراً شارك زيداً ، وهكذا تكون مادة فاعل وتفاعل ، فكل منهما فاعل من جهة ومفعول من جهة . وفى المعنى نجد الاثنين فاعلاً ومفعولاً ، إذن « قاسم » تحتاج إلى عمليتين اثنتين . . فهل جلس إبليس يقسم لآدم ولزوجته ، وهما يقسمان ؟ . ونقول : لا ؛ لأنها تأتى مرة لغير المفاعلة ، أو للمفاعلة اللزومية ، والمفاعلة اللزومية تتضح فى قوله الحق :

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

وواعدنا ، مثلها مثل فاعل ، من الذى واعد ؟ . إنه الله الذى وعد موسى عليه السلام ، ودخل موسى فى الوعد بقبوله الوعد وتوفيته به .

إذن « قاسمهما » أى قبلا القسم ودخلا فيه .

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « قاسم » ، أى أقسم ، ولذلك حينما عاتب ربنا سيدنا آدم أوضح سبحانه : أنا قلت إنه عدو لك ولزوجك ، ولسوف يخرجنكما من الجنة لتتعب وتشقى ، فقال آدم : يا ربى ما كنت أعتقد أن خلقاً من خلقك يقسم بك على الباطل . ولم يأت على البال أن خلقاً يقسم بالله على الباطل . وكانت هذه أول خديعة فى الخلق . ولذلك نجد قتادة ـ رضى الله عنه ـ يقول : « المؤمن بالله يُخدع » .

والنبى عليه الصلاة والسلام عقد على امرأة ودخلت به ، ومن كيد النساء وهن زوجات للنبى صلى الله عليه وسلم وقد خفن أن يشغف بها حُبًّا ، فقلن لها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحب هذه الكلمة ، فإذا دخل عليك فقوليها ! ، قولى : « أعوذ بالله منك » ، ولحظة أن دخل عليها سيدنا رسول الله ، قالت له : « أعوذ بالله منك » . فقال لها : استعذت بمعاذ . ولم يقربها الرسول ، وهذا ما يشرح لنا كيف يُخدع المؤمن بالله . وها هو ذا سيدنا عبدالله بن عمر كان يعتق من العبيد من يحسن الصلاة ويتقنها ويؤديها فى مواعيدها ، ويقف فيها خاشعاً ، وحين عرف العبيد ذلك احترفوا إقامة الصلاة أمام المكان الذى يجلس فيه وكانوا يؤدونها بخشوع ، وكان رضى الله عنه يعتقهم ، وذهب له من يقول : إن العبيد يخدعونك ، فيقول : من خدعنا بالله ، انخدعنا له .

والنصح هنا : إغراء بمخالفة أمر الله ، وكان يجب ألا تكون هناك غفلة من آدم ، وكان لابد أن يقارن بين الأمرين ، بين غواية الشيطان له بالأكل ، وبين أمر الحق سبحانه الذى قال له ولزوجه : لا تقربا . لكنه لم يفعل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَدَلَّـٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ فدلاهما بغرور ﴾ أى فأنزلهما من رتبة الطاعة إلى درك المعصية والذنب مما غرهما به وخدعهما من القسم.و « دلّا » مأخوذة من دلّى رجليه فى البئر كى يرى إن كان فيه ماء أم لا ، أو دلَّى حبل الدلو لينزله فى البئر ، ومعناها : أنه يفعل الشىء مرة فمرة ، و « بغرور » أى بإغراء لكى يوقعهما فى المخالفة ، فأظهر لهما النصح وأبطن لهما الغش .

وهنا وقفة تدل على الاصطراع بين الحق والباطل فى النفس ، ﴿ فلما ذاقا الشجرة ﴾ هذا يدل على أنهما بمجرد المذاق تذكرا أن النزغ من إبليس جعلهما يذهبان إلى الشجرة . وأن ما أخذاه فقط كان مجرد المذاق ، فتنبه كلاهما إلى جسامة الأمر .

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

و « الخصف » أى تأتى بشىء وتلزقه على شىء لتدارى شيئاً . وقديماً حينما كان يبلى نعل الحذاء ، ويظهر به خرق فالإسكافى يضع عليه رقعة من الجلد تكون أوسع من الخرق حتى تتمكن منه .

وهكذا فعل آدم وحواء ؛ أخذا من ورق الجنة ووضعا ورقة على ورقة ليداريا السوءة . وقوله الحق:﴿ وطفقا ﴾ يعنى وجعلا من ورق الشجر غطاء للسوءات .

وهنا يقول الحق :

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

لقد كان التكليف هنا فى أمر واحد ، والإباحة فى أمور متعددة ، وسبحانه لم يكلفهما إلا بأمر واحد هو عدم الاقتراب من الشجرة ، والمباح كان كثيراً ؛ لذلك لم يكن من اللائق أن يتوها عن التكليف . ولم يكن هذا التكليف بالواسطة ولكن كان بالمباشرة ، ولذلك سينفعنا هذا الموقف فى الفهم فى لقطة للقصة فى سورة غير هذه وهو قوله الحق :

﴿ وَعَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

ولم يأت الحق هنا بسيرة المعصية ، وقال لهما :

﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

وسبحانه لا يجرم إلا بنص ، وسبق أن قال سبحانه : ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ وأوضح : أن هناك عنصراً إغوائياً هو إبليس وعداوته مسبقة فى أنه امتنع عن السجود ، وقد طرده الحق لهذا السبب . إذن إنْ آخذهما وعاقبهما الله بهذا الذنب فهو العادل ، وهما اللذان ظلما أنفسهما . وكان لابد أن يكون الجواب : نعم يارب نهيتنا ، وقلت لنا ذلك . وهذا إيراد للحكم بأقوى الأدلة عليه ؛ لأن الحكم قد يأتى بالإخبار ، وقد يأتى بالاستفهام بالإيجاب ، ويكون أقوى لو جاء بالاستفهام بالنفى .

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

ونحن نعلم أن العدو هو الخصم الذى يريد إلحاق الضرر والإيذاء بك ، و « مبين » أى محيط ، وهذا دليل يُظهر عداوة الشيطان وإحاطتها ؛ لأنه قد سبق أن أوضح أنه سيأتى من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم . أو بيِّن العداوة وشديد الخصومة .

ويأتى الإقرار بالذنب من آدم وحواء :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

وتلك هى الكلمات التى قال الله عنها فى سياق آخر :

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة البقرة)

فكأن الحق سبحانه وتعالى قدَّر غفلة خلقه عن المنهج ؛ فشرّع لهم وسائل التوبة إليه ، ووسائل التوبة ثلاث مراحل : تشريعها رحمة ، ثم الإقبال عليها من المذنب اعترافا وإنابة ، وقبولها منه سبحانه رحمة ، فالتشريع يطلب منك أن تفعل ، وحين تتوب يتوب الله عليك .

تشريع التوبة - إذن - رحمة ، لا بالمذنب فقط ، بل وبغيره أيضاً ؛ لأن الله لو لم يشرع التوبة ، كان الذى يعمل معصية ، ولا يجد مغفرة ، يستشرى فى المعاصى ، وإذا استشرى فى المعاصى تعب المجتمع كله .

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهذا هو الموقف بعد الذنب من آدم وزوجته ، وهو يختلف عن موقف إبليس بعد الذنب ؛ فإبليس أراد أن يبرر المخالفة :

﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

فماذا قال آدم وحواء ؟ :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأعراف)

ولذلك كان جزاء إبليس ـ وهو المتأبى على أوامر الله وحكمه ـ أن يطرد من رحمته . وجزاء المعترف بأنه أذنب ، وأنه ظلم نفسه أن تُقبل توبته . إذن لا يصح للناس الذين يقيمون على معصية أن يقول الواحد منهم : « هذه هى ظروفى » ، ويبرر ويحلل ما يفعله من المعاصى ، بل على الواحد منهم ألا يطرد نفسه بنفسه من منطقة الرحمة ، وعليه أن يقول : « ما أفعله حرام ، لكن لا أقدر على نفسى » وبذلك لا يكون قد ردّ الحكم ، بل اتهم نفسه بالتقصير واعترف بالذنب ، فصار أهلاً للمغفرة وأهلا للتوبة .

وهنا نسأل : ما الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم ؟ . ونقول : إبليس عصى وجاء بحيثية رفض الأمر ، لكن آدم عصى وأقر بالذنب وطلب المغفرة .

وحين قال آدم وزوجته حواء : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ معاً وفى نَفَس واحد ، ونغمة حزينة نادمة ، ألا يدل ذلك على أنهما قد تعلماها ؟ . إن كلا منهما لو اعتذر لله بمفرده لاختلفا فى أسلوب الاعتذار .

وهذا دليل على أنها ملقنة ، ولهذا قال ربنا .

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة البقرة)

وهما قد قالا : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ ، وأنفسنا جمع نَفْس ، ولم يقولا « نفسينا » ، بل قالا ﴿ أنفسنا ﴾ أى أن قلبيهما أيضاً قد صفيا وخلصا من أثر تلك المعصية ، وأن ذلك مطمور وداخل فى نفوس ذريتهما .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

ونلتفت لنجد أن هناك أمراً قد سبق لإبليس بالهبوط ، وهنا أمر آخر بالهبوط ، وبالله لو كانت جنة الخلود هى محل إقامتهما ، وآدم مخلوق لها ثم عصى ثم تاب لما خرجا منها أبداً . لكنه سبحانه أمر آدم بأن يهبط إلى الأرض التى جعله خليفة فيها ، ليباشر مهمة الخلافة فى إطار التجربة التى وقعت له ، وعليه أن يحترم أمر الله فى كل تكليف ، وأن يحترم نهى الله فى كل تكليف ، وليحذر عداوة الشيطان فإنه سيوسوس له . وقد جرب ذلك بنفسه ، فلينزل مزوداً بالتجربة ، وليس له عذر من بعد ذلك . ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ .

والأمر هنا للجماعة ؛ ولم يقل لهما اهبطا . وفى آية ثانية قال :

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وذلك لنعرف أن ورود القصة فى أماكن متعددة جاء لتعطى لقطات كثيرة . والأمر هنا جاء بقوله : ﴿ اهبطوا ﴾ لأن الهبوط اشترك فيه الثلاثة ؛ آدم وحواء ، وإبليس . . والعداوة مسبقة ولا ندعيها . العداوة بين طرفين : اثنان فى طرف هما آدم وحواء ، وواحد فى طرف هو إبليس . ويريد الحق لنا بيان الحقائق وأن المتكلم إله ، إنّ كل حرف عنده بميزان ؛ ولذلك نجده سبحانه يقول لنا :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النساء)

أى إياك أن تأخذ واجهة النص ، ولكن ابحث فى خلفيات النص ، ولا تأخذ واجهة اللفظ ، بل انظر إلى ما وراء الألفاظ .

﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وكلمة « عدو » تعنى وجود صراع ، ومعارك سوف تقوم بين أولاد آدم بعضهم مع بعض ، أو تقع العداوة بينهم وبين أعدائهم من سكان الأرض من جن وغيرهم ، لكنها لمدة محدودة ، ولذلك قال : ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ .

أى أن لكم استقراراً فى الأرض ومتاعاً إلى حين . وصراع صاحب الحق فى الحق يجب أن يأخذه على أنه متاع فى الدنيا ولا يأخذه على أنه معركة بلا جزاء ، لا ، فأنت تجاهد وتأخذ جزاء كبيراً على الجهاد وهذا متاع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

كأنه قال:﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ فأحب أن يعطينا الصور لرحلة الحياة ، ويرسم لنا علاقتنا بالأرض التى قال فيها :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

فقد ربطنا بالأرض . إيجاداً من طينها ، ومتعة بما فيها من ميزات ، وخيرات وثمرات ، ثم تموت لنعود لها ونبعث من بعد ذلك . فالإنسان منا من الأرض ، منها يحيا وفيها يموت ، ويذهب إلى أصله ومرجعه ، إلى الأم الأرض ، فهى تكفته وتضمه وتأخذه فى حضنها فهى الحانية عليه وبخاصة فى وقت ضعفه . وساعة ما يكون الإنسان فى حالته الطيبة ، وله أخ حالته عكس ذلك فإن قلب الأم إنما يكون مع الضعيف ، ومع المريض ، ومع الصغير .

والأرض هى التى تأخذ كل البشر ، تأخذ الإنسان وتمص منه الأذى ، وتدارى

رائحته ، أمّا أحبابه فى الدنيا وإخوانه ، فقد سارعوا بمواراته التراب تفادياً لرحلة التحلل . وبمجرد أن يموت الإنسان ، أول ما يُنْسَى هو اسمه ؛ فيقولون : « أين الجثة » ، ولا يقولون : « أين فلان » . وبعد الكفن يوضع الجثمان فى النعش ، ليوارى فى التراب ويدمدم اللحاد عليه برجليه .

وينتقل الحق بعد ذلك بالخطاب إلى أبناء آدم فيقول :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ ﴾

وكلمة ﴿ يا بنى آدم ﴾ لفت إلى أن تتذكروا ماضى أبيكم مع عدوكم المبين ، إبليس ، أنتم أولاد آدم ، والشيطان موجود ، فانتبهوا . لقد أنزل الحق عليكم لباسا يوارى سوءاتكم ؛ لأن أول مخالفة حدثت كشفت السوءة ، والإنزال يقتضى جهة علو لنفهم أن كل خير فى الأرض يهبط مدده من السماء ، وسبحانه هو من أنزل اللباس لأنه هو الذى أنزل المطر ، والمطر روى بذور النبات فخرجت النباتات التى غزلناها فصارت ملابس ، وكأنك لو نسبت كل خير لوجدته هابطا من السماء . ولذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على عباده فيقول :

﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ ﴾

(من الآية ٦ سورة الزمر)

نعم هو الذى أنزل من الأنعام أيضاً لأن السببية فى النبات من مرحلة أولى ، والسببية فى الحيوان من مرحلة ثانية ، فهو الذى جعل النبات يخرج من الأرض ليتغذى عليه الحيوان ، ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ

﴿ ... بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

نعم فسبحانه هو من أنزل الحديد أيضاً ؛ لأننا نأخذه من الأرض التى خلقها الله ، وهذا دليل على أن التنزيلات إنما أراد الله أن يحمى بها كل منهج .

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

فإذا كنا قد أنزلنا اللباس الذى يوارى سوءات الحس وسوءات المادة ، كذلك أنزلنا اللباس الذى يوارى سوءات القيم . فكما أنكم تحسّون وتدركون أن اللباس المادى يدارى ويوارى السوءة المادية الحسية فيجب أن تعلموا أيضاً أن اللباس الذى ينزله الله من القيم إنما يوارى ويستر به سوءاتكم المعنوية . ولباس الحياة المادية لم يقف عند مواراة السوءات فقط ، بل تعدى ذلك إلى ترف الحياة أيضاً . لذلك قال الحق :

﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

والريش كساء الطير ، وقديماً كانوا يأخذون ريش الطير ليزينوا به الملابس . وكانوا يضعون الريش على التيجان ، وأخذ العوام هذه الكلمة وقالوا : فلان مريش أى لا يملك مقومات الحياة فقط ، بل عنده ترف الحياة أيضاً ، فكأن هذا القول الكريم قد جاء بمشروعية الترف شريطة أن يكون ذلك فى حل . وقبل أن يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى مقومات الحياة لفتنا إلى الجمال فى الحياة ، فقال سبحانه :

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾

(من الآية ٨ سورة النحل)

والركوب لتجنب المشقة ، والزينة من أجل الجَمَال .

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

بل سبحانه طلب زينتنا فى اللقاء له فى بيته فيقول :

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

إذن فهذا أمر بالزينة ، وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه :

﴿ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

نعم إن لباس التقوى خير من ذلك كله ؛ لأن اللباس المادى يستر العورة المادية ، وقصاراه أن يكون فيه مواراة وستر لفضوح الدنيا ، لكن لباس التقوى يوارى عنا فضوح الآخرة .

أو لباس التقوى هو الذى تتقون به أهوال الحروب ؛ إنّه خير من لباس الزينة والرياش لأنكم تحمون به أنفسكم من القتل ، أو ذلك اللباس ـ لباس التقوى ـ خير من اللباس المادى وهو من آيات الله ، أى من عجائبه ، وهو من الأشياء اللافتة ؛ فالإنسان منكم مكون من مادة لها احتياجات مادية وعورات مادية ، وهناك أمور قيمية لا تنتظم الحياة إلا بها ، وقد أعطاك الحق مقومات الحياة المادية ، وزينة الحياة المادية ، وأعطاك ما تحيا به فى السلم والحرب ، ومنهج التقوى يحقق لك كل هذه المزايا . فخذ الآيات مما تعلم ومما تحس لتستنبط منها ما يغيب عنك مما لا تحس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ ﴾

قبل أن يطلب منا سبحانه ألا نفتتن بالشيطان ، أوضح أنه قد رتب لنا كل مقومات الحياة ، وعلينا أن نتذكر موقف الشيطان ، من أبينا آدم وإغواءه له .

والفتنة فى الأصل هى الاختبار ، وتُطلق ـ أحياناً ـ على الأثر السيئ حيث تكون أشد من القتل ، لكن هل يسقط الإنسان فى كل فتنة ؟ لا ؛ لأن الفتنة هى الاختبار ، وفى الاختبار إما أن ينجح الإنسان ، وإمّا أن يرسب ، فإن نجح أعطته الفتنة خيراً وإن رسب تعطه شرًا .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى قصة خلق آدم ، وأعلمنا أنه خلقه للخلافة فى الأرض ، وأن موضوع الجنة هو حلقة مقدمة لتلقى الخلافة ؛ لأنه إذا ما أصبح خليفة فى الأرض ؛ فلله منهج يحكمه فى كل حركاته ، ومادام له منهج يحكمه فى كل حركاته فرحمة به لم ينزله الله للأرض ابتداءً ليتلقى المنهج بدون تدريب واقعى على المنهج ، فجعل الجنة مرحلة من مراحل ما قبل الاستخلاف فى الأرض ، وحذره من الشيطان الذى أبى أن يسجد له ، وأراد منه أن يأخذ التجربة فى التكليف . وكل تكليف محصور فى « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » ؛ لذلك شاء الله أن يجعل له فى الجنة فترة تدريب على المهمة ؛ لينزل إلى الأرض مباشراً مهمة الخلافة بعد أن زود بالتجربة الفعلية الواقعية ، وأوضح له : أَنْ كُلْ مِنْ كُلّ ما فى الجنة ، ولكن لا تقرب هذه الشجرة . و﴿ كُلْ ﴾ أَمْرٌ ، و﴿ لا تقرب ﴾ نَهْىٌ . وكل تكليف شرعى هو بين « لا تفعل » وبين « افعل » .

وبعد ذلك حذره من الشيطان الذى يضع ويجعل له العقبات فى تنفيذ منهج الله ، فلما قرب آدم وحواء الشجرة وأكلا منها ؛ خالفا أمر الله فى ﴿ولا تقربا﴾ ، وأراد الله أن يبين لهما بالتجربة الواقعية أن مخالفة أمر الله لابد أن ينشأ عنها عورة تظهر فى الحياة ، فبدت له ولزوجته سوءاتهما ، فلما بدت لهما سوءاتهما علم كل منهما أن مخالفة أمر الله تُظهر عورات الأرض وعورات المجتمع ، فأمره الله : أن اهبط إلى الأرض مزوداً بهذه التجربة .

ولما هبط آدم وزوجه إلى الأرض أرسل إليه منهج السماء بعد التجربة ، وأراد أن يبين لنا أنه عصى أمر ربه فى قوله : ﴿ ولا تقربا ﴾ ، وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه ، وأراد سبحانه أن يبين لنا أن آدم يتمثل فيه أنه بشر يصيب ويخطئ ، وتدركه الغفلة ، وقد يخالف منهج الله فى شىء ، ثم يستيقظ من غفلته فيتوب ، وبعد أن كلفه أن يبلغ رسالة الله وصار نبيًّا ؛ جاءت له العصمة فلا يغفل ولا ينسى فى تبليغ الرسالة .

ولذلك يجب أن نفطن إلى النص القرآنى :

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

إنّ هذه طبيعة البشر أن يعصى ثم يتوب إن أراد التوبة ، ولابد أن نفطن أيضاً إلى قوله الحق : ﴿ ثم اجتباه ربه ﴾.

إذن فالاصطفاء جاء بعد المعصية ؛ لأن عصيانه كان أمراً طبيعيًّا لأنه بشر ، يخطئ ويصيب ، ويسهو ويغفل . ولكن بعد أن خرج من الجنة اجتباه الله ليكون نبيًّا ورسولاً ، ومادام قد صار نبيًّا ورسولاً فالعصمة تأتى له :

﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾

(سورة طه)

إذن لا يصح لنا أن نقول : كيف يعصى آدم وهو نبى ؟! نقول : تنبه إلى أن

النبوة لم تأته إلا بعد أن عصى وتاب ؛ فهو يمثل مرحلة البشرية لأنه أبو البشرية كلها ، والبشرية منقسمة إلى قسمين : بشر مبلّغون عن الله ، وأنبياء يبلّغون عن الله ، فله فى البشرية أنه عصى ، وله فى النبوة أن ربه قد اجتباه فتاب عليه وهداه . والذين يقولون : إن آدم كان مخلوقاً للجنة ، نقول لهم : لا . افهموا عن الله ، لأنه يقول : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ .

إن أمر الجنة كان مرحلة من المراحل التى سبقت الخلافة فى الأرض . إنها كانت تدريباً على المهمة التى سيقوم بها فى الأرض ، وإلّا فلو أن آدم قد خلقه الله للجنة وأن المعصية أخرجته ، إلا أن الله قد قبل منه توبته ، ومادام قد قبل توبته فكان يجب أن يبقيه فى الجنة ، ومن هنا نقول ونؤكد أن الجنة كانت مرحلة من المراحل التى سبقت الخلافة فى الأرض . وبعد ذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يخلع علينا التجربة لآدم حتى نتعظ بها ، وأن نعرف عداوة الشيطان لنا ، وألّا نقع فى الفتنة كما وقع آدم .

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

وهذا نهى لبنى آدم وليس نهيا للشيطان ، وهذا فى مُكنة الإنسان أن يفعل أو لا يفعل ، فسبحانه لا ينهى الإنسان عن شىء ليس فى مكنته ، بل ينهاه عما فى مكنته ، والشيطان قد أقسم أن يفتنه وسيفعل ذلك لأنه أقسم وقال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ . فإياكم أن تنخدعوا بفتنة الشيطان ؛ لأن أمره مع أبيكم واضح ، ويجب أن تنسحب تجربته مع أبيكم عليكم فلا يفتننكم كما أخرج أبويكم من الجنة ، ويتساءل البعض : لماذا لم يقل الله : لا يفتننكم الشيطان كما فتن أبويكم ، وقال : « لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » ؟ . ونقول : هذا هو السمو والافتنان الراقى فى الأداء البيانى للقرآن .

وإن هذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يخرجنا من جنة التكليف . كما فتن أبوينا فأخرجهما من جنة التجربة . ويقال عن هذا الأسلوب إنه أسلوب احتباك ،

وهو أن تجعل الكلام شطرين وتحذف من كل منهما نظير ماأثبت فى الآخر قصد الاختصار . وهذا هو الأسلوب الذى يؤدى المعنى بمنتهى الإيجاز ؛ لينبه ذهن السامع لكلام الله . فيلتقط من الأداء حكمة الأداء وإيجاز الأداء ، وعدم الفضول فى الأساليب .

﴿ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

والفتنة ـ كما علمنا ـ هى فى الأصل الاختبار حتى ننقى الشىء من الشوائب التى تختلط به ، فإذا كانت الشوائب فى ذهب فنحن نعلم أن الذهب مخلوط بنحاس أو بمعدن آخر ، وحين نريد أن نأخذ الذهب خالصاً نفتنه على النار حتى ينفض ويزيل عنه ما علق به . كذلك الفتنة بالنسبة للناس ، إنها تأتى اختباراً للإنسان لينقى نفسه من شوائب هذه المسألة ، وليتذكر ما صنع إبليس بآدم وحواء . فإذا ما جاء ليفتنك فإياك أن تفتن ؛ لأن الفتنة ستضرك كما سبق أن ألحقت الضرر بأبيك آدم وأمك حواء . والشيطان هو المتمرد على منهج الله من الجن ، والجن جنس منه المؤمن ومنه الكافر . فقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الجن)

والشيطان المتمرد من هذا الجنس على منهج الله ليس واحداً ، واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

و « قبيله » هم جنوده وذريته الذين ينشرهم فى الكون ليحقق قَسَمَه :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

إذن ففتنة الشيطان إنما جاءت لتخرج خلق الله عن منهج الله ، وحينما عصى إبليس ربّه عزّ عليه ذلك ، فبعد أن كان فى قمة الطاعة صار عاصيًا لأمر الله معصية أدّته وأوصلته إلى الكفر ؛ لأنه ردّ الحكم على الله . إن ذلك قد أوغر صدره وأحنقه ، وجعله يوغل ويسرف فى عداوة الإنسان لأنه عرف أن طرده ولعنه كان بسبب آدم وذريته .

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

وهذا يدل على أن المراد ذرية الشيطان ، فلو كان المراد شياطين الإنس معهم لما قال : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ .

وعلى ذلك فهذه الآية خاصة بالذرية ، ويعلمنا الحق سبحانه وتعالى أن نتنبه إلى أن الشيطان لن يكتفى بنفسه ولن يكتفى بالذرية بل سيزين لقوم من البشر أن يكونوا شياطين الإنس كما وُجد شباطين الجن ، وهم من قال فيهم سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

وكلمة « زخرف القول » تعنى الاستمالة التى تجعل الإنسان يرتكب المعصية وينفعل لها ، ويتأثر بزخارف القول . وكل معصية فى الكون هكذا تبدأ من زخرف القول ، فللباطل دعاته ، ومروجوه ، ومعلنوه ، إنهم يزينون للإنسان بعض شهواته التى تصرفه عن منهج الله ، ونلاحظ أن أعداء الله ، وأعداء منهج الله يترصدون مواسم الإيمان فى البشر ، فإذا ما جاء موسم الإيمان خاف أعداء الله أن يمر الموسم تاركاً هبة إيمان فى نفوس الناس ، فيحاولوا أن يكتلوا جهودهم حتى يحرموا الناس نفحة الموسم ، فإذا ما حرموا الناس من نفحة الموسم فقد حققوا

غرضهم فى العداوة للإسلام . ﴿ إنه يراكم هو وقبيله ﴾ .

إن الشيطان يراكم أيها المكلفون هو وقبيله . والقبيل تدل على جماعة أقلها ثلاثة من أجناس مختلفة أو جماعة ينتسبون إلى أب وأم واحدة . واختلف العلماء حول المراد من هذا القول الكريم ؛ فقال قوم : ﴿ إنهم جنوده وذريته ﴾ . ويقصدون جنوده من البشر ، ولم يلتفتوا إلى قول الحق:﴿ من حيث لا ترونهم ﴾ فلابد أن يكون المراد بالقبيل هنا الذرية ؛ لأننا نرى البشر ، وفى قوله الحق تغليظ لشدة الحذر والتنبه ؛ لأن العدو الذى تراه تستطيع أن تدفع ضرره ، ولكن العدو الذى يراك ولا تراه عداوته شديدة وكيده أشد ، والجن يرانا ولا نراه ، وبعض من العلماء علل ذلك لأننا مخلوقون من طين وهو كثيف ، وهم مخلوقون من نار وهى شفيفة .

فالشفيف يستطيع أن يؤثر فى الكثيف ، بدليل أننا نحس حرارة النار وبيننا وبينها جدار ، ولكن الكثيف لا يستطيع أن يؤثر فى الشفيف ولا ينفذ منه . إذن فنفوذ الجن وشفافيته أكثر من شفافية الإنسان ، ولذلك أخذ خفة حركته . ونحن لا نراه .

إذن معنى ذلك أن الشيطان لا يُرى ، ولكن إذا كان ثبت فى الآثار الصحيحة أن الشيطان قد رُئى وهو من نار ، والملائكة من نور ، والاثنان كل منهما جنس خفى مستور ، وقد تشكل المَلك بهيئة إنسان ، وجاء لرسول الله وقال لنا صلى الله عليه وسلم : « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم »[1] .

وعلى ذلك رأى السابقون المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل لا على صورة ملائكيّته ، ولكن على صورة تتسق مع جنس البشر ، فيتمثل لهم مادة .

وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الشيطان وقال : « إن عفريتا من الجن جعل يفتك علىّ البارحة ليقطع علىّ الصلاة ، وإن الله أمكننى منه فَذَعَتّهُ فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون »[2] .

---

(١) رواه مسلم فى الإيمان .
(٢) رواه مسلم فى المساجد ، والبخارى فى الصلاة ، وأحمد ، ومعنى : « فَذَعَتّهُ » : أى خنقته .

وذلك من أدب النبوة . إذن فالشيطان يتمثل وأنت لا تراه على حقيقته ، فإذا ما أرادك أن تراه . . فهو يظهر على صورة مادية . وقد ناقش العلماء هذا الأمر نقاشاً يدل على حرصهم على فهم كتاب الله ، ويدل على حرصهم على تجلية مراداته وأسراره ، فقال بعضهم : حين يقول الله إن الشيطان يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، لابد أن نقول : إننا لن نراه .

وأقول : إن الإنسان إن رأى الجنى فلن يراه على صورته ، بل على صورة مادية يتشكل بها ، وهذه الصورة تتسق وتتفق مع بشرية الإنسان ؛ لأن الجنى لو تصور بصورة مادية كإنسان أو حيوان أو شيء آخر يمكن أن يراه الإنسان ، وحينئذ لفقدنا الوثوق بشخص من نراه ، هل هو الشيء الذى نعرفه أو هو شيطان قد تمثل به ؟

إن الوثوق من معرفة الأشخاص أمر ضرورى لحركة الحياة ، وحركة المجتمع ؛ لأنك لا تعطف على ابنك إلا لأنك تعلم أنه ابنك ومحسوب عليك ، ولا تثق فى صديقك إلا إذا عرفت أنه صديقك . ولا تأخذ علماً إلا من عالم تثق به . وهب أن الشيطان يتمثل بصورة شخص تعرفه ، وهنا سيشكك هذا الشيطان ويمنع عنك الوثوق بالشخص الذى يتمثل فى صورته . وأيضاً أعدى أعداء الشيطان هم الذين يبصرون بمنهج الله وهم العلماء ، فما الذى يمنع أن يتشكل الشيطان بصورة عالم موثوق فى علمه ، ثم يقول كلاماً مناقضاً لمنهج الله ؟ .

إذن فالشيطان لا يتمثل ، هكذا قال بعض العلماء ، ونقول لهم : أنتم فهمتم أن الشيطان حين يتمثل ، يتمثل تمثلاً استمرارياً ، لا . هو يتمثل تمثل الومضة ؛ لأن الشيطان يعلم أنه لو تشكل بصورة إنسان أو بصورة مادية لحكمته الصورة التى انتقل إليها ، وإذا حكمته الصورة التى انتقل إليها فقد يقتله من يملك سلاحاً ، إنه يخاف منا أكثر مما نخاف منه ، ويخاف أن يظهر ظهوراً استمرارياً ؛ لذلك يختار التمثل كومضة ، ثم يختفى ، والإنسان إذا تأمل الجنى المشكل . سيجد فيه شيئاً مخالفاً ، كأن يتمثل ـ مثلا ـ فى هيئة رجل له ساق عنزة لتلتفت إليه كومضة ويختفى ؛ لأنه يخاف أن تكون قد عرفت أن الصورة التى يتشكل بها تحكمه . وإذا عرفت ذلك أمكنك أن تصرعه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

والشياطين مِن جَعْل الله ، وسبحانه خلّى بينهم وبين الذين يريدون أن يفتنوهم وإلا لو أراد الله منعهم من أن يفتنوهم . لفعل . . إذن فكل شيء في الوجود ، أو كل حدث في الوجود يحتاج إلى أمرين : طاقة تفعل الفعل ، وداعٍ لفعل الفعل . فإذا ما كانت عند الإنسان الطاقة للفعل ، والداعى إلى الفعل ، فإبراز الفعل في الصورة النهائية نستمدها من عطاء الله من الطاقة التي منحها الله للإنسان . فأنت تقول : العامل النساج نسج قطعة من القماش في غاية الدقة ، ونقول : إن العامل لم ينسج ، وإنما نسجت الآلة ، والآلة لم تنسج ، لكن الصانع الذي صنعها أرادها كذلك ، والصانع لم يصممها إلا بالعــالم الذي ابتكر قانون الحركة بها .

إذن فالعامل قد وجّه الطاقة المخلوقة للمهندس في أن تعمل ، واعتمد على طاقة المهندس الذي صنعها في المصنع ، والمهندس اعتمد على طاقة الابتكار وعلى العالم الذي ابتكر قانون الحركة ، والعالم قد ابتكرها بعقل خلقه الله ، وفي مادة خلقها الله .

إذن فكل شيء يعود إلى الله فعلاً ؛ لأنه خالق الطاقة ، وخالق من يستعمل الطاقة ، والإنسان يوجه الطاقة فقط ، فإذا قلت : العامل نسج يصح قولك ، وإذا قلت : الآلة نسجت ، صح قولك ، وإذا قلت : إن المصنع هو الذي نسج صح قولك . إذن فالمسألة كلها مردها في الفعل إلى الله . وأنت وجهت الطاقة المخلوقة لله بالقدرة المخلوقة لله في فعل أمر من الأمور . فإذا قال الله ﴿ إنا جعلنا الشياطين ﴾ أي خلّينا بينهم وبين المفتونين بهم ، غير أننا لو أردنا ألّا يفتنوا أحداً لما فتنوه . وهذا ما فهمه إبليس .

﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(من الآية ٢٨٢ ، والآية ٢٨٣ سورة ص)

إذن من يريده الله معصوماً لا يستطيع الشيطان أن يغويه ، وتعلم الشياطين أن الله خلّى بينهم فى الاختيار ، وهذه اسمها تخلية ؛ ولذلك لا معركة بين العلماء . فمنهجهم أن الطاقة مخلوقة لله ، ونسب كل فعل إلى الله ، ومنهم من رأى أنَّ موجّه الطاقة من البشر فينسب الفعل للبشر ، ومنهم من رأى طلاقة قدرة الله فى أنه الفاعل لكل شيء ، ومنهم من قال : إن الإنسان هو الذى فعل المعصية . . أى أنه وجه الطاقة إلى عمل والطاقة صالحة له ، فربنا يعذبه على توجيه الطاقة للفعل الضار ولا خلاف بينهم جميعاً .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

إذن جعل الله الشياطين أولياء لمن لم يؤمن ، ولكن الذى آمن لا يتخذه الشيطان وليًّا .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

والفاحشة مأخوذة من التفحش أى التزيد فى القبح ، ولذلك صرفها بعض العلماء إلى لون خاص من الذنوب ، وهو الزنا ، لأن هذا تزيد فى القبح ، فكل معصية يرتكبها الإنسان تنتهى بأثرها ، لكن الزنا يخلف آثاراً . . فإمّا أن يوأد المولود ، وإما أن تجهض المرأة ، وإما أن تلد طفلها وتلقيه بعيداً ، ويعيش طريداً فى المجتمع لا يجد مسئولاً عنه ، وهكذا تصبح المسألة ممتدة امتداداً أكثر من أى معصية أخرى . وتصنع هذه المعصية الشك فى المجتمع . ولنا أن نتصور أن إنساناً يشك فى أن من ينسبون إليه ويحملون اسمه ليسوا من صلبه ، وهذه بلوى

كبيرة للغاية . والذين قالوا : إن الفاحشة المقصود بها الزنا نظروا إلى قول الله سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

أو الفاحشة هى ما فيه حد ، أو الفاحشة هى الكبائر ، ونحن نأخذها على أنها التزيد فى القبح على أى لون من الألوان .

فما هى الفاحشة المقصودة هنا ؟ . إنها الفواحش التى تقدمت فى قوله :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة المائدة)

وكذلك ما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأنعام)

وكذلك فى قوله الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة الأنعام)

أو أن المقصود أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، فيطوف الرجال نهاراً ، والنساء يطفن ليلاً ، لماذا ؟ . لأنهم ادَّعَوْا الورع . وقالوا : نريد أن نطوف إلى بيت ربنا كما ولدتنا أمهاتنا ، وأن نتجرد من متاع الدنيا ، ولا نطوف ببيت الله فى ثياب عصينا الله فيها .

وقولهم : « وجدنا عليها آباءنا » تقليد ، والتقليد لا يعطى حكماً تكليفياً ، وإن

أعطى علماً تدريبيا ، بأن ندرب الأولاد على مطلوب الله من المكلف ليستطيعوا ويألفوا ما يكلفون به عندما يصلون إلى سن التكليف . ومما يدل على أن التقليد لا يعطى حقيقة ، أنك تجد المذهبين المتناقضين ـ الشيوعية والرأسمالية مثلاً ـ مقلدين ؛ لهذا المذهب مقلدون ، ولهذا المذهب مقلدون . فلو أن التقليد معترف به حقيقة لكان التقليدان المتضادان حقيقة ، والمتضادان لا يصبحان حقيقة ؛ لأنهم ـ كما يقولون ـ الضدان لا يجتمعان ، هذا هو الدليل العقلى فى إبطال التقليد . ولذلك نلاحظ فى أسلوب الأداء القرآنى أنه أداء دقيق جداً ؛ فالذى يتكلم إله .

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأعراف)

والرد من الله عليهم أنه سبحانه لم يأت فى مسألة التقليد بردّ لأنه بداهة لا يؤدى إلى حقيقة ، بل قال :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأعراف)

وهذا رد على قولهم : والله أمرنا بها . وأين الرد على قولهم : ﴿ وجدنا عليها آباءنا ﴾ ؟ .

نقول إنه أمر لا يحتاج إلى رد ؛ لأنه أمر يرفضه العقل الفطرى ، ولذلك ترك الله الرد عليه ؛ لوضوح بطلانه عند العقل الفطرى ، وجاء بالرد على ادعائهم أن الله يأمر بالفحشاء ، فالله لا يأمر بالفحشاء . ثم كيف كان أمر الله لكم ؟ . أهو أمر مباشر ، . بمعنى أنه قد أمر كل واحد منكم أن يرتكب فاحشة ؟ ألم تنتبهوا إلى قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ٥١ سورة الشورى)

أم بلغكم الأمر بالفاحشة عن طريق نبى فكيف ذلك وأنتم تكذبون مجىء الرسول ؟ . وهكذا يكون قولكم مردوداً من جهتين : الجهة الأولى : إنه لا طريق

إلى معرفة أمر الله إلا بأن يخاطبكم مباشرة أو يخاطبكم بواسطة رسل ؛ لأنكم لستم أهلاً للخطاب المباشر ، والجهة الثانية : أنكم تنكرون مسألة الأنبياء والرسل . فأنتم لم يخاطبكم الله بالمباشرة أو بواسطة الرسل فلم يبق إلا أن يقال لكم :

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأعراف)

ولا جواب على السؤال إلا بأمرين : إما أن يقولوا : « لا » فقد كذبوا أنفسهم ، وإما أن يقولوا : « نعم » ؛ فإذا قالوا : نعم نقول على الله ما لا نعلم ؛ فقد فضحوا أنفسهم وأقروا بأن الله لم يأمر بالفاحشة ، بل أمر الله بالقسط ، لذلك يقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) ﴾

والقِسط هو العدل من قسط قِسطاً ، وأمّا قاسط فهى اسم فاعل من قسط قَسْطاً وقُسُوطاً أى جار وعدل عن الحق ، والقاسطون هم المنحرفون والمائلون عن الحق والظالمون ، وكلمة العدل هى التسوية ، فإن ملت إلى الحق ، فذلك العدل المحبوب . وإن ملت إلى الباطل ، فذلك أمر مكروه ﴿ قل أمر ربى بالقسط ﴾ .

وهذه جملة خبرية .

﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

وهذا فعل أمر ، وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا من عطف الأمر على الخبر ، ولكن لنلتفت أن الحق يعطفها على « قل » ، فكأن المقصود هو أن يقول : « قل أمر ربى بالقسط ، وقل أقيموا وجوهكم عند كل مسجد » .

والوجه هو السمة المعينة للشخص ؛ لأن الإنسان إن أخفى وجهه لن تعرفه إلا إن كان له لباس مميز لايرتديه إلا هو . والوجه أشرف شيء فى التكوين الجسمى ، ولذلك كان السجود هو وضع الوجه فى الأرض ، وهذا منتهى الخضوع لأمر الله بالسجود ؛ لأن السجود من الفاعل المختار وهو الإنسان يكون بوضع الجبهة على الأرض . وكل شيء خاضع لحكم الله نقول عنه : إنه ساجد .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

والشجر يسجد وهو نبات ، والدواب تسجد وهى من جنس الحيوان ، والشمس والقمر والنجوم والجبال من الجماد وهى أيضا ساجدة ، لكن حين جاء الحديث عن الإنسان قسمها سبحانه وقال :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

لأن الإنسان له خاصية الاختيار ، وبقية الكائنات ليس لها اختيار . إذن فالسجود قد يكون لغير ذى وجه ، والمراد منه مجرد الخضوع ، أما الإنسان فالسجود يكون بالوجه ليعرف أنه مستخلف وكل الكائنات مسخرة لخدمته وطائعة وكلها تسبح ربنا ، فإذا كان السيد الذى تخدمه كل هذه الأجناس حيواناً ، ونباتاً ، وجماداً قد وضع وجهه على الأرض فهو خاضع من أول الأمر حين نقول عنه إنه ساجد .

﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

والإقامة أن تضع الشيء فيما هيئ له وخُلق وطُلب منه ، وإن وجهته لناحية ثانية تكون قد ثنيته وأملته وحنيته ، وعوَّجته . إذن فإقامة الوجه تكون بالسجود ؛ لأن الذى سخر لك هذا الوجود وحكمك بمنهج التكليف هو من جعلت وجهك فى الأرض من أجله ، وإن لم تفعل ذلك فأنت تختار الاعوجاج لوجهك ، واعلم أن

هذا الخضوع والخشوع والسجود لله لن يعطيك فقط السيادة على الأجناس الأخرى التى تعطيك خير الدنيا ، ولكن وضع جبهتك ووجهك على الأرض يعطيك البركة فى العمل ويعطيك خير الآخرة أيضاً . والعاقل هو من يعرف أنه أخذ السيادة على الأجناس فيتقن العبودية لله ، فيأخذ خيرى الدنيا والآخرة حيث لا يفوته فيها النعيم ولا يفوت هو النعيم ، أمّا فى الدنيا فأنت تقبل عليها باستخلاف وتعلم أنك قد يفوتك النعيم ، أو تفوت أنت النعيم ، وحين تتذكر الله وتكون خاضعاً لله فأنت تنال البركة فى حركة الاستخلاف .

﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

والمسجد مكان السجود ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونُصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم وجعلت لى الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون »[1] .

إذن فكل موضع فى الأرض مسجد ؛ فإن دخلت معبداً لتصلى فهذا مسجد . والأرض كلها مسجد لك . يصح أن تسجد وتصلى فيها . وتزاول فيها عملك أيضاً ، ففى المصنع تزاول صنعتك فيه ، وحين يأتى وقت الصلاة تصلى ، وكذلك الحقل تصلى فيه ، لكن المسجد الاصطلاحى هو المكان الذى حُبس على المسجدية وقصر عليها ، ولا يزاول فيه شىء آخر . فإن أخذت المسجد على أن الأرض مسجد كلها تكن ﴿ أقيموا وجوهكم ﴾ فى جميع أنحاء الأرض . وإن أخذتها على المسجد ، فالمقصود إقامة الصلاة فى المكان المخصوص ، وله متجه وهو الكعبة . وكذلك يكون اتجاهك وأنت تصلى فى أى مكان . والمساجد نسميها بيوت الله ولكن باختيار خلق الله ، فبعضنا يبنى مسجداً هنا أو هناك . ويتجهون إلى بيت باختيار الله وهو الكعبة . ولذلك كانت كعبة ومتوجهاً لجميع بيوت الله .

---

(١) رواه مسلم والترمذى عن أبى هريرة .

وقصارى الأمر أن نجعل قبلة المسجد متجهة إلى الكعبة وأن نقيم الوجه عليها ، أى على الوجه الذى تستقيم فيه العبادة . وهو أن تتجهوا وأنتم فى صلاتكم إلى الكعبة فهى بيت الله باختيار الله .

وساعة ما تصادفك الصلاة صل فى أى مسجد ، أو ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ﴾ يقصد بها التوجه للصلاة فى المسجد ، وهنا اختلف العلماء ، هل أداء الصلاة وإقامتها فى المسجد ندباً أو حتماً ؟ . والأكثرية منهم قالوا ندباً ، والأقلية قالوا حتماً . ونقول : الحتمية لا دليل عليها .

من قال بحتمية الصلاة فى المسجد استدل بقوله صلى الله عليه وسلم :

والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحتطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلا فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم[1] .

ونقول : هل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أو لم يفعل ؟ لم يفعل رسول الله ذلك ، إنما أراد بالأمر التغليظ ليشجعنا على الصلاة فى المساجد عند أى أذان للصلاة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

والدعاء : طلب من عاجز يتجه به لقادر فى فعل يحبه الداعى . وحين تدعو ربك ادعه مخلصاً له الدين بحيث لايكون فى بالك الأسباب ؛ لأن الأسباب إن كانت فى بالك فأنت لم تخلص الدين ، لأن معنى الإخلاص هو تصفية أى شىء من الشوائب التى فيه ، والشوائب فى العقائد وفى الأعمال تفسد الإتقان والإخلاص ، وإياكم أن تفهموا أن أحداً لا تأتى له هذه المسألة ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

---

(١) متفق عليه .

« إنّى لَيُغَانُ على قلبى وإنى لأستغفر الله كل يوم مائة مرة »[1] .

إذن فالإخلاص عملية قلبية ، وأنت حين تدعو الله ادعه دائماً عن اضطرار ، ومعنى اضطرار . أن ينقطع رجاؤك وأملك بالأسباب كلها . فذهبت للمسبب ، ومادمت مضطراً سيجيب ربنا دعوتك ؛ لأنك استنفدت الأسباب ، وبعض الناس يدعون الله عن ترف ، فالإنسان قد يملك طعام يومه ويقول : ارزقنى ، ويكون له سكن طيب ويقول : أريد بيتاً أملكه . إذن فبعضنا يدعو بأشياء لله فيها أسباب ، فيجب أن نأخذ بها ، وغالبية دعائنا عن غير اضطرار . وأنا أتحدى أن يكون إنسان قد انتهى به أمر إلى الاضطرار ولا يجيبه الله .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

والله سبحانه يخاطب الإنسان ، ويحننه ، مذكراً إياه بـ « افعل كذا » و « افعل كذا » و « افعل كذا » . وسبحانه قادر أن يخلقه مرغماً على أن يفعل ، لكنه ـ جل وعلا ـ شاء أن يجعل الإنسان سيدا وجعله مختاراً ، وقهر الأجناس كلها أن تكون مسخرة وفاعلة لما يريد ، وأثبت لنفسه ـ سبحانه ـ صفة القدرة ، ولا شىء يخرج عن قدرته ؛ فأنت أيها العبد تكون قادراً على أن تعصى ولكنك تطيع ، وهذه هى عظمة الإيمان إنّها تثبت صفة المحبوبية لله ، فإذا ما غر الإنسان بالأسباب وبخدمة الكون كله ، وبما فيه من عافية ، وبما فيه من قوة ، وبما فيه من مال ، تجد الحق يلفته : لاحظ أنك لن تنفلت منى : أنا أعطيت لك الاختيار فى الدنيا ، لكنك ترجع لى فى الآخرة ولن تكون هناك أسباب ، ولن تجد إلا المسبب ، ولذلك اقرأ :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

---

(١) رواه مسلم فى الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار ، وأبو داود فى الصلاة ، والنسائى فى عمل اليوم ، والإمام أحمد ٢١١/٤ . ومعنى (لَيُغَانُ) : ما يتغشى القلب ، وقيل الفترات والغفلات عن الذكر ، أو همه بسبب أمته فيستغفر لها ، وقال المناوى : هو غين أنوار لاغين أغيار ولا حجاب ولا غفلة .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

كأن المُلْكَ قبل ذلك ـ أى فى الدنيا ـ كان للبشر فيه شىء لمباشرتهم الأسباب هذا يملك ، وذلك يملك ، وآخر يوظف ، لكن فى الآخرة لا مالك ، ولا مَلِكُ إلا الله ، فإياكم أن تغتروا بالأسباب ، وأنها دانت لكم ، وأنكم استطعتم أن تتحكموا فيها ؛ لأن مرجعكم إلى الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

اذكروا أننا قلنا من قبل : إن الله هدى الكل . . بمعنى أنه قد بلَّغهم بمنهجه عبر موكب الرسل ، وحين يقول سبحانه : ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ فالمقصود هنا ليس هداية الدلالة ، لكن دلالة المعونة . وقد فرقنا بين هداية الدلالة وهداية المعونة .

وقوله الحق ﴿ فريقاً هدى ﴾ أى هداية المعونة ؛ لأن هذا الفريق أقبل على الله بإيمان فخفف الله عليه مؤونة الطاعة ، وبغّضه فى المعصية ، وأعانه على مهمته . أما الذى تأبّى على الله ، ولم يستجب لهداية الدلالة أيعينه الله ؟ لا . إنه يتركه فى غيِّه ويخلى بينه وبين الضلالة ، ولو أراده مهديًا لما استطاع أحد أن يغير من ذلك . وسبحانه منزه عن التجنى على أحد من خلقه ، ولكن الذين حق عليهم الضلالة حصل لهم ذلك بسبب ما فعلوا .

﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأعراف)

إن من يرتكب المعصية ويعترف بمعصيته فهذه تكون معصية ، أمّا من يقول إنها

هداية فهذا تبجح وكفر ؛ لأنه يرد الحكم على الله . وخير للذين يرتكبون المعاصى أن يقولوا : حكم الله صحيح ولكننا لم نقدر على أنفسنا ، أما أن يرد العاصى حكم الله ويقول : إنه الهداية ، فهذا أمره عسير ؛ لأنه ينتقل من مرتبة عاصٍ إلى مرتبة كافر والعياذ بالله .

﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأعراف)

لأنهم يفعلون ما حرم الله ، وليتهم فعلوه على أنه محرّم ، وأنهم لم يقدروا على أنفسهم ، ولكنهم فعلوه وظنوا أن الهداية فى الفعل . وهذا الأمر يشيع فى معاصٍ كثيرة مثل الربا ، فنجد من يقول : إنه حلال ، ونقول : قل هو حرام ولكن لم أقدر على نفسى ، فتدخل فى زمرة المعصية ، ولا تدخل فى زمرة الكفر والعياذ بالله ، ويمكنك أن تستغفر فيغفر لك ربنا ، ويتوب عليك ، ولكن أن ترد الحكم على الله وتقول إنه حلال !! فهذا هو الخطر ؛ لأنك تبتعد وتخرج عن دائرة المعصية وتتردى وتقع فى الكفر ، اربأ بنفسك عن أن تكون كذلك واعلم أن كل ابن آدم خطاء ، وما شرع الله التوبة لعباده إلا لأنه قدَّر أن عبيده يخطئون ويصيبون ، ومن رحمته أنه شرع التوبة ، ومن رحمته كذلك أنه يقبل هذه التوبة ، فلماذا تخرج من حيز يمكن أن تخرج منه إلى حيز يضيق عليك لا تستطيع أن تخرج منه ؟ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾

والزينة إذا سمعتها تنصرف إلى تجميل فوق قوام الشىء ، وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

هذا يعنى أن يذهب المسلم إلى المسجد بأفخر ما عنده من ملابس ، وكذلك يمكن أن يكون المقصود بـ ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ هو رد على حالة خاصة وهو أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، وأن المراد بالزينة هنا هو ستر العورة . أو المراد بالزينة ما فوق ضروريات الستر ، أو إذا كان المراد بها اللباس الطيب الجميل النظيف ، فنحن نعلم أن المسجد هو مكان اجتماع عباد الله ، وهم متنوعون فى مهمات حياتهم ، وكل مهمة فى الحياة لها زيها ولها هندامها ؛ فالذى يجلس على مكتب لمقابلة الناس له ملابس ، ومن يعمل فى « الحِدَادَة » له زى خاص مناسب للعمل ، ولكن إذا ذهبتم إلى المسجد لتجتمعوا جميعاً فى لقاء الله ، أيأتى كل واحد بلباس مهنته ليدخل المسجد ؟ لا ، فليجعل للمسجد لباساً لا يُضَايق غيره ، فإن كانت ملابس العمل فى مصنع أو غير ذلك لا تليق ، فاجعل للمسجد ملابس نظيفة حتى لا يُؤذَى أحد بالوجود بجانبك ؛ لأننا نذهب إلى المسجد لعمل مشترك يحكم الجميع وهو لقاء الله فى بيت الله ، فلابد أن تحتفى بهذا اللقاء .

﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

والمأكل والمشرب من الأمور المباحة لأن فيها مقومات الحياة ، وكل واشرب على قدر مقومات الحياة ولا تسرف ، فقد أحل الله لك الأكثر وحرّم عليك الأقل ، فلا تتجاوز الأكثر الذى أُحلَّ لك إلى ما حرم الله ؛ لأن هذا إسراف على النفس ، بدليل أنه لو لم تجد إلا الميتة ، فهى حلال لك بشرط ألا تُسرف . ولا يصح أن تنقل الأشياء من تحليل إلى تحريم ؛ لأن الله جعل لك فى الحلال ما يغنيك عن الحرام ، فإذا لم يوجد ما يغنيك ، فالحق يحل لك أن تأخذ على قدر ما يحفظ عليك حياتك ، والمسرفون هم المتجاوزون الحدود . ولا سرف فى حل ، إنما السرف يكون فى الشيء المحرم ، ولذلك جاء فى الأثر :

« لو أنفقت مثل أحد ذهباً فى حِلٍّ ما اعتبرت مسرفاً ، ولو أنفقت درهماً واحداً فى محرم لاعتبرت مسرفاً » .

ولذلك يطلب منك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعطى كل نعمة حقها

بشرط ألا يؤدى بك ذلك إلى البطر ، وحينما ذهب إليه سيدنا عثمان بن مظعون ، وقد أراد أن يترهب ، ويتنسك ، ويسيح فى الكون ، وقال لرسول الله : يا رسول الله ، إننى أردت أن اختصى ؛ أى أن يقطع خصيتيه ؛ كى لا تبقى له غريزة جنسية ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا عثمان خصاء أمتى الصوم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فى شأن من لم يستطع الزواج : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »(١) .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الناس وخوفهم فاجتمع عشرة من الصحابة وهم : أبو بكر وعمر وعلى وابن مسعود وأبو ذر وسالم مولى أبى حذيفة والمقداد وسلمان وعبدالله بن عمرو بن العاص ومعقل بن مقرن فى بيت عثمان بن مظعون فاتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء ويجبّوا مذاكيرهم »(٢) . فكان التوجيه النبوى أن حمد الرسول صلى الله عليه وسلم ربه وأثنى عليه وقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ولكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى »(٣) .

ويتابع الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ومادام أخرجها لعباده فهو قد أرادها لهم ، وما ينفع منها للإناث جعلتها السنّة

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) فتح البارى .

(٣) رواه مسلم .

للإناث ، وما يصلح منها للذكور أحلتها السنّة لهم ، وكذلك الطيب من الرزق حلال للمؤمنين والمؤمنات . ولنلحظ دقة الأسلوب هنا فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

ثم يتابع سبحانه :

﴿ خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

فكأننا أمام حالتين اثنتين : حالة فى الدنيا ، وأخرى فى يوم القيامة ، معنى ذلك أن الزينة فى الحياة الدنيا غير خالصة ؛ لأن الكفار يشاركونهم فيها ، فهى من عطاء الربوبية ، وعطاء الربوبية للمؤمن وللكافر ، وربما كان الكافر أكثر حظًا فى الدنيا من المؤمن ، ولكن فى الآخرة تكون الزينة خالصة للمؤمنين لا يشاركهم فيها الكافرون .

وكذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يعطى اليقظة الإيمانية فى المؤمن بوجود الأغيار فيه ، ومعنى وجود الأغيار أنه قد يتعرض الإنسان لتقلبات بين الصحة والمرض والغنى والفقر والقوة والضعف . وهكذا يكون الإنسان فى الدنيا ؛ فهى دار الأغيار ، ويصيب الإنسان فيها أشياء قد يكرهها ؛ لذلك فالدنيا ليست خالصة النعيم لما فيها من أغيار تأتيك فتسوؤك.إنها تسوؤك عند غيبة شحنة الإيمان منك ؛ لأنك إن استصحبت شحنة الإيمان عند كل حدث أجراه الله عليك لَلَفَتَكَ الله إلى حكمته .

﴿ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

ويمكن أن نقرأ كلمة « خالصة » منصوبة على أنها حال ، ويمكن أن نقرأها فى قراءة أخرى مرفوعة على أنها خبر بعد خبر ، والمعنى : أنها غير خالصة للمؤمنين فى الدنيا لمشاركة الكفار لهم فيها ، وغير خالصة أيضاً من شوائب الأغيار ولكنها

فى الآخرة خالصة للمؤمنين فلا يشاركهم الكفار ولا تأتى لهم فيها الأغيار .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

معنى « نفصل الآيات » أى لانأتى بالآيات مجملة بل نفصل الآيات لكل مؤمن ، فلا نترك خللاً ، ونأتى فيها بكل ما تتطلبه أقضية الحياة ، بتفصيل يُفهمنا قضايانا فهماً لا لبس فيه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

والحق سبحانه ـ قد بدأ الآية بـ « إنما » التى هى للحصر : أى ما حرم ربى إلا هذه الأشياء ، الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم ، والبغى بغير الحق ، والشرك بالله ، والقول على الله ما لا نعلم ، فلا تدخلوا أشياء أخرى وتجعلوها حراماً ، لأنها لا تدخل فى هذه ، وقول الله فى الآية السابقة : ﴿ قل من حرم زينة الله ﴾ هو على صيغة استفهام لكى يجيبوا هم . ولن يجدوا سبباً لتحريم زينة الله . لأن الحق قد وضح وبينّ ما حرم فقال :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ونتأمل الخمسة المحرمات التى جاءت بالآية ؛ فحين ننظر إلى مقومات حياة الخلافة فى الأرض ليبقى الإنسان خليفة فيها نرى أنه لابد من صيانة أشياء ضرورية لسلامة هذه الخلافة وأداء مهمتها ، وأول شىء أن يسلم للمجتمع طهر أنسابه . وسلامة طهر الأنساب أى الإنجاب والأنسال ضرورية للمجتمع ؛ لأن الإنسان حين يثق أن ابنه هذا منه فهو يحرص عليه لأنه منسوب إليه ، ويرعاه ويربيه . أما إذا تشكك فى هذه المسألة فإنه يهمله ويلفظه ، كذلك يهمله المجتمع ، ولا أحد يربيه ولا يلتفت إليه ولا يعنى به .

إذن فسلامة الأنساب أمر مهم ليكون المجتمع مجتمعاً سليماً ، بحيث لا يوجد فرد من الأفراد إلا وهو محسوب على أبيه ، بحيث يقوم له بكل تبعات حياته ، ولذلك يجب أن تعلموا أن الأطفال المشردين مع وجود آبائهم حدث من أن شكاً طرأ على الأب فى أن هذا ليس ابنه . ولذلك ماتت فيه غريزة الحنان عليه ، فلا يبالى إن رآه أم لم يره ، ولا يبالى أهو فى البيت أم شرد ، لا يبالى أكل أم جاع ، لا يبالى تعرى أم لا .

إذن فطهارة الأنساب ضمان لسلامة المجتمع ؛ لأن المجتمع سيكون بين مربٍّ يقوم على شأن وصغير مربَّى ، المربى قادر على أن يعمل ، والمربَّى صغير يحتاج إلى التربية . ولذلك حرم الله الفواحش.والفحش ـ كما قلنا ـ ما زاد قبحه ، وانتهوا على أنه هو الزنا ؛ لأن أثره لا يتوقف فقط عند الذنب والاستمتاع . بل يتعدى إلى الأنسال . وما تعدى إلى الأنسال فهو تعد إلى المجتمع ، ويصير مجتمعاً مهملا لا راعى له .

والإثم : أهو كل كبيرة أو ما يقام على فاعله حد ؟ . لقد انتهى العلماء على أن الإثم هو الخمر والميسر ؛ لأن الله قال بالنص :

﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

وأراد الحق بذلك أن يضمن مقوم تنظيم حركة الحياة فى الإنسان وهو العقل وأن

الخمر تغيب العقل ، والإنسان مطالب بأن يحفظ عقله ليواجه به أمور الحياة مواجهة تبقى الصالح على صلاحه أو تزيده صلاحاً ولا تتعدى على الإنسان . فإذا ما ستر العقل بالخمر فسد واختل ، ويختل بذلك التخطيط لحركة الحياة . والذين يأتون ويشربون ويقولون : نريد أن ننسى همومنا نقول لهم : ليس مراد الشارع أن ينسى كل واحد ما أهمه ؛ لأنه إن نسى كل واحد ما أهمه فلن يحتاط أحد ولن يقوم على تقدير الأمور التى تضمن السلامة .

إن الشارع يطلب منك أن تواجه الهموم التى تعانى منها بعقل مضاعف لتزيلها . أما أن تستر العقل فأنت قد هربت من المشكلة ، إذن يجب عليك أن تواجه مشكلات الحياة بعقلك وبتفكيرك . فإن كانت المشكلة قد نشأت من أنك أهملت فى واجب سببى أى له أسباب وقد قصرت فى الأخذ بها فأنت الملوم . وإن كانت المشكلة جاءتك من أمر ليس فى قدرتك ، أى هبطت عليك قضاءً وقدراً ؛ فاعلم أن مُجريها عليك له فيها حكمة .

وقد يكون البلاء ليحميك الله من عيون الناس فيحسدوك عليها ، لأن كل ذى نعمة محسود ، وحتى لا تتم النعمة عليك ؛ لأن تمام النعمة على الإنسان يؤذن بزوالها ، وأنت ابن الأغيار وفى دنيا الأغيار ، وإن تمت النعمة لك فقد تتغير النعمة بالنقصان .

إذن فالتفكير فى ملافاة الأسباب الضارة وتجنبها يأتى بالعقل الكامل ، والتفكير فى الأشياء التى ليس لها سبب يأتى من الإيمان ، والإيمان يطلب منك أن تَرُدَّ كل شيء إلى حكمة الحكيم . إذن فأنت تحتاج إلى العقل فلا تستره بشرب الخمر ؛ لأن العقل يدير حركة الحياة .

البغى نعرف أنه مجاوزة الحد ظلماً أو كبراً ، أو بخلاً . والظلم أن تأخذ حق غيرك وتحرمه من ثمرة عمله فيزهد فى العمل ؛ لذلك يحرّم الحق أن يبغى أحد على أحد . لا فى عِرضه ، ولا فى نفسه ، ولا فى ماله . ويجب أن نصون العرض من الفواحش ؛ لأن كل فاحشة قد تأتى بأولاد من حرام . وإن لم تأت فهى تهدر العرض ، والمطلوب صيانته ، كذلك لا يبغى أحدٌ على محارم أحد ، وكذلك لا يبغى أحد على حياة إنسان بأن يهدمها بالقتل .

ويصون الحق المال فيمنع عنه البغى فلا يأخذ أحد ثمرة عمل آخر وكفاحه عدواناً وظلماً ، ومظاهر البغى كثيرة . ومن البغى أن تأخذ سلطة قسراً بغير حق ولكن هناك من يأخذ سلطة قسراً وقهراً بحق ، فإن كنت ـ على سبيل المثال ـ تركب سفينة ، ثم قامت الرياح والزوابع ، وأنت أمهر فى قيادتها أتترك الربان يقودها وربما غرقت بمن فيها أم تضرب على يده وتمسك بالدفة وتديرها لتنقذها ومن فيها ، إنك فى هذه الحالة تكون قد أخذت القيادة بحق صيانة أرواح الناس ، وهذا بغى بحق ، وهو يختلف عن البغى بغير الحق . وحتى نفرق بين البغى بحق والبغى بغير الحق نقول . إن هذا يظهر ويتضح عندما نأخذ مال السفيه منه للحفاظ عليه وصيانته وتثميره له ، فنكون قد أخذنا حقا من صاحبه رعاية لهذا الحق ، فهو وإن كان فى ظاهره بغيا على صاحب الحق إلا أنه كان لصالحه وللصالح العام فهذا بغى بحق أو أنه سمى بغيًا ؛ لأنه جاء على صورة استلاب الحق من صاحبه ظلماً ، ويسمى هذا فى علم البلاغة مشاكلة وهى ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبة ذلك الغير ، ونقرأ أيضاً قول الله :

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الشورى)

فهل جزاء السيئة يكون سيئة ؟ لا . وإنما هى سيئة بالنسبة لمن وقعت عليه ؛ لأنه لمّا عمل سيئة واختلس مالا ـ مثلا ـ وضربت على يده وأخذت منه المال فقد أتعبته ولذلك فالحق يقول :

﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ ﴾

(سورة النحل)

ومن بغى بغير حق علينا أن نذكره بأن هناك من هو أقوى منه ، وأن يتوقع أن يناله بغى ممن هو أكثر قدرة منه .

وينبهنا الحق إلى العمل الذى لا غفران له : ﴿ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ .

ومحال أن ينزل الحق الذى نعبده شريكاً له ويؤيده بالبرهان والسلطان والحجة

على أنه شريك له ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ؛ لأن من خصائص الإيمان أنه سبحانه ينفى هذا الشرك بأدلته العقلية وأدلته النقلية .

وإذا كان الحق قد قال لنا فى هذه الآية :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فبعض من الآيات الأخرى جمعت هذه الأشياء ، فى إطار إيجازى ومع المقابل أيضاً ، يقول الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة النحل)

لقد جاء بالفحشاء فى هذه الآية ليؤكد طهارة الأنسال ، وجاء أيضاً بتحريم المنكر والبغى ، وزاد فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها الإثم فقط . وكأن الإثم فى آية الأمر بالعدل والإحسان والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، مطمور فى « المنكر » ، والمنكر ليس محرماً بالشرع فقط ، بل هو ما ينكره الطبع السليم ؛ وأيضاً فصاحب الطبع غير السليم يحكم أنه منكر إذا كانت المعاصى تعود عليه بالضرر ، هنا يقول : أعوذ بالله منها . وإن كان هو يوقعها على الغير فهو يعتقد أنها غير منكر ، وعلى سبيل المثال نجد رجلاً يبيح لنفسه أن يفتح أعينه على عورات الناس ويتلذذ بهذه المسألة . لكنه ساعة يرى إنساناً آخر يفتح عينيه على عورته أو على ابنته مثلا إنّه يرى فى ذلك أبشع المنكرات ؛ لذلك لابد أن تجعل للمنكر حدًّا يشملك ويشمل غيرك ولا تنظر إلى الأمر الذى تكلف به أنت وحدك ، وإنما انظر إلى الأمر المكلف به الآخرون . . وإياك أن تقول : إنه حدد بصرى من أن يتمتع بجسم يسير أمامى ، إنه ـ سبحانه ـ كما حرم نظرك إلى ذلك ، حرم أنظار الناس جميعاً أن ينظروا إلى محارمك ؛ وفى هذا صيانة لك .

وبعد أن حلل هذه الطيبات والزينة ، وحرم الفواحش والمنكر والبغى والإثم يقول سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

نحن هنا أمام نص قرآنى تثبته قضايا الوجود الواقعى ؛ فالذين سفكوا ، وظلموا ، وانتهكوا الأعراض ، وأخذوا الأموال . لم يدم لهم ذلك ، بل أمد الله لهم فى طغيانهم ، وأخذهم به أخذ عزيز مقتدر . ولو أراد خصومهم الانتقام منهم لما وصلوا إلى أدنى درجات انتقام السماء . ويجرى الحق هذا الانتقام من الطغاة لصيانة سلامة المجتمع . فإن رأيت فساداً أو طغياناً إياك أن تيأس ؛ لأن الحق سبحانه قد أوضح أن لكل أمة أجلا ، بداية ونهاية ، ففى أعمارنا القصيرة رأينا أكثر من أمة جاء أجلها . إذن فكل طاغية يجب أن يتمثل هذه الآية :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والأجل لكل أمة معروف عند الله ؛ لأن الباطل والظلم إن لم يعض الناس عضة تجعلهم يصرخون فهم لا يستشرفون إلى الحق ولا يتطلعون إليه ، والألم وسيلة العافية لأنه يؤكد لك أن وضعك غير طبيعى ، وعلى ذلك فالمسائل التى تحدث فى الكون وهذه الأمم التى تظلم . وتضطهد . ولها جبروت وطغيان إنما تفعل ذلك إلى أجل معلوم . فإياك أن تيأس ، ولكن عليك أن تستشرف إلى الحق . وإلى جناب الله فتلوذ به وحده ، ولذلك نجد أكثر الناس الذين حدثت لهم هذه الأحداث لم يجدوا إلا واحة الإيمان بالله ؛ ففروا إلى بيته حجاجاً وإلى مساجده عمارًا وإلى قراءة قرآنه ذكراً . وننظر إلى هذه الأمور ونقول : إن الطاغية الفاجر مهما فعل فلابد أن يسخره الله لخدمة دينه ، وهناك أناس لولا أن الدهر عضهم وأخنى عليهم كأن سلط عليهم ظالماً لما فروا إلى الله بحثاً عن نجاة ، ولما التفتوا لربنا عبادة .

إن فى واقع حياتنا يعرف كل منا أناساً ، كان الواحد منهم لا يعبد ربه فلا يصلى ولا يصوم ولايذكر ربه ، ثم جاءت له عضة من ظالم فيلجأ الإنسان المعضوض إلى الله عائذاً به ملتجئا إليه ، ولذلك نقول للظالم : والله لو عرفت ماذا قدمت أنت لدين الله ، ولم تأخذ عليه ثواباً لندمت ، فأنت قد قدمت لدين الله عصبة ممن كانوا من غير المتدينين به . ولو أنك تعلم ما يأتى به طغيانك وظلمك وجبروتك من نصر لدين الله لما صنعته أنت ، إنّ لكل أمة أجلًا ، فإن كنت ظالماً وعلى رأس جماعة ظالمة فلذلك نهاية .

وانظر إلى التاريخ تجد بعض الدول أخذت فى عنفوانها وشدتها سيادة على الشعوب ، ثم بعد فترة من الزمن تحل بها الخيبة وتأتى السيطرة عليها من الضعاف ؛ لأن هذا هو الأجل . إن الحق يعمى بصائرهم فى تصرف ، يظنون أنه يضمن لهم التفوق فإذا به يجعل الضعيف يغلبهم ويسيطر عليهم . وإذاجاء الأجل فلا أحد يستطيع تأخيره ؛ لأن التوقيت فى يد قيوم الكون ، وهم أيضاً لا يستقدمون هذا الأجل ، ونلحظ هنا وجود كلمة « ساعة » ، والساعة لها اصطلاح عصرى الآن من حيث إنها معيار زمنى لضبط المواقيت ، ونعلم أن اليوم مقسم إلى أربع وعشرين ساعة ، والأقل من الساعة الدقيقة ، والأقل من الدقيقة الثانية ، والأكبر من الساعة هو اليوم . ومن يدرى فقد يخترع البشر آلاتٍ لضبط الجزء من الثانية .

وكذلك تطلق الساعة على قيام القيامة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

هنا ينادى الحق أبناء آدم ، بعد أن ذكرهم أنه أحل لهم الطيبات والزينة وحرم

عليهم المسائل الخمسة من الفاحشة والمنكر والبغى والإثم والشرك ، ووضع لهم نظاماً يضمن سلامة المجتمع ، وطمأنهم بأنه منتقم من أى أمة ظالمة بأن جعل للظلم نهاية وأجلاً . فعليكم يا بنى آدم أن تأخذوا أمور حياتكم فى إطار هذه المقدمات .

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأعراف)

عليكم أن تستقبلوا رسل الله استقبال الملهوف المستشرف المتطلع إلى ما يحميه وإلى ما ينفعه ؛ لأن الرسول هو من يعلن لكل واحد منكم ما أحله الله من طيبات الحياة وملاذها ، ويبين لكم ما حرم الله ليحيا المجتمع سليماً .

كان المظنون أن ساعة يأتى الرسول نجد المجتمع يحرص على ملازمته وعلى تلقى البلاغ منه ، لا أن يظل الرسول يدعو باللين بينما المجتمع يتأبّى عليه . لكن من رحمة الله أن يتأبّى المجتمع ويلح الرسول مبيناً آيات الله وبيناته كى يأخذ كل إنسان ما يساعده على أمر حياته ويهتدى إلى الصراط المستقيم ، وأنت إذا ما أصبت فى عافيتك تلح على الطبيب وتبحث عنه ، فكان مقتضى العقل أنه إذا جاء رسول ليبلغنا منهج الله فى إدارة حركة الحياة أن نتشوق إليه ونتطلع ، لا أن نعاديه ، وعادة ما يسعد بالرسول أهل الفطرة السليمة بمجرد أن يقول الرسول : إنه رسول ومعه آية صدقه . ويقيس أهل الفطرة السليمة قول الرسول بماضيه معهم ، فيعلمون أنه مخلص لم يرتكب الإثم . وهذه فائدة قوله الحق :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فلم يأت لكم إنسان لا تعرفونه بل لكم معه تاريخ واضح وجلى ، ولذلك نجد الذين آمنوا برسول الله أول الأمر لم ينتظروا إلى أن يتلو عليهم القرآن ، لكنهم آمنوا به بسوابق معرفتهم له ؛ لأنهم عايشوه ، وعرفوا كل تفاصيل أخلاقه . ومثال ذلك : عندما أخبر محمد صلى الله عليه وسلم سيدتنا خديجة ـ رضوان الله عليها ـ بنبأ

رسالته وأسرّ لها بخوفه من أن يكون ما نزل إليه هو من أمور الجن أو مسها ، أسرعت إلى ورقة بن نوفل ؛ لأنه عنده علم بكتاب ، وقبل ذلك قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتعين على نوائب الحق وتكسب المعدوم » .

وكل هذه المقدمات تدل على أنك - يارسول الله - فى حفظ الله ورعايته ؛ لأنك كنت مستقيم السلوك قبل أن تُنَبَّأ ، وقبل أن توجد كرسول من الله . وهل معقول أن مَن يترك الكذب على الناس يكذب على الله ؟! وكذلك نجد سيدنا أبا بكر الصديق بمجرد ما أن قال رسول الله : أنا رسول ، قال له : صدقت .

وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على صدق الفطرة ، وهذه هى فائدة ﴿ رسول من أنفسكم ﴾ أو من جنسكم البشرى حتى نجد فيه الأسوة الحسنة . ولو جاء لنا رسول من الملائكة وقال لنا : هذا هو المنهج ولكم أسوة بى ، كنا سنرد عليه الرد المقنع السهل اليسير : وهل نقدر أن نفعل مثلك وأنت ملَك مفطور على الخير ؟ . لكن حين يأتينا رسول من جنسنا البشرى ، وهو صالح أن يصدر منه الخير ، وصالح أن يصدر منه الشر فهو الأسوة الموجودة ، ولذلك كان من غباء الكافرين أن قالوا ما جاء به القرآن على ألسنتهم :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إنه الغباء وقصر النظر والغضب ؛ لأن الله بعث محمداً وهو من البشر ، فهل كانوا يريدون مَلَكاً ؟ ولو كان ملكاً فكيف تكون به الأسوة وطبعه مختلف عن طبائع البشر ؟ . ولذلك يرد الحق الرد المنطقى :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وذلك حتى تتحقق لنا الأسوة فيه ؛ فسبحانه لم يقتحم وجودكم التكليفى ، ولم يُدخلكم فى أمر يشتد ويشق عليكم لكنه جاء لكم بواحد منكم تعرفون تاريخه . ولم يأت به من جنس آخر .

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأعراف)

وانظر قوله : ﴿ يقصّون عليكم آياتى ﴾ ، لقد جاء بكلمة « يقصّون » لأن القصص مأخوذة من مادة « القاف » و « الصاد المضعَّفة » ؛ وهذا مأخوذ من « قصّ الأثر » ، وكان الرجل إذا ما سرقت جماله أو أغنامه يسير ليرى أثر الأقدام . إذن ﴿ يقصّون عليكم آياتى ﴾ أى أنهم ملتزمون بما جاء لهم ، لا ينحرفون عنه كما لا تنحرفون أنتم عن قص الأثر حين تريدون المؤثر فى الأثر .

﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأعراف)

و « التقوى » هو أن تجعل بينك وبين شىء يضرك وقاية . ولذلك يقول الحق: ﴿ اتقوا النار ﴾ ، لنرد عن أنفسنا بالعمل الصالح لهيب النار . وإذا قيل: ﴿ اتقوا الله ﴾ أى اتقوا متعلقات صفات الجبروت من الله ؛ لأنكم لن تستطيعوا تحمل جبروت ربنا ، وعليكم أن تلتزموا بفعل الأوامر وتلتزموا أيضاً بترك النواهى . والأمر بالتقوى هنا يعنى ألا ننكر ونجحد رسالات الرسل ؛ لأنهم إنما جاءوا لإنقاذ البشر ، فالمجتمع حين يمرض ، عليه أن يسرع ويبادر إلى الطبيب القادم بمنهج الله ليرعاه ، وهو الرسول ؛ لذلك لا يصح الجحود برسالة عليها دليل ومعجزة . ﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

و « أصلح » تدل على أن هناك شيئاً غير صالح فجعله صالحاً ، أو حافظ على صلاح الصالح ورقَّى صلاحه إلى أعلى ، مثل وجود بئر نشرب منه ، فإن كانت البئر تؤدى مهمتها لا نردمها ، ولا نلقى فيها قاذورات ، وبذلك نبقى الصالح على صلاحه ، ويمكن أن نزيد من صلاح البئر بأن نبنى حول فوهتها سوراً ، أو أن نقوم بتركيب مضخة تمتص الماء من البئر لضخه إلى البيوت . وبذلك نزيد الصالح

صلاحاً ، والآفة فى الدنيا هم الذين يدعون الإصلاح بينما هم مفسدون ، يقول الله فيهم :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فحين تقدم على أى عمل لابد أن تعرف مقدمات هذا العمل ، وماذا ستعطيه تلك المقدمات ، وماذا سوف تأخذ منه . وأبق الصالح فى الكون على صلاحه أو زده إصلاحاً ، وهنا لا خوف عليك ولن تحزن على شىء فاتك ليتحقق قول الحق :

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الحديد)

وما المقابل لمن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؛ أى هؤلاء الذين أصلحوا واتقوا ؟ المقابل هو ما يأتى فى قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

ولماذا يكون مصير المكذبين بالآيات والمستكبرين عنها أن يكونوا أصحاب النار ويكونوا فيها خالدين ؟ لأنهم وإن تيسرت لهم أسباب الحياة لم يضعوا فى حسابهم أن يكون لهم نصيب فى الآخرة ولم يلتفتوا إلى الغاية ، وغاب عنهم الإيمان بقول الحق :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ

مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾

(سورة الشورى)

وهب أن الواحد منهم قد أخذ ما أخذ فى الدنيا ، فلماذا نسى أنها موقوتة العمر ؟ ولماذا لم يلتفت إلى الزمن فى الآخرة ؟ . عليك أن تعلم أنك فى هذه الدنيا ، خليفة فى الأرض ، ومادمنا جميعاً أبناء جنس واحد ومخلوقين فيها والسيادة لنا على الأجناس فلابد أن تكون لنا غاية متحدة ؛ لأن كل شىء اختلفنا فيه لا يعتبر غاية ، فالغاية الأخيرة هى لقاء الله ؛ لأن النهاية المتساوية فى الكون هى الموت ليسلمنا لحياة ثانية ، فالذى يستكبر عن آيات الله هو من دخل فى صفقة خاسرة ؛ لأن من يقارن هذه الدنيا بالحياة الأخرى سيجد أن زمن الإنسان فى الدنيا قليل ، وزمن الآخرة لا نهاية له . وعمر الإنسان فى الدنيا مظنون غير متيقن ، والمتعة فيها على قدر أسباب الفرد وإمكاناته ، لكن الآخرة متيقنة ، ونعيم المؤمن فيها على قدر طلاقة قدرة الله .

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأعراف)

وأصحاب النار . يعنى أن يصاحب ويلازم المذنب النار كما يصاحب ويلازم الإنسان منا صاحبه ؛ لأن النار على إلف بالعاصين ، وهى التى تتساءل: ﴿ هل من مزيد ﴾ ؟ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ

ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

و ﴿ فمن أظلم ﴾ تأتى على صيغة السؤال الذى لن تكون إجابته إلا الإقرار . ولا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب ؛ لأنه أولاً ظلم نفسه ، وظلم أمته ، وأول ظلم النفس أن يرتضى حياة زائلة وأن يترك حياة أبدية ، وأما ظلمه للناس فلأنه سيأخذ أوزار ما يفعلون ؛ لأنه قد افترى على الله كذباً ﴿ أو كذب بآياته ﴾ .

أى قوَّل الله ما لم يقله ، أو كذَّب ما قاله الله ، وكلا الأمرين مساوٍ للآخر . والآية ـ كما نعلم ـ هى الأمر العجيب ، والآيات أُطلقت فى القرآن على معانٍ متعددة ؛ فالحق يقول :

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾

(من الآية ٣ سورة فصلت)

وكذلك أطلقت على المعجزات التى يرسلها الله تأييداً لرسله .

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

فالآيات هنا هى المعجزات أى الأمور العجيبة .

وحدثنا القرآن عن الآيات الكونية فقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

فالآية إذن هى الشىء العجيب وهى تشمل آيات القرآن ؛ لأنك حين تنظر إلى نظم آيات القرآن ، وإلى استيعابها إلى حقائق الوجود وإلى استيفائها لقضايا الكون

كله تقول لنفسك : هذا شيء عجيب ، لأن الذى جاءت على لسانه هذه الآيات نبى أمى ، ما عُرف عنه أنه زاول تعلماً ، وما جربوا عليه أنه قال شعراً ، أو نثراً ، أو له رياضة فى الكلام ، وبعد ذلك ما جرب حكم أمم ، وما درس تاريخ الأمم حتى يستنبط القوانين التى أعجزت الحضارات المعاصرة عن مجاراتها .

إن الأمة البدوية حينما ذهبت بمنهجها إلى الفرس ، وكانت الفرس لها حضارة الشرق كلها ، وعلى الرغم من ذلك أخذت الفرس قوانينها من هذه الأمة البدوية ، وكان كل نظام هذه الأمة المتبدية قبل مجئ الرسالة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلخص فى نظام القبيلة وكل قبيلة لها رئيس ، وبعد أن جاءت رسالته صلى الله عليه وسلم جاء بنظام يجمع أمم العالم كلها ، ثم ينجح فى إدارة الدنيا كلها ، وهذه مسألة عجيبة ، وكل آية من هذه الآيات كانت معجزة وعجيبة .

وكذلك الآيات الكونية التى نجدها تتميز بالدقة الهائلة ؛ فالشمس والقمر بحسبان ، وكل فى فلك يسبحون ، إنه نظام عجيب .

إذن فالعجائب فى الآيات هى آيات القرآن ، والمعجزات والآيات الكونية . وكيف يكذبون إذن بالآيات ؟ . ألا ينظرون إلى الكون ، وما فيه من دقة صنع وهندسة بناء تكوينى لا تضارب فيه ؟ وهى آيات تنطق بدقة الخالق ؛ فهو العالم ، القادر ، الحكيم ، الحسيب . وكذلك كيف يكذبون الرسول القادم بالمعجزات ، ويقولون : إنه ساحر ، وحين تتلى عليهم آيات القرآن يكذبونها . إذن هم لم ينظروا فى آيات الكون ليستنبطوا منها عظمة الصانع وحكمته ودقته ، ولم يلتفتوا إلى الإيمان به قمة عقيدية ، وكذلك كذبوا بالآيات المعجزات التى جاء بها الرسل فلم يصدقوا الرسل وآخرها وقمتها آيات القرآن العظيم .

وحينما عرض الحق سبحانه وتعالى هذه القضية ، تساءل : كيف تقولون . إنه سحر الناس فآمنوا به ، فلماذا لم يسحركم أنتم ؟ . وحينما قالوا :

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النحل)

قال الحق :

﴿ لِسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النحل)

وقالوا :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

فيُعَلِّم الحق رسوله أن يقول :

﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة يونس)

وهنا يأمر الحق رسوله أن يذكرهم بأنه عاش بينهم أربعين عاماً فهل عرف عنه أنه يقول أو يتكلم بشيء من هذا ؟

فهل يترك الحق من كذبوا بالآيات ؟ إنهم خلق من خلق الله ، والله استدعاهم إلى الوجود ؛ لذلك يضمن لهم مقومات الحياة ، وأمر أسباب الكون أن تكون فى خدمة هؤلاء المكذبين الكافرين كما هى فى خدمة الطائعين المؤمنين . ومن يُحسن منهم الأسباب يأخذ نتائجها ، وإن أهمل المؤمنون الأخذ بالأسباب فلن يأخذوا نتائجها ، وكل هذا لأنه عطاء ربوبية ولأنه خلق فلا بد أن يرزق ، والنواميس الكونية تخدم الطائع وتخدم العاصى ؛ لأن ذلك من سنة الله ولن يجد أحد لسنة الله تبديلا .

إذن فكفرهم لن يمنع عنهم نصيبهم من الكتاب الذى قَدَّر لهم ، من الرزق والحياة ، ما هو مسطر فى الكتاب الذى أنزل عليهم ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

أو ينالهم ، أى يصيبهم عذاب مما هو مبين فى الكتاب الذى أرسلناه ليوضح أن الطائع له الثواب ، والعاصى له العقاب ، فيقول الحق هنا :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

وساعة تسمع ﴿ يتوفونهم ﴾ تفهم أن الحياة تنتهى ، وتنفصل الروح عن الجسد فهذا هو « التوفى » ، فمرة ينسب إلى الحق الأعلى سبحانه وتعالى ، ومرة ينسب إلى المَلَك ، ومرة يراد منه أتباع المَلَك أى جنوده يقول ـ سبحانه ـ : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ ، والأساليب الثلاثة ملتقية ؛ لأن ملك الموت لم يأت بالموت من عنده ، بل أحذ التلقى من الله ، فالأمر الأعلى من الله ، وأمر التوسط للملك ، وأمر التنفيذ للرسل .

و « التوفى » على إطلاقه هو استيفاء الأجل ، فإن كان أجل الحياة فهو توفية بالموت ، وإن كان الأجل البرزخ وهو المدة التى بين القبر والحساب . إلى أن يجئ ميعاد دخولهم النار فهذا هو توفى أجلهم الثانى ؛ لأن كل إنسان له أجلان : أجل ينهى هذه الحياة ، والأجل الذى يأخذه فى البرزخ إلى أن يجىء الحساب . وهذا لا يمنع أن يقال : إن قيامة كل إنسان تأتى بموته ؛ لأن للقيامة مراحل بدءا من القبر ونهاية بالخلود فى الجنة أو فى النار .

وحين تسألهم الملائكة :

﴿ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

هم إذن يعترفون أن من كانوا يدعونهم من دون الله قد غابوا واختفوا ولا يظهر لهم أثر .

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

(من الآية ١٠ سورة السجدة)

وهم ـ إذن ـ يقرون غياب من كانوا يدعونهم من دون الله ، والمراد أنه لا وجود لهم ، وهم بذلك قد شهدوا على أنفسهم بكفرهم . ولكن هذه الشهادة لا تجدى لأن زمن التكليف قد انتهى ، وهم الآن فى دار قهر لكل ما يريده الله ؛ ففى دار التكليف كان الإنسان حرًّا أن يفعل أو ألّا يفعل ، ولكن فى الدار الآخرة لا تنفع هذه الشهادة . وذلك لتبين عدالة الجزاء الذى يصيبهم ، ولن يتأبوا على الجزاء ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

ويوضح لنا الحق أنه بأوامر ﴿ كن ﴾ سيدخلون النار كما دخلتها أمم قد خلت من قبلهم فليسوا بدعاً ، وليدخلوا معهم إلى المصير الذى يذهبون إليه ، وهم أمم خليط ؛ لأن الكفر سوف يلتقى كله فى الجزاء .

إن الاقتداء بالأمم التى سبقت هو الذى قادهم إلى الكفر ؛ فالأمم التى سبقت كانت أسوة فى الضلال للأمة التى لحقت ، فإذا ما دخلوا لعنوهم .

وهب أن إنساناً دخل مرة السجن لجرم ارتكبه ، وبعد ذلك دخل عليه من كان

يغريه بالجرم . ومن كان يزين له ، ومن اقتدى به . بالله ساعة يلتقيان فى السجن ألا يلعن الأول الثانى ؟

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأعراف)

وبعد أن يلحق بعضهم بعضاً ويجتمعوا ، يحدث بينهم هذا الحوار العجيب :

﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأعراف)

فإن قلت الأخرى أى التى دخلت النار متأخرة كانت الأولى هى القدوة فى الضلال وقد سبقتهم إلى النار ، ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ﴾ ، أى أن الأولى هم القادة الذين أضلوا ، والطائفة الأخرى هم الأتباع الذين قلدوا . ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا ﴾ . وهم يتوجهون بالكلام إلى ربنا : ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا ﴾ .

كيف يتأتى هذا ؟ . وكان المقياس أن يقول : قالت أخراهم لأولاهم أنتم أضللتمونا لكن جاء هذا القول ، لأن الذين أضلوا غيرهم أهون من أن يخاطبوا ؛ ولأن الموقف كله فى يد الله ، وإذا ما قالوا لله المواجه للجميع : ﴿ هؤلاء أضلونا ﴾ فهؤلاء ، هذه إشارة إليهم ، فكأن القول موجه لله شهادة منهم إلى من كان وسيلة لإضلالهم وهم يقولون لربنا هذا حتى يأخذوا عذاب الضعف من النار مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأعراف)

فقال الله لهم جميعاً : ﴿ لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ .

فلكل أمة منهم ضعف العذاب بما ضلت وأضلت . ونفهم أن الضِّعْف معناه « شيء مساوٍ لمثله » ، فأنتم أيها المقلدون غيركم قد أضللتم سواكم بالأسوة أيضاً ؛ لأنكم كثّرتم عددهم وقويتم شوكتهم وأغريتم الناس باتباعهم .

ويكون لكم ضعف العذاب بحكم أنكم أضللتم أيضاً ، وأنتم لا تعلمون أن من يحاسبكم دقيق فى الحساب ، ويعطى كل إنسان حقه تماماً .

وماذا تقول أولاهم لأخراهم ؟ يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

أى ما دمتم ستأخذون ضعف العذاب مثلنا فقد تساوت الرءوس « فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » كأن المجرم نفسه ساعة يلتقى ويستقبل مجرماً مثله ، يقول له : اشرب من العذاب نفسه ، وليس ذلك تجنياً من الله ، ولا بسلطة القهر لعباده ، ولكن بعدالة الحكم ؛ لأن ذلك إنما حدث بسبب ما كسبتم .

ومعلوم أن التذوق فى الطعوم ، فهل هم يأكلون العذاب ؟ . لا ، إنّ الحق قد جعل كل جارحة فيهم تذوق العذاب ، و الحق حين يريد شمول العذاب للجسم يجعل لكل عضو فى الجسم حساسية الذوق كالتى فى اللسان .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة النحل)

وهذه هى الإذاقة ، كأنها صارت لباساً من الجوع يشمل الجسد كله ، والإذاقة أشد الإدراكات تأثيراً ، واللباس أشمل للجسد . (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) .

ولم يقل الحق : بما كنتم تكتسبون ؛ لأن اكتسابهم للسيئات لم يعد فيه افتعال ، بل صار أمراً طبيعياً بالنسبة لهم ، وعلى الرغم من أن الأمر الطبيعى فى التكوين أن يصنع الإنسان الحسنة دون تكلف ولا تصنّع ، وفى السيئات يجاهد نفسه ؛ لأن ذلك يحدث على غير ما طبع عليه ، ولكن هؤلاء من فرط إدمانهم للسيئات فسدت فطرتهم ولم تعد ملكاتهم تتضارب عند فعل السيئات ، بل صاروا يرتكبون الإثم كأمر طبيعى ، وهذا هو الخطر الذى يحيق بالمسرفين على أنفسهم ؛ لأن الواحد منهم يفرح بعمل السيئات .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

والحق يريد أن يعطى حكماً جديداً ويحدد من هو المحكوم عليه ليُعرف بجريمته ، وهى جريمة غير معطوفة على سابقة لها ، وليعرف كل إنسان أن هذه جريمة ، وأنّ من يرتكبها يلقى حكماً وعقاباً . (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها) .

وقد عرفنا من قبل معنى الآيات ، وأنها آيات القرآن المعجزة أو الآيات الكونية ، وأى إنسان يظن نفسه أكبر من أن يكون تابعاً لمنهج جاء به رسول عرف بين قومه بأمانته ، هذا الانسان يستحق العقاب الشديد . فصحيح أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن له من الجاه ولا السلطان ما ينافس به سادة وكبراء قريش ، ولذلك وجدنا من يقول :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

إنهم يعترفون بعلو القرآن ، لكنهم تمنوا لو أن القرآن قد نزل على إنسان غيره بشرط أن يكون من العظماء بمعاييرهم وموازينهم المادية .

ومن يكذب الآيات ويستكبر عن اتباع الرسول لا تفتح له أبواب السماء .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(الآية ٤٠ سورة الأعراف)

وبذلك نعرف من هم الذين لا تفتح لهم أبواب السماء ، وبطبيعة الحال نعرف أن المقابلين لهم هم الذين تفتح لهم أبواب السماء . . إنهم المؤمنون ، وحين تصعد أرواحهم إلى الملأ الأعلى تجد أعمالهم الصالحة تصعد وترتفع بهم إلى أعلى . أما المكذبون فهم لا يترقوْن بل يهبطون ولا يدخلون الجنة ، وقد علق سبحانه دخول الجنة بمستحيل عقلاً وعادة وطبعاً : (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) .

و « سم الخياط » هو ثقب الإبرة ، أى الذى تدخل فيه فتلة الخيط ، ولا تدخل فتلة الخيط فى الثقب إلا أن يكون قطر الفتلة أقل من قطر الثقب ، وأن تكون الفتلة من الصلابة بحيث تنفذ ، وأن تكون الفتلة غير مستوية الطرف ؛ لأنها إن كانت مقصوصة وأطرافها مستوية فهى لا تدخل فى الثقب ؛ لذلك نجد الخياط يجعل للفتلة سناً ليدخلها فى ثقب الإبرة .

وحين نأتى بالجمل ونقول له : ادخل فى سم الخياط ، فهل يستطيع ؟ طبعاً لا ؛ لذلك نجد الحق سبحانه قد علق دخول هؤلاء الجنة على مستحيل .

بُعض الناس قالوا : وما علاقة الجمل بسم الخياط ؟

نقول : إن الجمل يطلق أيضا على الحبل الغليظ المفتول من حبال ، مثل حبال المركب إننا نجده سميكاً مجدولاً .

وأخذ الشعراء هذه المسألة ؛ ونجد واحداً منهم يصف انشغاله بالحبيب وشوقه إليه وصبابته به حتى يهزل ويستبد به الضعف فيقول :

ولو أن ما بى من جوى وصبابة
على جمل لم يدخل النار كافر

لأن الجوى والصبابة التى يعانى منهما هذا الشاعر ، لو أصيب بهما الجمل فلسوف ينحف وينحف ويهزل ، إلى أن يدخل فى سم الخياط ، وهنا يوضح ربنا : إن دخل الجمل فى سم الخياط فسوف أدخلهم الجنة .

﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الأعراف)

وهم يستحقون هذا الجزاء بما أجرموا .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

المهاد هو الفراش ، ومنه مهد الطفل ، والغاشية هى الغطاء ، أى أن فرش هذا المهاد وغطاءه جهنم . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الزمر)

إذن الظلل والغواشى تغطى جهتين فى التكوين البعدى للإنسان ، والأبعاد ستة وهى : الأمام والخلف ، واليمين والشمال ، والفوق والتحت ، والمهاد يشير إلى التحتية ، والغواشى تشير إلى الفوقية ، وكذلك الظلل من النار ، ولكن الحق شاء أن يجعل جهنم تحيط بأبعاد الكافر الستة فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وهذا يعنى شمول العذاب لجميع اتجاهات الظالمين .

وجهنم مأخوذة من الجهومة وهى الشىء المخوف العابس الكريه الوجه ، ثم يأتى بالمقابل ليشحن النفس بكراهية ذلك الموقف ، ويحبب إلى النفس المقابل لمثل هذا الموقف ، فيقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وبهذا يخبرنا الحق أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم أصحاب الجنة وهم فيها خالدون ، ويضع لنا الحق تنبيهاً بين مقدمة الآية وتذييلها « لا نكلف نفساً إلا وسعها » ؛ لنفهم أن المسرفين على أنفسهم بالكفر وتكذيب الآيات لم يفهموا حقيقة الإيمان ، وأن حبس النفس عن كثير من شهواتها هو فى مقدور النفس وليس فوق طاقتها ؛ لذلك أوضح لنا سبحانه أنه كلف بـ « افعل ولا تفعل » وذلك فى حدود وسع المكلَّف .

وحين نستعرض الصورة إجمالاً للمقارنة والموازنة بين أهل النار وأهل الجنة نجد الحق قد قال فى أهل النار :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فهم لن يدخلوا الجنة ، وعلى ذلك فقد سلب منهم نفعاً ، ولا يتوقف الأمر على ذلك ، ولكنهم يدخلون النار ، إذن فهنا أمران : سلب النافع وهو دخولهم الجنة ، إنه سبحانه حرمهم ومنعهم ذلك النعيم ، وذلك جزاء إجرامهم . وبعد ذلك كان إدخالهم النار ، وهذا جزاء آخر ؛ فقال الحق :

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

(سورة الأعراف)

فى الأولى قال : ـ سبحانه ـ (وكذلك نجزى المجرمين) .
وفى الثانية قال : (وكذلك نجزى الظالمين) .
فكأن الإجرام كان سبباً فى ألّا يدخلوا الجنة ، والظلم كان سبباً فى أن يكون من فوقهم غواش ، ولهم من جهنم مهاد ، وهم فى النار يحيطهم سرادقها .

ومن المناسب بعد تلك الشحنة التى تكرّهنا فى أصحاب النار وفى سوء تصرفهم فيما كلفوا به أولاً ، وبسبب بشاعة جزائهم ثانيا ؛ أن نتلهف على المقابل . فقال سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

(سورة الأعراف)

وقول الحق سبحانه وتعالى : « لا نكلف نفساً إلا وسعها » جاء بين المبتدأ والخبر ، ككلام اعتراضى ؛ لأن الأسلوب يقتضى إبلاغنا أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الخلود فى الجنة ، وجاءت « لا نكلف نفساً إلا وسعها » بين العمدتين وهما المبتدأ والخبر ؛ لأننا حينما نسمع « والذين آمنوا » فهذا عمل قلبى ، ونسمع بعده « وعملوا الصالحات » وهذا عمل الجوارح ، وبذلك أى بعمل القلب مع عمل الجوارح يتحقق من السلوك ما يتفق مع العقيدة . والاعتقاد هو ما يسهل دائما السلوك الإيمانى ويجعل مشاق التكاليف فى الأعمال الصالحة مقبولة وهينة ، ولذلك أوضح سبحانه : إياكم أن تظنوا أنى قد كلفتكم فوق طاقتكم ، لا ؛ فأنا لا أكلف إلا ما فى الوسع ، وإياكم أن تفهموا قولى:« والذين آمنوا وعملوا الصالحات » هو رغبة فى إرهاق نفوسكم ، ولكن ذلك فى قدرتكم لأننى المشرع ، والمشرع إنما يضع التكليف فى وسع المكلّف .

ونحن فى حياتنا العملية نصنع ذلك ؛ فنجد المهندس الذى يصمم آلة يخبرنا عن مدى قدراتها ، فلا يحملها فوق طاقتها وإلا تفسد . وإذا كان الصانع من البشر لا يكلف

الآلة الصماء فوق ما تطيق ، أيكلف الذى خلق البشر فوق ما يطيقون ؟ محال أن يكون ذلك .

إذن فيجب أن نوصد الباب أمام الذين يحاولون أن يتحللوا من التزامات التكليف عليهم ، فلا تعلق الحكم على وسعك الخائر الجائر ، ولكن علق الوسع على تكليف الله ، فإن كان قد كلف فاحكم بأن ذلك فى الوسع ؛ والدليل على كذب من يريد الافلات من الحكم هو محاولته إخضاع الحكم لوسعه هو ؛ أنّ غيره يفعل ما لا يريد أن يفعله . فحين ينهى الحق عن شرب الخمر تجد غيرك لا يشرب الخمر امتثالاً لأمر الله ، وكذلك تجد من يمتنع عن الزنا أو أكل الربا ؛ فإذا كان مثيلك وهو فرد من نوعك قادراً على هذا العمل فمن لا يمتنع عن مثل هذه المحرمات هو المذنب لا لصعوبة التكليف .

فالتكليف هو أمر الشارع الحكيم بـ«افعل» و«لاتفعل» وسبحانه لايكلف الإنسان إلّا إذا كان قادراً على أن يؤدى مطلوبات الشرع ؛ لأن الله لا يكلف إلا على قدر الطاقة ، واستبقاء الطاقة يحتاج إلى قوت ، طعام ، شراب ، لباس ، وغير ذلك مما تحتاج إليه الحياة ، ولذلك أوضح سبحانه أنه يوفر للإنسان كل ماديات الحياة الأساسية ، وإياكم أن تظنوا أن الله حين يكلف الإنسان يكلفه شططاً ، ولكن الإنسان هو الذى يضع نفسه فى موضع الشطط . فقال :

﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ﴾

(من الآية ٧ سورة الطلاق)

« قدر على رزقه » أى ضيق عليه قليلاً .

ويقول سبحانه :

﴿ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾

(من الآية ٧ سورة الطلاق)

إذن لا تفترض وتقدر أنت تكاليف المعيشة ثم تحاول إخضاع وارداتك إلى هذا التصور ، بل انظر إلى الوارد إليك وعش فى حيز وإطار هذا الوارد ، فإن كان دخلك مائة جنيه فرتب حياتك على أن يكون مصروفك يساوى دخلك ؛ لأن الله لا يكلفك إلا ما آتاك .

ولننظر إلى ما آتانا الله ؛ لذلك لا تدخل فى حساب الرزق إلا ما شرع الله ، فلا تسرق .

ولا تنهب ولا تختلس ولا ترتش ثم تقول : هذا ما آتانى الله ، لا ، عليك ألا تأخذ ولا تنتفع إلا بما أحل الله لك ، فإن عشت فى نطاق ما أحل الله يعينك الله على كل أمرك وكل حاجاتك ، لأنك تحيا بمنهج الله ، فيصرف عنك الحق مهمات الحياة التى تتطلب أن تزيد على ما آتاك الله ، فلا تخطر على بالك أو على بال أولادك . وتجد نفسك ـ على سبيل المثال ـ وأنت تدخل السوق وآتاك الله قدراً محدوداً من المال ، وترى الكثير من الخيرات ، لكن الحق يجعلك لا تنظر إلا فى حدود ما فى طاقتك ، وكذلك يُحسّن لك الله ما فى طاقتك ويبعد عنك ما فوق طاقتك ؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا ما آتاها ، ولا يحرك شهوات النفس إلا فى حدود ذلك .

ولذلك قال الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وأصحاب الجنة هم الذين لا يفارقونها مثلما يحب الصاحب صاحبه ؛ فالجنة تتطلبهم ، وهم يتطلبون الجنة ، والحياة فيها بخلود وما فاتك من متع الدنيا لم يكن له خلود ، وأنت فى الدنيا تخاف أن تموت وتفوت النعمة ، وإن لم تمت تخاف أن تتركك النعمة ؛ لأن الدنيا أغيار ، وفى ذلك لفت لقضايا الله فى كونه ، تجد الصحيح قد صار مريضاً ، والغنى قد صار فقيراً ، فلا شىء لذاتية الإنسان . وبهذا يعدل الله ميزان الناس فيأتى إلى الحالة الاقتصادية ويوزعها على الخلق ، ونجد الذى لا يتأبى على قدر الله فى رزقه وفى عمله يجعل الله له بعد العسر يسراً . وفى الجنة يُخلى الله أهلها من الأغيار .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ

وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾

وقوله الحق: ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل ﴾ ينطبق - أيضا - على أهل الاجتهاد الذين اجتهد كل منهم فى الدنيا، واختلفوا، هؤلاء يبعثون يوم القيامة وليس فى صدر أحدهم غل ولا حقد. ولذلك تجد سيدنا الإمام علياً - كرم الله وجهه - حين يقرأ هذه الآية يقول: « اللهم اجعلنى أنا وعثمان وطلحة والزبير من هؤلاء ». لأن هؤلاء هم الذين وقع بينهم الخلاف فى مسألة الخلافة، وكل منهم صحابى ومبشر بالجنة، فإن كانت النفوس قد دخلت فيها أغيار، فإياكم أن تظنوا أن هذه الأغيار سوف تصحبكم فى دار الجزاء فى الآخرة؛ لأن الله يقول: ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍ ﴾.

إن الخلاف كان خلافاً اجتهادياً بين المؤمنين وهم قد عملوا الصالحات وكل منهم أراد الحسن من الأعمال، ونشأ عن ذلك فى أغيار الدنيا شىء من عمل القلب، فأوضح سبحانه: إياكم أن تفهموا أن ذلك سوف يستمر معهم فى الآخرة؛ لأنهم جميعاً حينما اختلفوا كانوا يعيشون باجتهادات الله، وفى الآخرة لا اجتهاد لأحد. ويريد الحق أن يجعل هذا الأمر قضية كونية، ومثال ذلك تجد رجلاً قد تزوج امرأة بمقاييس غير مقاييس الله فى الزواج؛ تزوجها لأنها جميلة مثلاً، أو لأن والدها له جاه أو غنى، وبعد الزواج لم يعطه والدها الغنى شيئاً من ماله فيقول: غشنى وزوجنى ابنته، أو كانت جميلة، ثم لقى فيها خصالاً قبيحة كثيرة فكرهها، ونقول لمثل هذا الرجل: مادمت لم تأخذها بمقاييس الله فعليك أن تنال جزاء الاختيار.

ولكن من تزوج امرأة على دين الله، ووجد منها قبحاً، فلن يصحبه هذا القبح فى الآخرة، ولذلك نجد الحق قد جاء بهذه القضية بالذات، ولم يأت بها فى الأبناء أو فى البنات، بل فى الزوج والزوجة لأنهما عماد الأسرة. فبيّن للرجل: إياك أن تتخيل أن المرأة التى غاظتك أو أتعبتك أو كدرت عليك بخصلة سيئة فيها، إياك أن تظن أن هذه الخصلة السيئة ستصاحبها فى الآخرة، ولذلك قال سبحانه:

﴿ وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾

(من الآية ١٥ سورة آل عمران)

وأزواج مطهرة من الأشياء التى كنت تغضب منها وستكون مطهرة بتطهير الله لها .

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

ونجد الحق يقول مرة : « تجرى تحتها الأنهار » ومرة يقول : « تجرى من تحتهم الأنهار » ، ونجد « مِن » فارقاً بين القولين . إننا نرى من يستقر فى قصر ونجد الماء منساباً حوله وتحته يسر العيون ، وماء الآخرة هو ماء غير آسن ، وليس فيه أكدار الدنيا ، وكما أننا نسر بالماء فى الدنيا سنسر به أضعاف ذلك فى الآخرة . وقد تجرى المياه تحت القصر ولكن نبعها من مكان بعيد فيخاف صاحب القصر أن يقطعها آخر عنه ، ويطمئن الحق عباده الصالحين : ستجرى من تحت جنانكم الأنهار وكل المياه ستكون ذاتيتها من موقع كل مكون أنت فيه ولن يتحكم فيك أحد ، ولن يسد أحد عنك منبع المياه وسترى أنهار الآخرة بلا شطآن ؛ لأن كل شىء ممسوك لا بالأسباب كما فى الدنيا ، ولكن بـ« كن » التى هى لله . ولذلك يقول العباد فى جنة الآخرة :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

إنهم يقولون الحمد لله لأنه جل وعلا قد جمعهم ودلهم وأرشدهم إلى الثواب والنعيم دون منغصات ، والحمد لله هى عبادة يقولها المؤمنون فى الآخرة ؛ لأنهم أدوا حق الله فى تكاليفه فى الدنيا ويعطيهم الله فوق ما يتوقعون فى الآخرة . ونعيم الآخرة لا قيد عليه ، ولن يستطيع بشر مهما ارتقى بالابتكار أن يصل إلى ما فى الجنة ؛ لأن الشىء يتحقق لك من فور أن يخطر ببالك . (وقالوا الحمد لله) .

وهذا الحمد لله كان فى الدنيا عبادة تكليف ، أمّا فى الآخرة فهو « عبادة غبطة وسرور وتلذذ . (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) .

يقولها المؤمن ؛ لأن الله لو لم ينزل منهجاً سماوياً يحدد له حركة حياته استقامة وينذره

ويخوفه من المعاصى لما وصل إلى الجنة . والهداية ـ كما قلنا ـ هى الدلالة على الطريق الموصل للغاية ، إذن لابد أن تعرف الغاية أولاً ثم تضع الطريق الموصل لها ، بحيث لا يكون معوجاً ولا يعترضك فيه ما يطيل عليك المسافة ، وقوله الحق : « وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » يمنع أن يضع البشر للبشر قوانين تهديهم إلى الغاية ؛ لأن البشر أنفسهم لا يعرفون الغاية ؛ لذلك يوضحها لهم خالقهم بمنهجه المنزل على رسوله .

ومادامت الهداية من الله فسبحانه لن يخاطب كل إنسان مباشرة ، لكنه سبحانه ينزل الرسل يتلون علينا آيات الله ويوضحون لنا المنهج ؛ لذلك يأتى الحق فى الآية نفسها بقوله الحكيم :

﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

أنت فى الحياة الدنيا حين تجد من يقول لك : إن أردت أن ترتاح فأنا أنصحك أن تمشى إلى المكان الفلانى واذهب إليه عن الطريق الفلانى ، وستجدك سعيداً مرتاح البال ، ثم صدقته ونفذت ما قال ، ووجدت الرجل صادقاً . ألا تشعر بالسعادة ؟ . وإذا كان الحق قد أرسل الرسل بالبينات والآيات والمنهج الصحيح ، وسار عليه المؤمنون ثم وجدوا الجنة والنعيم ؛ لذلك كان لابد أن يشكروا الله وأن يقولوا : (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) . ولأن الرسل لم يكذبوهم بل جاءوا بالخير لهم .(ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) .

وكأن الحق يوضح لنا ونحن فى دار التكليف أن نستقبل المنهج على هذا الأساس ، وعلى كل واحد أن يحدد مكانه من الجنة ؛ بقربه من منهج الله أو بعده عنه ؛ لأن دخول الجنة هو جزاء العمل طبقاً لمنهج الحق . ووقف العلماء هنا ـ جزاهم الله خيراً ـ وقالوا : كيف نوفق بين هذه الآية :

﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

وبين قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(لن يُدخل أحداً عمله الجنة
قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟
قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة[١] .

وأقول : ليس هناك تناقض بين قول الله سبحانه وتعالى وقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم الذى بلغ عن الله سبحانه ، بل بينهما تأييد ؛ فالحق ساعة ما شرع أوضح أن من يعمل العمل الصالح سيدخل الجنة ، وهذا التشريع لم يجبر أحد الله عليه ، بل هو الذى يعطيه لنا فضلا منه ؛ فليس لأحد حق على الله ؛ لأنه لا يوجد عمل يعود بفائدة على الله ، واتباع المنهج إنما يعود على العبد بالمنفعة والخير ، فإن دخلت الجنة فهذا أيضاً بالفضل من الله . وينبهنا القرآن إلى الجمع بين هذه الآيات وأنه لا تعارض بين نص حديثى ونص قرآنى . يقول :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

فجزاء كل عمل عائد على الإنسان لأنّه يأخذ مكافأته على فعله ، فإن كانت المكافأة أكبر من جزاء الفعل فهى من الفضل ؛ لأن الحق هو القائل :

﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

وسبحانه أيضاً هو القائل :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النجم)

إن فهمت اللغة وكنت صاحب ملكة ناضجة تقول : هذه « اللام » للملك . وتفيد أنه لا حق لك على الله إلا بسعيك على وفق منهج الله ، وأنّ هذه الآية قد حددت العدل ولم تحدد الفضل .

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق والمرضى ومسلم فى صفات المنافقين والترمذى فى الجنائز وأبو داود فى الجنائز ، والنسائى فى الجنائز ، وابن ماجه فى الزهد ، وأحمد فى مسنده ١٢٥/٦ .

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

والمثال على ذلك أننا كمسلمين نصلى على الميت المسلم ، وقد أمرنا التشريع بذلك ، وأن ندعو الله أن يتجاوز عن سيئاته . فهل تضيف هذه الصلاة إلى الميت شيئا زائداً عن عمله ؟ لو لم تكن هذه الصلاة تضيف شيئاً لما أمر التشريع بها . فهى صلاة على ميت مسلم ، وإسلامه من عمله ، ونجد الحق يقول :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

أى أن الآباء والأبناء يشتركون معاً فى الإيمان وفى العمل ، وقوله تعالى :

﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

هذا الإلحاق يفيد أن منزلة الذرية كانت أقل من منزلة الآباء ، لكن الحق يرفع من منزلتهم إكراماً للآباء . وهذا الإلحاق جزاء للذرية ، وقد يكون أيضاً جزاء للآباء ؛ فيحضر لهم أولادهم معهم مادام الكل قد اشتركوا فى الإيمان ، وكان الآباء يتحرون الحلال فى إطعام الأبناء ولا يربونهم إلا على منهج الله . وقد يرى الأب أبناء جار له يلبسون الملابس الفاخرة ويأكلون الأكل الطيب ، ويتحمل الأبناء ويعيشون عيش الكفاف مع هذا الأب الملتزم بالعمل الصالح والأجر الحلال ، وينال الأبناء الجنة مع الأب لأنهم تحملوا معه مشاق الالتزام بالحلال .

وهكذا نجد كل إنسان مؤمن قد أخذ نتيجة عمله وزيادة .

﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

و « أورثتموها » من « الإرث » وتدل على أن هناك شيئا آل إلى الغير . ونعلم أن الله ، علم أزلا كيف سيسلك كل مخلوق وما سيفعله من كفر وإيمان وطاعة ومعصية ، وعلى رغم ذلك أعد سبحانه لكل واحد من خلقه مكانه فى الجنة على أنه مؤمن ، وأعد لكل

واحد من خلقه مكاناً فى النار على أساس أنه سيكفر .

إذن فقد أعدَّ سبحانه جناناً بعدد خلقه ، وأعدَّ أماكن فى الجحيم بعددهم ، فليست هناك أزمة أماكن عند إله قادر مقتدر . فإن آمنا كلنا فلن يضيق بنا واسع الجنة ، و ـ والعياذ بالله ـ إن كفر الخلق جميعاً فلن تضيق بهم النار . فإذا كانوا جماعة من خلق سيدخلون الجنة بالعمل ، فأين تذهب أماكن أهل النار ؟ إن الحق بفضل منه يمنحها المؤمنين .

إذن فقد ورثوا الذين لم يستحقوا الجنة بسبب الكفر .

وبعد الكلام فى الجنة والجزاء وفى حمد التلذذ والسرور والغبطة وفى عهد الجنة ، بعد ذلك كان من المناسب أن يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن موقف أهل الجنة من أهل النار ؛ فيقول سبحانه :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

وهكذا نرى التبكيت ، وتصور لنا الآية كيف يرى أهل الجنة أهل النار ، وهذا الترائى من ضمن النعيم ومن ضمن العذاب الأليم ، فحين يرى المؤمن بمنهج الله من عاداه وقهره وآذاه وهو فى النار فهذا من تمام اللذة . والآخر حين يرى مخالفه فى الجنة فهذا أيضاً من تمام العذاب . إذن لابد أن يتراءوا ، ولذلك يحدث الحوار ، وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار معترفين بأنهم وجدوا ما وعدهم به الله حقاً وصدقاً ، وأن الحق قد وهبهم هذه الجنة . فهل ـ يا أهل النار ـ وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟

ونلاحظ أن هناك خلافاً بين الأسلوبين مع أن السياق المنطقى واحد ؛ فأهل الجنة يقولون : « قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً » ، ولم يأت بالكاف فى كلمة ماوعد (الثانية) بل قال : « فهل وجدتم ماوعد ربكم حقاً » ؟

إنه قال سبحانه : « ما وعد » فقط ، ولم يقل ما وعدكم كما قال : (ما وعدنا) لأن المراد أن يلفتهم إلى مطلق الوعد ، وليس الخاص بهم فقط ، بل وأيضا الخاص بالمقابل ، وهكذا يتحقق الوعد المطلق لله . فأهل الجنة بإيمانهم وأعمالهم فى الجنة فضلاً من الله ، وأهل النار فى النار بكفرهم وعصيانهم عقاباً من الله .

وهنا يجيب أهل النار : (قالوا نعم) .

وهذا إقرار منهم بالواقع المشهدى الذى عاشوه واقعاً بعد أن كان وعيداً ، وهم لم يكابروا لأن المكابرة إنما تحدث بين الخصمين فى غير مشهد ، وهم فى الدنيا قبل أن يوجد المشهد كانوا يكذبون البلاغ عن الله ، وصارت الدار الآخرة واقعاً ، وتحقق وجودهم فى النار .

﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأعراف)

أى فينادى مناد من الملائكة يُسمع أهلَ الجنَّة وأهل النار بأن الطرد من رحمة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم ؛ بعدم الإيمان وبالتكذيب باليوم الآخر .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

والذى يصد عن سبيل الله هو من امتنع عن سبيل الله ، وصد غيره ، أى ضلّ فى ذاته ثم أضل غيره ، وهؤلاء هم الذين يطلبون منهج الله معوجاً ، ويذمونه ولا يؤمنون به فيعترضون على إقامة الحدود والقصاص ، وينفرون الناس عن منهج الله ؛ لينصرف الناس عن الدين . هم إذن قد صدوا عن سبيل الله وطلبوا العوج فيما شرع الله لينفروا الناس عمّا شرع الله ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل هم بالآخرة كافرون ، ولو كان الواحد منهم مؤمناً بالآخرة ويعلم أن له مرجعاً ومرداً إلى الله لما فعل ذلك .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الحجاب موجود بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وهم يتراءون من خلاله ، وبيّنه الحق سبحانه فقال :

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الحديد)

باطن هذا الحجاب الرحمة من ناحية أهل الجنة ، وظاهره المواجه لأهل النارفيه العذاب ، والحق هو القادر على كل شيء ؛ لذلك لا ينال أهل الجنة شيء من شقاء أهل النار ، ولا ينال أهل النار شيء من نعيم أهل الجنة ، ويسمع أهل النار رداً على طمعهم فى أن ينالهم بعض من نور أهل الجنة ، إنكم تلتمسون الهدى فى غير موطن الهدى ؛ فزمن التكليف قد انتهى ، ومن كان يرغب فى نور الآخرة كان عليه أن يعمل من أجله فى الدنيا ، فهذا النور ليس هبة من خلق لخلق ، وإنما هو هبة من خالق لمخلوق آمن به . وأنتم تقولون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وليس فى مقدور أهل الجنة أن يعطوا شيئاً من نور أهل الجنة فالعطاء حينئذ لله .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

و « كُلّا » المعنىّ بها أصحاب الجنة وأصحاب النار ، فقد تقدم عندنا فريقان ؛

أصحاب الجنة ، وأصحاب النار وهناك فريق ثالث هم الذين على الأعراف ، و « الأعراف » جمع « عُرف » مأخوذ من عرف الديك وهو أعلى شيء فيه ، وكذلك عرف الفرس . كأن بين الجنة مكانا مرتفعاً كالعُرف يقف عليه أناس يعرفون أصحاب النار بسيماهم ، ويعرفون أصحاب الجنة بسيماهم ، فكأن من ضمن السمات والعلامات ما يميز أهل النار عن أهل الجنة .

وكيف توجد هذه السمات ؟ يقال إن الإنسان ساعة يؤمن يصير أهلاً لا ستقبال سمات الإيمان ، وكلما دخل فى منهج الله طاعة واستجابة أعطاه الله سمة جمالية تصير أصيلة فيه تلازمه ولا تفارقه . وبالعكس من ذلك أصحاب النار فتبتعد عنهم سمات الجلال والجمال وتحل محلها سمات القبح والشناعة والبشاعة .

وإذا ما رأى أهل الأعراف أصحاب الجنة يقولون : سلام عليكم ؛ لأن الأدنى منزلة ـ أصحاب الأعراف ـ يقول للأعلى ـ أصحاب الجنة ـ سلام عليكم .

وجماعة الأعراف هم من تساوت سيئاتهم مع حسناتهم فى ميزان العدل الإلهى الذى لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

والقرآن يقول :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة القارعة)

ويارب لقد ذكرت الميزان ، وحين قدرت الموزون لهم لم تذكر لنا إلا فريقين اثنين . . فريقا ثقلت موازينه ، وفريقا خفت موازينه ، ومنتهى المنطق فى القياس الموازينى أن يوجد فريق ثالث هم الذين تتساوى سيئاتهم مع حسناتهم ، فلم تثقل موازينهم فيدخلوا الجنة ، ولم تخف موازينهم فيدخلوا النار ، وهؤلاء هم من تعرض أعمالهم على « لجنة الرحمة » فيجلسون على الأعراف . ومن العجيب أنهم حين يشاهدون أهل الجنة يقولون لهم سلام عليكم على الرغم من أنهم لم يدخلوها ، ولكنهم يطمعون فى أن يدخلوا ، لأن رحمة الله سبقت غضبه .

﴿ وَنَادَوْا أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّـةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

وبطبيعة الحال ليس فى هذا المكان غش ولا خداع .
وماذا حين ينظرون إلى أهل النار ؟

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

انظر إلى التعبير القرآنى « صرفت أبصارهم » أى أنهم لم يصرفوا أبصارهم لأن المسألة ليست اختيارية ؛ لأنهم يكرهون أن ينظروا لهم لأنهم ملعونون ، وكأن فى « صرفت أبصارهم » لونا من التوبيخ لأهل النار .

وقوله الحق : « وإذا صرفت أبصارهم تلقاء » أى جهة أصحاب النار يقولون : (رَبَّنَا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) .

هنا يدعو أهل الأعراف : يارب جنبنا أن نكون معهم . إنهم حين يرون بشاعة العذاب يسألون الله ويستعيذون به ألاّ يدخلهم معهم .
ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ

 ﴾

وكأن أصحاب الأعراف قد صُرفت أنظارهم لأصحاب النار ويرون فيهم طبقات من المعذبين ، فهذا أبو جهل ، وذاك الوليد ، ومعه أمية بن خلف وغيرهم ممن كانوا يظنون أن قيادتهم لمجتمعهم وسيادتهم على غيرهم تعطيهم كل سلطان وكيان ، وكانوا يسخرون من السابقين إلى الإسلام كعمار وبلال وصهيب وخباب ، وغيرهم ممن عاشوا للحق ومع الحق ، فيقول أهل الأعراف لهؤلاء : (ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) .

وكأنهم يقولون لهم : إنّ اجتماعكم على الضلال فى الدنيا لم ينفعكم بشىء . . شياطينكم ، والأوثان ، والأصنام والسلطان لم ينفعوكم وكذلك استكباركم على الدعوة إلى الإيمان هل أغنى ذلك عنكم شيئاً ؟ لا . لم يغن عنكم شيئاً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَهَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

ويشير أهل الأعراف إلى المؤمنين الصادقين من أمثال بلال وخباب ويقولون لأهل النار من أمثال أبى جهل والوليد بن المغيرة : أهؤلاء الأبرار من أهل الجنة الذين تقولون إنهم لن ينالوا رحمة الله ؟ هم إذن ـ أهل الأعراف ـ قد عقدوا المقارنة والموازنة بين أهل الجنة وأهل النار ، وكأنهم نسوا موقفهم فى انتظار الفرج وفرحوا بأصحاب الجنة ووبخوا أهل النار ، ولم يشغلهم حالهم أن يقفوا موقف الفصل فى هذه المسألة ، وهنا يدخل الحقُّ سبحانه أصحاب الأعراف جنته لفرحهم بأصحاب الجنة ، وتوبيخهم أهل النار ويقول لهم :

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأعراف)

وهؤلاء ـ كما قلنا ـ هم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ؛ وهم الطائفة التى جلست على الأعراف ، فلم تثقل حسناتهم لتدخلهم الجنة ، ولم تثقل سيئاتهم ليدخلوا النار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة مستغيثين طالبين أن يعطوهم ويفيضوا عليهم من الماء أو من رزق الله لهم فى الجنة ، فيقول أهل الجنة : نحن مربوطون الآن بـ « كن » ، ولم يعد لنا الاختيار ، وقد حرم الله عليكم أى شىء من الجنة ومنعه عنكم ، فأنتم يا أهل النار ممنوعون أو هذه المتع ممنوعة عنكم . وحين يطلب أهل النار الماء ، فهم يطلبون أوليات الوجود ، فى نار أحاطت بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه .

ولذلك يقول الحق بعد ذلك عن الكافرين الذين حرم عليهم خير الجنة :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

وهكذا يبين لنا الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية من هم الكافرون الذين حرّم عليهم الجنة ؛ إنهم من اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وأول مرحلة تمر على الإنسان هى اللعب ثم تأتى له مرحلة اللهو . ونعلم أن كل فعل تُوجَّه إليه طاقة فاعلة ، وقبل أن تُوجّه إليه الطاقة الفاعلة يمر هذا الفعل على الذهن كى يحدد الغاية من الجهد . وهذا المقصود له حدود ؛ إما أن يجلب له نفعاً ، وإما أن يدفع عنه ضُراً . وكل مقصد لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضراً ، فهو لعب .

إذن فتعريف اللعب : هو فعل لم يقصد صاحبه به قصداً صحيحاً لدفع ضر أو جلب نفع . كما يلعب الأطفال بلعبهم ، فالطفل ساعة يمسك بالمدفع اللعبة أو السيارة اللعبة ، هل له مقصد صحيح ليوجه طاقته له ؟ .لا ؛ لأنه لو كان المقصد صحيحاً لما حطم الطفل لُعَبَهُ . والطفل غالباً ما يكسر لعبته بعد قليل ، وهذا دليل على أنه يوجه الطاقة إلى غير قصد صحيح ولا يجلب لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها مضرة .

ولكن حين تُوَجَّه الطاقة إلى ما هو أدنى من المهم فهذا هو اللهو ، كأن يكون المطلوب منك شيئا وأنت توجه الطاقة إلى شيء آخر . والذى يعاقب عليه الله هو اللهو . أما اللعب فلا .

ولذلك نجد النبى ﷺ يطلب من الأهل أن يدربّوا الأبناء على شيء قد يفيد الأمة كالسباحة والرماية وركوب الخيل ، ولكن خيبة البشر فى زماننا أنهم جعلوا اللعب غاية لذاته . ومن العجيب أن اللعب صار له قانون الجد ولا يمكن أن يخرقه أحد دون أن يُعاقَب ؛ لأن الحَكم يرقب المباراة ، وإذا ما تناسى الحكم أمراً أو أخطأ هاج الجمهور . وأتساءل : لقد نقلتم قانون الجد إلى اللعب ، فلماذا تركتم الجد بلا قانون ؟

وكذلك نجد أن خيبة اللهو ثقيلة ؛ لأن الإنسان اللاهى يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم . فيجلس إلى لعبة النرد وهى الطاولة ويترك الشغل الذى ينتج له الرزق ، وليت هذا اللهو مقصورٌ على اللاهى ، ولكنه يجذب أنظار غير اللاهى ويأخذ وقته ، هذا الوقت الذى كان يجب أن يُستغل فى طاقة نافعة . وفساد المجتمعات كلها إنما يأتى من أن بعضاً من أفرادها يستغلون طاقاتهم فيما لا يعود على ذواتهم ولا على أمتهم بالخير . إذن فاللهو طاقة معطلة . (اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتّهم الحياة الدنيا) .

وغرورهم بالحياة الدنيا إنما يأتى من الأسباب التى خلقها الله مستجيبة لهم فظن كل منهم أنه السيد المسيطر . وحين غرتهم الحياة الدنيا نسوا الجد الذى يوصلهم إلى الغاية النافعة الخالدة ، ويكون عقابهم هو قول الله سبحانه :

﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأعراف)

فهل يعنى قوله عز وجل : « ننساهم » أنه يتركهم لما يفعلون ؟ . لا ، بل تأخذهم

جهنم لتشويهم ، ونسيانهم هنا هو أنه ـ سبحانه ـ لا يشملهم بمظاهر فضله ولطفه ورحمته ويتركهم للنار تلفح وجوههم وتنضج جلودهم .

وهكذا يتأكد من جديد أن الدنيا هى المكان الذى يعد فيه الإنسان مكانه فى الآخرة ، فإن أراد مكاناً فى عليين فعليه أن يؤدى التكليف الذى يعطيه مكانه فى عليين . وإذا أراد مكانه أقل من ذلك فعليه أن يؤدى العمل الأقل . كأن الإنسان بعمله هو الذى يحدد مكانه فى الآخرة ؛ لأن الحق لا يجازى الخلق استبدادا بهم و افتياتاً أو ظلماً ، ولكنه يجازى الإنسان حسب العمل ؛ لذلك فهناك أصحاب الجنة ، وهناك أصحاب النار ، وهناك أصحاب الأعراف . وهذا العلم الذى يُنزله لنا الحق قرآناً ينذرنا ويبشرنا هو دليل لكل مسلم حتى نتنافس على أن تكون مواقعنا فى الآخرة مواقع مشرفة .

﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وحين يقول الحق سبحانه : « وما كانوا بآياتنا يجحدون » فالآيات إما آيات كونية :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وإما آيات قرآنية كقوله سبحانه :

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾

(من الآية ٣ سورة فصلت)

وإما أن تكون آيات معجزات لإثبات النبوة كقوله سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

هم إذن جحدوا الآيات كلها ، وكان أول جحود هو جحود بالآيات الكونية التى

شاهدوها قبل أن يأتى التكليف ، فهم عاشوا الليل والنهار . وتنفسوا الهواء ، واستمتعوا بدفء الشمس ، وروى المطر أراضيهم ووجدوا الكون مرتباً منظماً يعطى الإنسان قبل أن يكون للإنسان إدراك أو طاقة ، وكان يجب أن تلفتهم هذه الآيات إلى أن لهم خالقاً هو الحق الأعلى . وحين جاء لهم الموكب الرسالى جحدوا آيات المعجزات التى تدل على صدق الرسل . وحين جاء القرآن معجزاً جحدوا الآيات التفصيلية التى تحمل المنهج . إذن فلا عذر لهم فى شىء من ذلك لأن الحق يقول :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

أى لا عذر لهم فى شىء من هذا الجحود ؛ لأن الكتاب مفصل ، وقد يقولون: إن الكتاب طارىء علينا ، وكذلك الرسول الذى جاء به . إذن فما موقفهم من الآيات الكونية الثابتة ؟ لقد جحدوها أيضا . (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم) .

و« فصلناه » أى أنه سبحانه لم ينزل كلاما مجملاً أو مبهماً ، لا ، بل فيه تفصيل العليم الحكيم ، إنه فصّل أحكامه ومعانيه ومواعظه وقصصه حتى جاء قيما غير ذى عوج ، وسبحانه هو القادر أن ينزل المنهج المناسب لقياس ومقام كل إنسان .

إنه حينما يأتى إلينا من يستفتينا فى أى أمر ويحاول أن يلوى فى الكلام لنأتى له بفتوى تبرر له ما يفعله ، فنحن نقول له : ليس لدينا فتوى مفصلة ؛ لأن الفتاوى التى عندنا كلها جاهزة ، ولك أن تدخل بمسألتك فى أى فتوى .

﴿ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأعراف)

وهناك أناس سمعوا القرآن ورأوا الآيات واهتدوا ، فلماذا اهتدى هؤلاء وضل هؤلاء ؟ لقد آمن من صدق بالوجود الأعلى كما قلنا فى سورة البقرة :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فقد آمن بالقرآن من اهتدى إلى الحق ، ومنهم من أوضح الحق عنهم : أنهم حين يستمعون القرآن تفيض أعينهم من الدمع ، وأيضاً هناك من لا يلمس الإيمان قلوبهم حين يستمعون إلى القرآن .

﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾

(من الآية ١٦ سورة محمد)

وهؤلاء هم الذين غلظت قلوبهم فلم يتخللها أو يدخلها ويخالطها نور القرآن ، لذلك تجد الحق يرد عليهم بقوله سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾

(من الآية ١٦ سورة محمد)

ويقول سبحانه :

﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى ﴾

(من الآية ٤٤ سورة فصلت)

سبق أن ضربنا المثل بأن الفعل فى بعض الحالات واحد ، لكن القابل للفعل مختلف ، لذلك تكون النتيجة مختلفة . وعلى سبيل المثال : إذا كنت فى الشتاء ، وخرجت ووجدت الجو بارداً، وشعرت أن أطراف أصابعك تكاد تتجمد من البرد، فتضم قبضتيك معاً وتنفخ فيهما ، وقد تفعل ذلك بلا إرادة منك لتدفىء يديك . وكذلك حين يأتى لك كوب من الشاى الساخن جداً ، وتحب أن تشرب منه ، فأنت تنفخ فيه لتأتى له بالبرودة . والنفخة من فمك واحدة ؛ تأتى بحرارة ليديك ، وتأتى بالبرودة لكوب الشاى ، وهكذا فالفعل واحد لكن القابل مختلف . وكذلك القرآن فمن كان عنده استعداد للإيمان فهو يهتدى به ، ومن لا يملك الاستعداد فقلبه غلف عن الإيمان .

وموقف هؤلاء العاجزين عن استقبال الرحمة موقف غير طبيعى ، وماذا ينتظرون بعد هذا الكفر ، وبعد الافتئات وبعد الاستكبار وبعد التأبى وبعد اتخاذ الدين لهواً ولعباً ، ماذا ينتظرون ؟

ها هو ذا الحق سبحانه يوضح لهم العاقبة :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

وما معنى التأويل ؟ . . التأويل هو ما يؤول إليه الشىء ، هو العاقبة التى يعدها الحق ، فالرحمة والجنة لمن آمن ، والنار لمن كفر ، والحق هو من يقول ويملك قوله لأن الكون كله بيده .

وهنا يقول سبحانه وتعالى : (هل ينظرون إلا تأويله) .

أي هل ينتظرون إلا المرجع الذى يؤول إليه عملهم ؟ إن مرجعهم الأخير هو العذاب بعد الحساب يوم يأتى تأويل وغاية وعاقبة ما عملوا .

وحين يأتى يوم القيامة ويتضح الحق ويظهر صدق ما جاء به الرسول من الوعد والوعيد ماذا سيكون قولهم ؟ . . سيقولون ما أورده سبحانه على ألسنتهم : (يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) .

أى أنهم سيعلنون التصديق حين لا ينفع هذا التصديق ؛ لأنهم لن يكونوا فى دار التكليف ، سيقرون بالإيمان لحظة لا ينفعهم ذلك .

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

هم إذن يقرون بأن الرسل حملت المنهج الحق ويتساءلون عن الشفيع . ونعلم أن الشفيع لابد أن يكون محبوباً عند من يشفع عنده ، ونحن فى الدنيا نجد من يبحث لنفسه عمن يشفع له عند صاحب جاه يكون أثيرا وعزيزا لديه ، أو يكون له كلمة وفضل عليه فلا يرد عليه كلمته . فمن يأتى يوم القيامة بالشفاعة لهؤلاء ؟ . . لا أحد ، وسنجدهم يتخذون الشفعاء من الذين اتخذوهم أنداداً لله . وسيعلن هؤلاء أيضاً الكراهية لهم ، ولو مكنهم الله من الشفاعة ما أعطوها للكافرين المشركين ؛ ففى الدنيا كان هؤلاء مؤتمرين بأمر البشر وضلالاتهم . أما يوم الحساب فلا أحد خاضع لإرادة أحد ، حتى الجوارح لا تخضع لإرادة صاحبها ، بل هى خاضعة للحق الأعلى . وفى الآخرة لا مرادات لأحد .

وقد ضربنا من قبل المثل وقلنا : هب أن سرية فى جيش ما وعليها قائد صغير برتبة ضابط ، ومفروض فى جنود السرية أن ينفذوا كلامه ، ثم راحوا لموقعة وأعطاهم الضابط الصغير أوامر خاطئة بما له من فرض إرادة عليهم فنفذوا ما أمروا به . ولحظة أن يعودوا ويحاسبهم القائد الأعلى فسيقولون : لقد فعلنا ما أمرنا به الضابط المكلف بقيادتنا ، وكذلك ستأتى الجوارح فى الآخرة : تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وألسنتهم وجلودهم .

إذن فالأبعاض سترفع شكواها إلى الله يوم ألا يكون لأحد من ملك سواه ، ويومئذ سيقول المكذبون الصدق الذى لن ينفعهم .

﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

وسوف يبحثون عن شفاعة ، لكنهم لن يجدوا ، بل إن أول من يسخر من الذين عبدوا غير الله هم المعبودون أنفسهم .

ولذلك نجد قوله الحق سبحانه :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

وما ذنب المعبود ؟ . . إن الأصنام لا ذنب لها ، بل كل منها يريد أن يشفى نفسه بأن يكون أداة تعذيب لمن أعطوه غير حقه . ولذلك نجد أن الأحجار التى عُبدت تقول : عبدونا ونحن أعبد لله من القائمين بالأسحار ؛ لأن القائم فى الأسحار من الأغيار قد يختار أمراً غير هذا ، ولكنا كنا مقهورين على الطاعة ، وقد اتخذوا صمتنا علينا دليلاً .

إن الأحجار تعلن أنها لم تكن تملك قدرة رفض أن يعبدها أحد أو أن تبعده عنها وتعلن له غباءه .

والشاعر يقول :

قد تجنوا جهلا كما قد تجنوا على ابن مريم والحوارى
للمغالى جزاؤه والمغالى فيه تنجيه رحمة الغفار

وهكذا يأتيهم الحق واضحاً يوم القيامة .

إنهم سيطلبون العودة إلى الدنيا ، وهذا من الخيبة ؛ لأن مثل هذا الإقرار ليس من الإيمان ، فالإيمان يكون بالغيب لا فى المشهد . وحتى ولو عادوا ، فلن يؤمنوا ! . والحق هو القائل :

﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأنعام)

وكأنهم نسوا لحظة إقرارهم أنهم من الأغيار ، وأتى فيهم القول الفصل من الله .

﴿ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

لقد جاء لهم الخسران بعد أن غاب عنهم ما كانوا يفترون على الله فى الدنيا ، إنهم

رفضوا عبادته ـ سبحانه ـ وعبدوا غيره أصناماً صارت وقوداً للنار التى سيصلونها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

هنا ربوبية ، وهنا ألوهية : « ربكم الله » ولا أحد يختلف فى مسألة الربوبية لأن الحق يقول على ألسنة الكافرين والمشركين :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الزمر)

وكذلك إن سألتهم من خلقهم ؟ سيقولون : الله ، ولم يدّع أحد لنفسه مسألة الربوبية ، لأن الربوبية جاءت بنفع لهم ، لكن الألوهية دخلت بمنهج هو : « افعل ولا تفعل » ؛ لأن التكليف من الإله الرب ، والتكليف نعمة منه وهو لمصلحتكم أنتم ، فلا شىء فى التكليف يعود على الله . وفعلكم الحسن أو السيىء لن يعطى لله صفة لم تكن له ؛ لأن صفات الكمال أزلية ، وبصفات الكمال خلقكم أنتم ، إذن فأنتم لن تأتوا بصفة ما ، بل بصفات الكمال أوجدكم . وإن كنتم أنتم فى شك فى هذه الربوبية فربكم هو الله ـ ولله المثل الأعلى ـ منزه عن التشبيه ، كأن تقول الأم للولد : قال لك أبوك لا تسهر خارج المنزل ليلاً ، فيتأبى الولد . وتنبه الأم ولدها : إن أباك هو الذى يأتى لك بالأكل والشرب ، والملابس ويعطيك مصروف اليد . . إلخ .

وقد ضربت هذا المثل لأشرح كيف أن المُكلفَ هو الرزّاق ولا أحد سواه يرزق ،

لذلك كان يجب أن تقبل تكاليفه لأنه سبق لك بالفضل بأن أعطى لك وسخر لك الدنيا .

ومن قبل فصل الحق سبحانه لنا خلق الإنسان ، ويفصل لنا هنا خلق السماء والأرض لأن ظرف وجود الإنسان هو السماء والأرض ، وكل الخيرات تأتى له من السماء ومن الأرض ، وإذا كان الله قد علمنا كيف خلقنا ، فهو هنا يعلمنا كيف خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان وخلق السموات والأرض مسألتان ينشغل بهما العلم الحديث ، فمن العلماء من قال : إن الأرض انفصلت عن الشمس ، ومنهم من افترض نظرياً أن الإنسان أصله قرد ، ولهؤلاء نقول : هذا حكم منكم لا يُقبل ؛ لأنكم لم تشهدوا الخلق ، ولذلك فعليكم أن تسمعوا ممن خلق الخلق ليقول لكم كيف خلق الخلق .

هو سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والآية تتعرض للخلق الأول وهو السموات والأرض ـ كما أوضحت ـ وهو الظرف الوجودى للإنسان الخليفة ، وطرأ الإنسان على هذا الكون بكل ما فيه من قوى ونواميس ، فكأن الله أعد الكون للخليفة قبل أن يُخلَق الخليفة ليجىء الخليفة فيجد كوناً مسخراً له ؛ ولا يستطيع أى كائن منه أن يخرج عن مراد الله فى شىء (إن ربكم الله الذى خلق) .

ومعنى « خلق » أى أوجد شيئاً كان معدوماً وبرأه على غير مثال سبقه . فربنا سبحانه قدر كل شىء بنظام دقيق غير مسبوق ، هذا هو معنى الخلق ، وكلمة « الخلق » مادتها الفاعلة هى : خالق ، وسبحانه وتعالى يجمعها مع أنه الخالق الوحيد فيقول :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

إذن فهناك الخالق الأعلى وهو الله ، ولكنه سبحانه أيضا أشرك خالقاً غيره معه فقال

جل وعلا : (فتبارك الله أحسن الخالقين) . كيف ؟ ؛ لأن الخلق إيجاد شىء معدوم ، والذى صنع الميكرفون يقال خلقه ، والذى صنع الكوب يقال خلقه ، والذى صنع المصباح يقال خلقه ، لأنه كان شيئاً معدوماً بذاته ، فأوجده . لكن الفارق أن الخالق من البشر يوجد معدوماً من موجود ولا يأتى بمادة جديدة ؛ فمن أخذ المواد الموجودة فى الكون وصمم منها المصباح وصهر الرمل وفرغ الهواء داخل الزجاج يقال له : خلق المصباح وأوجد معدوماً من موجود .

لكن الخالق هو خير الخالقين لأنه يخلق من عدم ولم يحرم خلقه حين يوجدون شيئا معدوماً من أن يوصف الواحد منهم بأنه خالق ، وسبحانه حين خلق خلق من لا شىء ، وأيضاً فإنكم حين تخلقون أى صنعة تظل جامدة على هيئة صناعتها ، فمن صنع الكوب من الرمل المصهور يظل الكوب هكذا ، ولا نستطيع ـ كما سبق أن قلت قديماً ـ أن نأتى بكوب ذكر ، وكوب أنثى ، ونضعهما معاً فى مكان ونقول لهما :أنجبا لنا أكواباً صغيرة .

لكن ما يخلقه ربنا يعطى له سر الحياة ويجعله بالقانون ينتج غيره وينمو ويكبر . إذن فهو أحسن الخالقين .

والله سبحانه وتعالى يعطينا خبر خلقه السموات والأرض . وأوضح سبحانه أن السموات سبع وقد جاءت مجموعة . أما الأرض فجاء بها مفردة . لكنه جل وعلا قال فى آية أخرى :

﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَٰتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ .

(من الآية ١٢ سورة الطلاق)

فكما خلق سبع سموات خلق سبع أراضين ، ولماذا جاء بالسماء بالجمع وترك لفظ الأرض مفرداً ؟ . . لماذا لم يقل : سبع أراضين ؟ ؛ لأن كلمة « أراضين » ثقيلة على اللسان فتركها لثقلها وأتى بالسموات مجموعة لخفتها ويسر نطقها .

والسماء هى كل ما علاك فأظلك ، هذا معنى السماء فى اللغة . لكن هل السماء التى يريدها الله هى كل ما علاك ؟ . . إن النجم هو ما علاك ؛ وقد يقال : إن الشمس علتك ، والقمر علانا جميعاً . ونلفت الانتباه هنا ونقول للناس الذين أحبوا أن يجعلوا

السموات هى الكواكب إنها ليست دائما ما علانا ؛ فالشمس تعلو وقتا وتنخفض وقتاً آخر . وكذلك القمر .

إذن فالوصف منحسر عن الشمس أو القمر بعض الوقت ، ولا يصح أن يوصف أى منهما بأنه سماء دائما . وشىء آخر وهو أنهم حينما قالوا على الكواكب التى كانت معروفة بأنها كواكب سبعة وقالوا : إن هذه هى السماء ، إنهم بقولهم هذا قد وقعوا فى خطأ . وأوضح الحق لنا بالعلم أن للشمس توابع أخرى . فمرة رأى العلماء ثمانية توابع ، ومرة تسعة ، وأخرى عشرة توابع ، وهكذا انهدمت فكرة أن التوابع هى السماء ، وبقيت السماء هى ما فوق هذا كله ، والحق هو القائل :

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الصافات)

هذه ـ إذن ـ زينة للسماء الدنيا ، والسماء التى يقصدها ربنا ليست هى التى يقولون عليها ، بل السماء خلق آخر لا يمكن لأحد أن يصل إليه ، وكان الجن قديماً يقعدون منها مقاعد للسمع « فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا » . وحدث هذا بعد بعثته ﷺ والحق هو من قال لنا ذلك . ولم يوضح الحق لنا حقيقة هذه السماء ونظامها ، أى أن ربنا يريد لعقولنا أن تفهم هذا القدر فحسب ، وسبحانه خالق السماء التى فوقنا ، وهو جل وعلا خالق أراضين . وأين هى هذه الأراضين ؟ . . أهى أراضين مبعثرة ؟

ولقد أثبت العلم أن كل مجرّة من المجرّات فيها مليون مجموعة شمسية ، وكل مجموعة شمسية فيها أرض ، إذن فهناك أراضٍ عديدة ، ونلحظ أن الحق سبحانه حين يتكلم عن الأرض فكل مخاطب بالأرض التى هو فيها ، ولذلك قال بعض العلماء : إن فى هذا العالم العالى توجد أراضٍ ، وكل أرض أرسل لهم الحق رسولاً . والحق هو القائل :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ويعطينا العلم كل يوم مزيداً من الاكتشافات . وهكذا تكون السماء هى كل ما علاك والأرض كل ما أقلك . ومادامت سبع سموات ، والسماء الأولى فراغ كبير وفضاء ، وتأتى بعدها السماء الثانية تُظل السماء الأولى ، وكل سماء فيها أرض وفيها سماء أخرى . ونحن غير مكلفين بهذا ، نحن مكلفون بأن نعلم أن الأرض التى نحن عليها مخلوقة لله . والحق يقول :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

وقوله:« فى ستة أيام » هو ظرف للخلق . واليوم نعرف أنه المدة من طلوع الشمس إلى الغروب ثم إلى الشروق ومدته أربع وعشرون ساعة . لكن لابد لنا أن نعرف بعضاً من اصطلاحات الحق القرآنية .

فهو يقول سبحانه وتعالى :

﴿ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة سبأ)

أى هناك ليل وهناك يوم ، إذن فاليوم عند الحق غير اليوم عندنا ؛ لأننا نطلق اليوم على المدة الزمنية من طلوع الشمس إلى غروبها وشروقها من جديد . هكذا يكون اليوم فى العرف الفلكى : من شروق إلى شروق ، أو من غروب إلى غروب ، وقول الحق : (سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين) .

يعنى أنه سبحانه قد جعل الليل قسماً والنهار قسماً ، وهل كان هناك من عرف اليوم إلا بعد أن وجدت الشمس ؟ . . وإذا كانت الشمس هى التى تحدد لنا اليوم فكيف عُرف اليوم قبلها وخصوصاً أن السماء والأرض حينما خُلقتا لم تكن هناك شمس أو كواكب ؟ . . وعلينا هنا أن نعرف أن هذا هو تقديره سبحانه وقد خاطبنا به بعد أن خلقه ، وخاطبنا به بعد أن عرفنا مدة اليوم . ألم تقرأ قول الله سبحانه :

﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة مريم)

وليس فى الآخرة بكرة ولا عشى ، إذن سبحانه قد قدر البكرة وقدر العشى ، وكذلك

« فى ستة أيام » وتلك هى الآيات المحكمات فى القرآن بالنسبة لزمن الخلق ؛ ستة أيام ، ولكن آية التفصيل للخلق ، جاءت فى ظاهر الأمر أنها ثمانية أيام . اقرأ معى :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾

(الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ومن الآية ١٢ سورة فصلت)

والظاهر من آية التفصيل أنها ثمانية أيام ، أما آيات الإجمال فكلها تقول : إنها ستة أيام ، ومن هذه النقطة دخل المستشرقون ، وادعوا زوراً أن القرآن فيه اختلاف ، وحاولوا أن يجعلوها ضجة عالية . ونقول : إنه ـ سبحانه ـ خلق الأرض وما فيها فى أربعة أيام كاملة بلا زيادة ولا نقصان ، فالمراد أن ذلك حصل وتم فى تتمة أربعة أيام ويضم إليها خلق السموات فى يومين فيكون عدد الأيام التى تم فيها خلق السموات والأرض ستة أيام أو نحمل المفصل على المجمل ، فحين يقول الحق :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

فهل خلق الله يحتاج إلى علاج حتى يتطلب الزمن الممتد ؟ . . إن ربنا يخلق بـ « كن » ، ونحن البشر نعالج على حسب قدرتنا لنخلق شيئاً ، وكل عملية نقوم بها تأخذ زمناً ، لكن من يخلق بكلمة « كن » فالأمر بالنسبة له هين جداً ـ سبحانه وتعالى ـ لكن لماذا جاء بخبر الخلق فى ستة أيام ؟

نعلم أن هناك فرقاً بين ميلاد الشىء وبين تهيئته للميلاد . وكنا قد ضربنا المثل سابقا ـ ولله المثل الأعلى ـ بصانع الزبادى ، الذى يأتى بأكواب اللبن الدافىء ، ثم يضع فى

كل منها جزءاً من خميرة الزبادى ، ويضع تلك الأكواب فى الجو المناسب . فهل يؤدى هذا الرجل عملاً لمدة أثنتى عشرة ساعة فى كل كوب ، وهى المدة اللازمة لتخمر الكوب ؟ . . طبعاً لا ، فقد اكتفى بأن وضع فى كل كوب عناصر التخمر لتتفاعل بذاتها إلى أن تنضج .

ولننظر إلى خلق الجنين من تزاوج بويضة وحيوان منوى . ويأخذ الأمر تسعة شهور ، وسبحانه جل وعلا لا يعمل فى خلق الجنين تسعة شهور ، لكنه يترك الأمر ليأخذ مراحل تفاعلاته .

إذن فخلق الله السموات والأرض فى ستة أيام لا يعنى أن الستة أيام كلها كانت مشغولة بالخلق ، بل قال سبحانه : « كن » وبعد ذلك ترك مكونات السموات والأرض لتأخذ قدرها ومراحلها ؛ لأن ميلادها سيكون بعد ستة أيام . وفى القرآن آية من الآيات أعطتنا لمحة عن هذه المسألة ، فقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة ق)

أى خلق سبحانه السموات والأرض دون تعب ؛ لأنه لا يعالج مسألة الخلق ، بل إنما يحدث ذلك بأمر « كن » فكانت السموات والأرض . والآية التى بعدها فوراً تقول : (فاصبر على ما يقولون) .

وكأن قوله سبحانه هنا جاء لتسلية الرسول ﷺ موضحاً له : إنهم يكذبونك وقد ترغب فى أن نأخذهم أخذ عزيز مقتدر . لكن الحق جعل لكل مسألة كتاباً ، فهو قد خلق السماء والأرض فى ستة أيام . ونحن فى حياتنا نقول لمن يتعجل أمراً : يا سيدى إن ربنا خلق السماء والأرض فى ستة أيام . فلا تتعجل الأمور .

إذن كان ربنا هو القادر على أن ينجز خلق السماء والأرض فى لحظة ، لكنه أمر « بكن » وترك المواد تتفاعل لستة أيام . ولماذا لا نقول : جاء بكل ذلك ليعلمنا التأنى ، وألا نتعجل الأشياء ؟ لأنه وهو القادر على إبراز السموات والأرض فى لحظة ، خلقها فى ستة أيام ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة ق)

أى لا ترهق نفسك لأنه سبحانه خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، وسيأتى لهؤلاء الجاحدين يومهم الذى يؤاخذون فيه بسوء أعمالهم وسوف يأتى حتماً .

وهناك من يتساءل : كيف خلق الكون بما فيه من الرواسى والكائنات ؟ . . ونقول : إنه الإنجاز الذى أخبر به سبحانه مرة واحدة ، وانفعلت الكائنات للقدرة مرة واحدة ، وتعددت استدامة انفعالات السامع لقدرة الله ، فى كل جزئية من جزئيات الفعل ، وأخذ الأمر ستة أيام . واستقر الأمر بعد ذلك واستتب ، وسبحانه يقول :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

ولابد أن نعرف العرش ماهو . وسبحانه يقول فى ملكة سبأ :

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة النمل)

فالعرش إذن هو سرير الملك ؛ لأن الملك لا يجلس على العرش إلا بعد أن تستقر الأمور .

فكأن قوله : « استوى على العرش » كناية عن تمام الأمور ؛ وخلقها وانتهت المسألة . لكن العلماء حين جاءوا فى « استوى » ، اختلفوا فى فهمها ؛ لأن العرش لو كان كرسياً يجلس عليه الله ، لكان فى ذلك تحييز لله ووضعه وضمه فى جرم ما . وسبحانه منزه عن أن يحيزه شىء . ولذلك أخذ العلماء يتلمسون معانى لكلمة « استوى » منهم من قال : إن معناها هو قصد إليها بخلقه واختراعه ، ومنهم من قال : المقصود بها أنه استعلى وارتفع أمره ، ومنهم من قال : « صعد » أمره إلى السماء واستند إلى قوله الحق :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة فصلت)

وكلها معانٍ متقاربة . وجماعة من العلماء أرادوا أن يخرجوا من التشبيهات ؛ فقالوا : المقصود بـ « استوى » أنه استولى على الوجود ، ولذلك رأوا أن وجود العرش والجلوس عليه هو سمة لاستقرار الملك . وحتى لا ندخل فى متاهات التشبيهات ، أو متاهات التعطيل نقول : علينا أن نأخذ كل شىء منسوب إلى الله فى إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

فحين يقول سبحانه :

﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الفتح)

ونحن نفهم أن لليد مدلولاً ، والقرآن لغة عربية يخاطبنا بها سبحانه ، فالقول أن لله يداً فهذا دليل على قدرته . واستخدام الحق كلمة اليد هنا كناية عن القدرة . والإنسان عليه أن يأخذ كل شىء منسوب إلى الله مما يوجد مثله فى البشر ، فى إطار « ليس كمثله شىء » ، فنقول : سبحانه له يد ليست كيد البشر ، وله وجود لكنه ليس كوجود البشر ، وله عين ليست كعيون البشر . وله وجه ليس كوجه أحد من البشر . ولذلك حينما سئل سيدنا الإمام مالك عن هذه المسألة قال لمن سأله : « الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة » وأراك رجل سَوْء ! أخرجوه . نعم السؤال عنه بدعة لأنه يدخل بنا فى متاهة التشبيه ومتاهة التعطيل ، وهل سأل أحد من صحابة رسول الله ﷺ عن معنى الاستواء ؟ . . لا ؛ لأنهم فهموا المعنى ، ولم يعلق شىء من معناها فى أذهانهم حتى يسألوا عنها رسول الله ﷺ . إنهم فهموها بفطرتهم التى فطرهم الله عليها فى إطار ما يليق بجلال الله وكماله .

وإن قال قائل : أرسول الله كان يعلم المعنى أم لا يعلم ؟ . . إن كان يعلم لأخبرنا بها ، وإن لم يخبرنا فقد أراد أن يكتمها . وإن لم يكن قد علم الأمر . . فهل تطلب لنفسك أن تعلم ما لم يعلمه ﷺ ؟

أو أنه ﷺ ترك لكل واحد أن يفهم ما يريد ولكن فى إطار « ليس كمثله شىء » والذين

يمنعون التأويل يقولون : إياك أن تؤول اليد بالقدرة ؛ لأنه إن قال : إن له يداً ، فقل ليست كأيدينا فى إطار « ليس كمثله شىء » ؛ لأنه سبحانه له حياة ، وأنت لك حياة ، أحياته كحياتك ؟ . لا ، فلماذا إذن تجعل يده مثل يدك ؟ . . إذن لابد أن ندخل على كل صفة لله فننفى عنها التعطيل وننفى عنها التشبيه . ثم إن من يمنعون التأويل نقول لكل منهم : أنت ستضطر أخيراً إلى أن تؤول ؛ لأن الحق يقول :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

ومادام « كل شىء هالك إلا وجهه » فكل ما يطلق عليه شىء يهلك ، ويبقى وجهه سبحانه فقط ، فلو أنت قلت الوجه هو هذا الوجه ، فكأن يده تهلك ورجله تهلك وصدره يهلك ، وحاشا لله أن يحدث ذلك . وتكون قد دخلت فى متاهة ما لها من آخر . لذلك نقول : لنأخذ النص وندخله فى إطار « ليس كمثله شىء » . وآية الاستواء على العرش هذه ، مذكورة فى سور كثيرة ، وهى تحديداً فى « سبعة مواضع » ؛ فى سورة الأعراف التى نحن بصددها ، وسورة يونس ، وسورة الرعد ، وسورة طه ، وسورة الفرقان ، وسورة السجدة ، وسورة الحديد .

وهنا يقول الحق بعد الحديث عن الاستواء على العرش : (يغشى الليل النهار) .

الله ـ سبحانه ـ قد خلق السماء والأرض للخليفة فى الأرض وهيأ له فيها أصول الحياة الضرورية ودلّه على ما يحتاج إليه ، فماذا سيفعل هذا الخليفة ؟ . . لابد أن يقوم بكل مقومات الحياة ، وإذا ما عمل فسيبذل جهداً ، والجهد يقتضى راحة . ومن يشتغل ساعة لابد أن يرتاح ساعة ، وإن اشتغل ساعتين ولم يسترح ساعة غُلب على نفسه .

ونحن نرى فى الآلة التى تعمل ثلاث ورديات يومياً أى التى تعمل لمدة الأربع والعشرين ساعة دون توقف أنها تُستهلك أكثر من الآلة التى تعمل ورديتين ، والآلة التى تعمل وردية واحدة أى لمدة ثمانى ساعات يطول عمرها أكثر . وكل إنسان يحتاج إلى الراحة . فشاء الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن الليل والنهار متعاقبان من أجل هذا الهدف :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

أى لتسكنوا فى الليل ، وتبتغوا الفضل فى النهار ، فإن كنت لم تسترح بالليل فلن تقدر أن تعمل بالنهار ، فمن ضروريات حركة الخلافة فى الأرض أن يوجد وقت للراحة ووقت للعمل . لذلك أوضح سبحانه لنا : أنا خلقت الليل والنهار ، وجعلت الليل سكناً أى للراحة والبعد عن الحركة ، والحق يقول هنا :

﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

ويكون المعنى هنا أن النهار يغشى الليل ، ولذلك تحدثنا من قبل عن تتابع الليل والنهار لنستنبط منها الدليل على أن الأرض كرة .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

والليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، وفى مصر نكون فى نهار مثلا ، ويكون هذا الوقت فى بلد آخر ليلاً ، وإذا سلسلتها إلى أول ليل وإلى أول نهار ، وأيهما الذى كان خلفة للثانى ؟ فلن تجد ؛ لأن كلا الاثنين خلقا معاً . ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة التسطيح وكانت الشمس قد خلقت مواجهة لسطح الأرض لكان النهار قد خلق أولاً ثم يعقبه الليل ، ولو كانت الشمس قد خلقت غير مواجهة للسطح كان الليل سيأتى أولاً ثم تطلع الشمس على السطح ليوجد النهار . والحق سبحانه أراد من الليل والنهار أن يكون كلاهما خلفة للآخرة ، ولايمكن أن يكون ذلك إلا إذا كان الله سبحانه خلق الليل والنهار دفعة واحدة . كان لابد أن تكون الأرض كرة ؛ ليغشى النهار الجزء المواجه للشمس ، وليغشى الليل الجزء غير المواجه للشمس ، وحين تدور الأرض يأتى النهار خلفة لليل ، ويكون الليل خلفة للنهار .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

(يغشى الليل النهار) ويغشى النهار الليل وحذفت للاعتماد على الآيات السابقة التى منها قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

أى أن الليل لا يسبق النهار وكذلك النهار لا يسبق الليل ، وهذا دليل على أنهما خُلقا دفعة واحدة .

والحق يقول هنا : (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر) .

فلا أحد من هذه الكائنات له اختيار أن يعمل أو لا يعمل ، بل كلها مسخرة ، ولذلك تجد النواميس الكونية التى لا دخل للإنسان فيها ولا لاختياراته دخل فى أمورها تسير بنظام دقيق ، ففى الوقت الفلانى ستأتى الأرض بين الشمس والقمر ، وفى الوقت الفلانى سيقع القمر بين الأرض والشمس ، وسيحدث للشمس كسوف ، وسيحدث للقمر خسوف ، وكل أمر من هذا له حساب دقيق .

﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

والخلق إيجاد الأشياء من عدم ، فبعد أن خلق الله الكون لم يترك شؤون الكون لأحد ، بل ـ سبحانه ـ له الأمر بعد ذلك . وقيوميته باقية ؛ لأنه لم يزاول سلطانه فى ملكه ساعة الخلق ثم ترك النواميس تعمل ، لا ، فبأمره يُعطل النواميس أحياناً ، ولذلك شاء الحق أن تكون معجزات الأنبياء لتعطيل النواميس ؛ لنفهم أن الكون لا يسير بالطبع أو بالعلة . لذلك يقول : (ألا له الخلق والأمر) .

وإذا نظرت إلى كلمة « الأمر » تجد الحق يقول :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة آل عمران)

والمقصود هو الأمر الكونى ، أمّا الأمور الاختيارية فلله فيها أمر يتمثل فى المنهج ،

وأنت لك فيها أمر إما أن تطيع وإما أن تعصى ، وأنت حر .

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

وحين يقول سبحانه : « تبارك الله » وقال من قبل : « أحسن الخالقين » ، فكل لفظ له معنى ، ففى خلقه من البشر مواهب تَخْلق ولكن من موجود وأوضحنا ذلك .

وفى قول آخر يصف الحق نفسه :

﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأنعام)

والناس تتعلم الحساب وخلقوا آلات حاسبة ، وهى آلات تتم « برمجتها » وإعدادها وتهيئتها للجمع والطرح والضرب والقسمة ، وكل حدث من الحساب يأخذ مدة . لكن الحق يحسب لكل البشر دفعة واحدة . لذلك فهو أسرع الحاسبين ؛ لأنه ليس هناك حساب واحد ، فأنت لك حساب مع الله ، والآخر له حساب مع الله ، والحساب مع الله متعدد بتعدد أفراد المحاسبين ، وحساب الحق للخلق لا يحتاج إلى علاج ، بل ينطبق عليها ما ينطبق على الرزق ، ولذلك حينما سئل علىّ كرم الله وجهه :

— أيحاسب الله خلقه فى وقت واحد ؟

قال : وما العجب فى ذلك ألم يرزقهم فى وقت واحد ؟

وانظر إلى القرآن تجد الحق « أسرع الحاسبين » و« أحسن الخالقين » ، و« أرحم الراحمين » و« خير الوارثين » . وهذه هى الألفاظ التى وردت ، ولله فيها مع خلقه صفة ، لكن صفة الله دائما فى إطار « ليس كمثله شىء » . (تبارك الله رب العالمين) .

و« تبارك الله » أى أنه ـ تعالى ـ تنزّه ؛ لأن هناك فرقاً بين القدرة المطلقة ـ وهى قدرة الله ـ والانفعال للقدرة المطلقة بالإرادة وبـ « كن » وهذا هو الانفعال والانقياد وللإرادة والأمر .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ ﴾

والدعاء إنما يكون من عاجز يدعو قادراً على إنجاز وتحقيق ما عجز عنه أو يعينه عليه . وعندما تشعر أنك عاجز فأنت ترتكن إلى من له مطلق القدرة ؛ لأن قدرتك محدودة . إذن فإن كنت تطغى أو تتكبر فاعرف مكانتك ومنزلتك جيداً وتراجع عن ذلك لأنك عرض زائل ، والدعاء هو تضرع ، وذلة ، وخشوع ، وإقرار منك بأنك عاجز ، وتطلب من ربك المدد والعون . واستحضار عجزك وقدرة ربك تمثل لك استدامة اليقين الإيمانى . وما جعل ربنا للناس حاجات إلا من أجل ذلك ؛ لأن الإنسان إذا ما رأى الأشياء تنفعل له ، ويبتكر ويخترع فقد يأخذه الغرور ، فيأتى له بحاجة تعز وتعجز فيها الأسباب ، فيقف ليدعو . ومن كان متكبراً وعنده صلف وغطرسة يذهب إلى رجل « غلبان » زاهد تجرد من الجاه والسلطان منقطع لعبادة الله ويقول له : أستحلفك برسول الله أن تدعو لى لأنى فى أزمة والذى يسأل الغلبان الزاهد هو رجل عزيز فى قومه لكنه يظن أن الغلبان الزاهد أقرب إلى الله منه .

إذن الدعاء هو الضراعة وإظهار الذلة والخشوع لله ؛ لكى يستديم اليقين الإيمانى .

﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

وإياك أن تدعو وفى بالك أن تقضى حاجتك بالدعاء ، عليك بالدعاء فقط لقصد إظهار الضراعة والذلة والخشوع ، ولأنك لو لم تدع فستسير أمورك كما قُدر لها ، والدعاء هو إظهار للخشوع ، وإياك أن تفهم أنك تدعو الله ليحقق لك مطالبك ؛ لأنه سبحانه منزه أن يكون موظفاً عندك ، وهناك نظام وضعه سبحانه لتحقيق مطالب العباد . ومن الناس من يطلب بالدعاء أشياء ضارة .

﴿ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١ ﴾

(سورة الإسراء)

والإنسان قد يتعلق قلبه بأمانى قد تضره ؛ لذلك نقول : لا تتعجل بالدعاء طلباً

لأمنيات قد تكون شراً عليك ، والحق العليم ينظم لنا أمورنا ، وإياك أيضاً أن تيأس حين لا تجاب دعوتك التى فى بالك ؛ لأن الله يحقق الخير لعباده . ولو حقق لك بعضاً مما تدعو فقد يأتى منها الشر ، ويترك الله لأقضيتك أموراً تبين لك هذا ، وتقول : إن الشىء الفلانى الذى كنت أتمناه تحقق وجاء شراً علىّ . مثال ذلك قد تحجز لطائرة لكنك لا تلحق بها فقد أقلعت قبل أن تصل إليها وحزنت لأن بعضاً من مصالحك قد فاتك ولم يتحقق وتفاجأ بأن هذه الطائرة سقطت فى البحر .

إذن ، اجعل حظك من الدعاء هو الخشوع والتذلل والضراعة له سبحانه لا إجابتك إلى ما تدعو إليه ، إنك دعوت لتطلب الخير ، فدع الحق بقيوميته وعلمه يحقق لك الخير . واسمع قول الله :

﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فحين يقول الحق : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » فسبحانه يطلب منا أن ندعوه لأننا سنواجه لحظات متعددة نعجز فيها عن أشياء ، فبدلاً من أن تظل مقهوراً بصفة العجز عن الشىء اذكر أن لك رباً قويا مقتدراً ، وساعة تذكر ذلك لن تأخذك الأسباب من حظيرة الإيمان . وقلنا من قبل : من له أب لا يحمل هماً للحياة ، فإذا كان الذى له أب لا يحمل هماً لمطلوبات الحياة فمن له رب عليه أن يستحى ويعرف أن ربه سيوفر له الخير ؛ لذلك يوضح سبحانه : إذا أعجزتكم الأسباب فاذكروا أن لكم رباً . وقد طلب منكم أن تدعوه ، ولا تظن أن حظك من الدعاء أن تجاب إلى ما طلبت ، بل ليكن حظك من الدعاء إظهار التذلل والخشوع لله ؛ فقد يكون ما حدث لك نتيجة أنك قد اغتررت بنفسك . وقد سبق « قارون » إلى الغرور ، فماذا حدث له ؟ . . لقد هزمه الحق وأنزل به شرّ العقاب . وقد يجعل الحق من تأبّى الأسباب وامتناعها عليك مغزى لتلتفت إلى الله ، لكن لفتتك لله لا يصح أن تكون بغرض أن يقضى حاجتك ، بل اجعل أساس لفتتك لله أن تظهر العجز أمامه والخضوع والخشوع ؛ ليعطيك ما لم يكن فى بالك حين تدعو .

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

خُفية لها معنى وهو أن يكون الدعاء دعاءً مستوراً مختبئاً ، ولها معنى آخر وهو أن تكون من الخوف أى أدعو ربكم خوفاً من متعلقات صفات الجلال كالجبار والقهار أوخوفا من أن يردها الله عليك فلا يقبلها منك .

ادعوا ربكم تضرعاً بذلة وانكسار وخضوع خفية بينك وبين ربك ، فلا تجهر بالدعاء وتجعله عملك الوحيد لأن النبى صلى الله عليه وسلم علمنا حينما كان فى غزوة غزاها فنزل أصحابه وادياً ، فلما نزلوا الوادى صاحوا بالتهليل والتكبير ، فقال :

(أيها الناس اربعوا على أنفسكم ، إنكم ليس تدعون أصمَّ ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم)[1].

والدعاء إلى الله خُفية يبتعد بك عن الرياء وهو أستر لك فى مطلوباتك من ربك لأنه حين يوضح لك : ادعنى فى سرّك لأننى سميع عليم ؛ أعلم كل ما ظهر منك وما بطن ، ادع بالخضوع والخشوع والتذلل لتنكسر فيك شهوة الكبرياء ، وشهوة الغطرسة ، وشهوة الجبروت .

وإذا ما نظرت إلى هذا تجد أن كثيراً من العلماء يقولون :
— نعرف قوماً يقرأون القرآن فى محضرنا وما عرفنا لشفاههم حركة ، وعرفنا قوماً يستنبطون الأحكام من كلام الله وما رأينا منهم انفعالاً يصرفهم عناً . إذن فالمسألة تعبر عن شغل باطنى داخلى .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبعدنا عن الرياء ويريد أن يستر علينا مطلوباتنا ؛ لأن الإنسان قد يطلب من الله سبحانه وتعالى ما يستحى أن يسمعه آخر .

﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

ولو نظرت إلى هذه الآية لوجدت أن كثيراً من الناس يخالفونها مخالفات جماعية ؛ فى

---

(١) رواه مسلم بهذا اللفظ ورواه البخارى ، ومعنى : (اربعوا) ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم .

الليل مثلاً تجد من يصعدون على المآذن أو يصيحون فى مكبرات الصوت التى أغنتهم عن صعود المآذن ، ويكون الواحد من هؤلاء نائما طول النهار لأن رفع الأذان هوعمله ليس غير ، وبعد ذلك يظل يصرخ ويستغيث ويقول : « إن هذه ابتهالات » . بينما من الناس من هو نائم ليأخذ قسطه من الراحة ليؤدى عمله نهاراً ، ولا أحد يطلب من هذا النائم إلا أنه إذا جاء الفجر يستيقظ ويؤدى الصلاة . فلماذا نقلق الناس بهذا ؟ إننا لابد أن ننبه هؤلاء الذين يظنون أنهم يذكرون الناس بدين الله ، إنهم بعملهم هذا لا يسلكون الطريق الصحيح ؛ لأننا لا يمكن أن نذكر الناس بالله ونصنع مخالفة أو نؤذى أحداً ؛ فسبحانه يقول : (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) .

والتضرع والخُفية تقتضى ألا أقلق الناس ، أو أن أعلن الأمور التى أريدها لنفسى خاصة بصوت عال مثل من يأتى فى ختام الصلاة ويقول دعاءه بصوت عال وهو رافع يديه ، ولمثل هذا أقول : إن الله سبحانه وتعالى جعل لنا القنوت لندعو فيه ، وترك كل مسلم أن يدعو بما ينفعل له . وأنت حين تدعو فى ختام الصلاة قد يوجد مُصلٍ مسبوق لحق الصلاة بعد أن سبقه الإمام بركعة أو باثنتين أو بثلاث ويريد أن يكمل صلاته ، وأنت حين ترفع صوتك بالدعاء حين تختم صلاتك إنما تفسد عليه إتمام صلاته . وتشغله بمنطوق من عندك وبكلام من عندك عن شىء واجب عليه . ومن يفعل ذلك إنما يفعله عن حسن نية ، لكنه يسىء إلى عبادة آخر .

إذن فلا بد أن نتنبّه إلى أن الله سبحانه وتعالى له مطلوبات ، هذه المطلوبات قد تخالفها النفس لغرض ترى أنه حسن ، لكن خذها فى إطار :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فلا بد أن نتنبه إلى مثل هذه المسائل ، وعلينا أن نوفر الراحة لمن ينام ليقوم ويصلى الصبح ويذهب إلى عمله ؛ لذلك لا داعى أن يفتح إنسان « الميكروفون » ويعلو صوته بالدعاء ، ومن يفعل ذلك يظن أنه يحرص على أمر مطلوب فيزعج النائم ، بل ويزعج من يصلى بالليل أو « يشوش » على من يقرأ القرآن أو يستذكر بعضاً من العلم . إن على من

يفعل ذلك أن يترك كل إنسان لانفعالاته ، وأن يكون ملك نفسه وملك اختياره .

ويعطينا الحق سبحانه وتعالى صوراً كهذه فيقول :

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾

(الآية ٣ ومن الآية ٤ سورة مريم)

إذن كلمة « خفى » موجودة فى القرآن ، ولابد أن نتنبه إلى الدعاء الخفى .

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

إذن إن لم يكن تضرعاً وخفية فهو اعتداء فى الدعاء ؛ لأنك مكلف والله هو المُكلِّف ، وهو يقول لك : ادعونى تضرعاً وخفية . فإن فعلت غير هذا تكن معتدياً ، وعلى كل هؤلاء أن يفهموا أنهم معتدون فإما أن يكون الاعتداء فى أسلوب الطلب وإما أن يكون الاعتداء فى المطلوب .

لأن الحق حدد أسلوب الطلب فأوضح : ادعونى بخفاء ، فإن دعوت فى غير الخفاء تكن معتدياً على منهج الله . وكذلك قد يكون الاعتداء فى المطلوب فلا يصح مثلاً أن تقول : إننى أدعوك يارب أن تجعلنى نبياً . إن ذلك لا يصح وربنا سبحانه وتعالى علمنا فيما سرده عن نوح . فقال :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة هود)

وهنا نبه الحق نوحاً إلى الاعتداء فى المطلوب فقال الحق :

﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

ولذلك نجد نوحاً يستغفر لأنه سأل ودعا الله هذا الدعاء عن غير علم ، فلما عرف ذنبه استغفر الله وقال :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة هود)

وقال له الحق سبحانه :

﴿ اهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

إذن فالذى لا يسمع منهج الله أو لا يطبقه فى الدعاء يكون معتدياً على الحق سبحانه وتعالى ، وسبحانه لا يحب المعتدين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

الأرض هى مكان الخليفة وهو الإنسان ، وفيها الأسباب الأصيلة لاستبقاء الحياة والسماء والأرض والشمس والهواء كلٌ مسخر لك . ولا تحتاج إلى تكليف فيه ، فلا أنت تقول : « يا شمس أشرقى » أو « يا هواء هب » فكل ذلك مسخر لك . وأنت مطالب ألا تفسد فيما لك فيه اختيار ؛ لأنك لا تستطيع أن تفسد قوانين الكون العليا ، لا تستطيع أن تغير مسار الشمس ولا مسار القمر ولا مسار الريح ، وأنت لن تستطيع إصلاح مالا يمكن أن تقترب من إفساده ، لأن أمره ليس بيدك لأنه لا اختيار لك فيه . وإنما يأتى الإفساد من ملكات الاختيار الموجودة فيك ، ولم يتركنا الله أحراراً فيها ، بل حددها بمنهج يحمى حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل » ، فإذا كان سبحانه قد أنزل قرآناً ،

والقرآن فيه منهج يحمى اختيارك إذن فقد أعطاك عناصر الإصلاح ولذلك يقول لك :

﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأعراف)

وهنا يعود الحق مرة أخرى للحديث عن الدعاء ، فأولاً جاء بالأمر أن يكون الدعاء تضرعاً وخفية ، وهنا يوضح الحق سبيلاً ثانيا للدعاء : (وادعوه خوفاً وطمعاً) . خوفاً من صفات جبروته وقهره ، وطمعا فى صفات غفرانه ورحمته ؛ لأن لله صفات جمال وصفات جلال ، وادعوه خوفاً من متعلقات صفات الجلال ، وطمعاً فى متعلقات صفات الجمال . أو خوفاً من أن تُرد وطمعاً فيما أنت ترجو .

﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأعراف)

إذن من الذى يحدد قرب الرحمة منه ؟ إنه الإنسان فإذا أحسن قربت منه الرحمة والزمام فى يد الإنسان ؛ لأن الله لا يفتئت ولا يستبد بأحد. فإن كنت تريد أن تقرب منك رحمة الله فعليك بالإحسان . (إن رحمة الله قريب من المحسنين) .

ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى يقول :

(لا أملّ حتى تملّوا) .

(من حديث قدسى)

وأنت تدخل بيوت الله تصلى فى أى وقت ، وتقف فى أى مكان لتؤدى الصلاة ، إذن فاستحضارك أمام ربك فى يدك أنت ، وسبحانه حدد لك خمسة أوقات ، ولكن بقية الأوقات كلها فى يدك ، وتستطيع أن تقف بين يدى الله فى أى لحظة . وسبحانه يقول :

(ومن جاءنى يمشى أتيته هرولة) .

(من حديث قدسى)

وهو جل وعلا يوضح لك : استرح أنت وسآتى لك أنا ؛ لأن الجرى قد يتعبك لكنى لا يعترينى تعب ولا عى ولا عجز . وكأن الحق لا يطلب من العبد إلا أن يملك شعوراً بأنه يريد لقاء ربه . إذن فالمسألة كلها فى يدك ، ويقول سبحانه :

(من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه) .

(من حديث قدسى)

وهكذا يؤكد لك سبحانه أن رحمته فى يدك أنت وقد أعطاها لك ، وعندما تسلسلها تجدها تفضلاً من الله ، ولكن فى يدك أنت . (إن رحمة الله قريب من المحسنين) .

ونعلم أن فيه صفات لله وفيه ذات ، فالذات (الله) وهو واهب الوجود ، وله كل صفات الكمال وكل صفة لها متعلق ؛ الرحمة لها متعلق ، والبعث له متعلق فمن أسمائه سبحانه « الباعث » ؛ وإياك أن تغيب عن الذات ، اجعل نفسك مسبحاً لذاته العلية دائماً . وقد تقول : يارب أريد أن ترحمنى فى كذا ، وقد لا ينفذ لك ما طلبت ، لكن ذلك لا يجعلك تبتعد عن التسبيح للذات ، لأن عدم تحقيق ما طلبت هو فى مصلحتك وخير لك .

وقد وقف العلماء عند كلمة « قريب » هذه ، وتساءل بعضهم عن سرّ عدم مجىء تاء التأنيث بعد لفظ الجلالة ؟ ونعلم أن القرآن قد نزل بلغة العرب ، وعند العرب ألفاظ يستوى فيها التذكير والتأنيث ، وما يقال للمذكر مثلما يقال للمؤنث ، فنقول : « رجل صبور » ، و « امرأة صبور » ، ولا نقول : صبورة ونقول : « رجل معطار » أى يكثر استخدام العطر ، و « امرأة معطار » أى تكثر استخدام العطر . ونقول : قريب مثلما نقول : قتيل بمعنى مقتول . فيقال : « رجل قتيل » و « امرأة قتيل » ، ولا يقال : « قتيلة » إلا إذا لم يذكر معها كلمة امرأة أومايدل على التأنيث ، لأن القتيل للذكر وللأنثى .

هذه هى ألفاظ صحيح اللغة . وقد صنعت اللغة ذلك بأسانيد ، فأنت حين تقول : « رجل صبور » أو « امرأة صبور » فالصبر يقتضى الجلد والعزم والشدة ؛ لذلك لا نقول : « امرأة صبورة » بل نأتى بالوصف المناسب للجَلَد والشدة . وإياك أن تضعفها بحكاية التأنيث ، وكذلك « رجل معطار » و « امرأة معطار » ، والرجل المعطار هو من تعرفه الناس من نفاذ رائحة عطره ، والمرأة مبنية على الستر . فإن تعطرت فهى قد تشبهت بالرجل ويقال لها : « امرأة معطار » ، وحين ننظر إلى كلمة « قريب » فهى من صيغة « فعيل » التى يستوى فيها المذكر والمؤنث ؛ بدليل أن الله قال ﷻ :

﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾

(من الآية ٤ سورة التحريم)

والملائكة لفظها لفظ مؤنث ، ولم يقل الحق « ظهيرة » ، لأن « ظهير » يعنى مُعين ، والمعونة تتطلب القوة والعزم والمدد ؛ لذلك جاء لها باللفظ المناسب الذى يدل على القوة وهو « ظهير » . وكذلك قوله الحق :

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأعراف)

و « قريب » بوزن « فعيل » بمعنى مفعول ، ولعل بعض الناس يفهم أن « قريب » بمعنى فاعل أى قارب . مثل رحيم وراحم . أى أن رحمة الله هى التى تقرُب من المحسنين ، والأمر ليس كذلك ، فإن الرحمة هى المقروبة ، والإحسان هو الذى يُقرِّبُ إليها فيكون فعيل هنا بمعنى مفعول الذى يستوى فيه المذكر والمؤنث ، أو يكون جاءت كذلك على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم ، أو لأنه صفة لموصوف محذوف أى شىء قريب ، أو لأن تأنيث الرحمة غير حقيقى ، أو أن الرحمة مصدر ، وحق المصدر التذكير .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ٥٧

وتصريف الرياح إهاجة للهواء فى الكون ، والإهاجة للهواء فى الكون تأتى منها فوائد كثيرة للغاية ، ونحن حين نجلس فى مكان مكتظ وممتلىء بالأنفاس نقول لمن يجلس بجوار النافذة : « لنهوى الغرفة قليلاً » . وإن لم يكف هواء النافذة تأت بمروحة لنأخذ من طبقات الجو طبقة هواء جديدة فيها أوكسجين كثير . إذن فإرسال الرياح ضرورة حتى

لا يظل الهواء راكداً . ويتلوث الجو بهذا الركود ، ولو أن كل إنسان سيستقر فى مكان مكتوم الهواء لامتلأ المكان بثانى أكسيد الكربون الخارج من تنفسه ، ثم لا يلبث أن يختنق ، ولذلك أراد الله حركة الرياح رحمة عامة مستمرة فى كل شىء ، وهى أيضاً رحمة تتعلق بالقوت كما تعلقت بمقومات الحياة من نَفَس وماء وطعام ، وتصريف الرياح من أجل تجديد الهواء الذى نتنفسه ، وكذلك تكوين الماء . لأنه سبحانه القائل عن الرياح :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

والرياح هى التى تساعد فى تكوين الأمطار التى تنزل على الأرض فتروى التربة التى نحرثها ، وهكذا تكون الرياح بشرى فى ثلاثة أشياء : الشىء الأول تحريك طبقات الهواء وإلا لفسد الجو فى كل جماعة تستقر فى مكان ولاستنشقوا الهواء الفاسد . والعنصر الثانى لمقومات الحياة هو الماء ، لأن الرياح هى التى تحمل السحاب وتحركه وتنزل به مطراً على الأرض ونحرث نحن الأرض ونزرعها . وهو سبحانه قال : « بشرا » ، لأن هناك فرقا بين بشرى ، وبشراً ؛ فالبشرى مفرد ، وقد وردت فى قوله الحق :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة هود)

أى التبشير . لكن بشراً جمع بشير وهى كلمة مخففة ، والأصل فيها بُشُر . والحق يقول : ﴿ فلما أن جاء البشير ﴾ .

وجمع البشير « بُشُر » مثل : « نذير » و « نُذُر » ، بضم الشين فسكنت تخفيفا ، فتنطق بُشْراً وبُشُراً . (بشراً بين يدى رحمته) .

هى بين يدى رحمته لأنها ستأتى لنا بالماء ، وهو الرحمة فى ذاته ، وبواسطته يعطينا رى الأرض ، ونحن نرتوى منه مباشرة أيضاً . ونلحظ كلمة الرياح إذا أطلقت بالجمع فهى تأتى للخير ، أما حين يكون فيها شر فيأتى بكلمة « ريح » مفردة ، مثل قوله :

﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحاقة)

فإذن عندما ترى كلمة « رياح » فاعلم أنها خير ، أما كلمة « ريح » فاعلم أنها شر لماذا ؟ أنت إذا كنت قاعداً فى حجرة فيها فتحة نافذة يأتى منها الهواء ، ويتسلط التيار على إنسان ، فالإنسان يصاب بالتعب ؛ لأن الهواء يأتى من مكان واحد ، لكن حين تجلس فى الخلاء ويهب الهواء فأنت لا تتعبَ ؛ لأن الرياح متعددة . ولكن الريح تأتى كالصاروخ .

الرياح إذن يرسلها الحق بين يدى رحمته ؛ حتى إذا أقلت أى حملت يقال : « أقل فلان الحمل » أى رفعه من على الأرض وحمله لأنه أقل من طاقته ، لأنه لو كان أكثر من طاقته لما استطاع أن يرفعه عن الأرض ، وما دام قد أقله فالحمل أقل بالنسبة لطاقته وبالنسبة لجهده ، أقلت أى حملت ، وما دامت قد حملت فجهدها فوق ما حملته ، وإذا كان الجهد أقل من الذى حملته لابد أن ينزل إلى الأرض . وأقلت سحاباً أى حملت سحاباً . نعرف أن السحاب هو الأبخرة الطالعة والصاعدة من الأرض ثم تتجمع وتصعد إلى طبقات الجو العليا ، وتضربها الرياح إلى أن تصادف منطقة باردة فيحدث تكثيف للسحاب فينزل المطر ؛ ونرى ذلك فى الماء المقطر الذى يصنعونه فى الصيدلية ؛ فيأتى الصيدلى بموقد وفوقه إناء فيه ماء ويغلى الماء فيخرج البخار ليسير فى الأنابيب التى تمر فى تيار بارد فيتكثف البخار ليصير ماء . (حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت) .

وقال الحق : « سقناه » بضمير المذكر ؛ لأنه نظر إلى السحاب فى اسم جنسه ، أو نظر إلى لفظه ، وجاء بالوصف مجموعاً فقال : « ثقالا » نظراً إلى أن السحاب جمع سحابة فرق بينه وبين واحدة بالتاء ، وما دامت السحب كلها داخلة فى السّوق فليس لها تعددات فكأنها شىء واحد .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

السحاب لا يتجه إلى مكان واحد ، بل يتجه لأماكن متعددة ، إذن فالحق يوجه السحاب الثقال لأكثر من مكان . لكن الحق سبحانه وتعالى يقول : (سقناه لبلد ميت) .

والميت هو الذى لا حراك فيه وانتهى اختياره فى الحركة ، كذلك الأرض ، فالماء

ينزل من السماء على الأرض وهى هامدة ليس بها حركة حياة أى أن الله يرسل السحاب ويزجيه إلى البلد الميت فى أى مكان من الأرض .

﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

إذن فالأرض التى لا يأتيها الماء تظل هامدة أى ليس بها حركة حياة مثل الميت .

﴿ سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا وينبهنا إلى القضية اليومية التى نراها دائما فى صور شتى ، وهى أن الأرض تكون فى بعض الأحيان جدباً ، ثم يهبط عليها بعض المطر ، وبمجرد أن ينزل المطر على الجبل ، وبعد يومين من نزول المطر نجد الجبل فى اليوم الثالث وهو مخضر ، فمن الذى بذر البذرة للنبات هذا اليوم ؟ إذن فالنبات كان ينتظر هذه المياه . وبمجرد أن تنزل المياه يخرج النبات دون أن يبذر أحد بذوراً ، وهذا دليل على أن كل منطقة فى الأرض فيها مقومات الحياة .

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

فالماء الذى ينزل على الأرض الميتة يحيى الأرض ؛ لأنه سبحانه يخرج الحياة كل يوم ، وحين يوضح لنا سبحانه أنه سيبعثنا من جديد فليس فى هذا أمر عجيب ، وهكذا جعل الله القضية الكونية مرئية وواضحة لكل واحد ولا يستطيع أحد أن يكابر ويعاند فيها ؛ لأنها أمر حسىّ مشاهد ، ومنها نستنبط صدق القضية وصدق الرب .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى

﴿خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

إذن الآية السابقة عالجت قضية البعث بضرب المثل بالآية الكونية الموجودة ؛ فالرياح التى تحمل السحاب ، والسحاب يساق إلى بلد ميت وينزل منه الماء فيخرج به الزرع . والأرض كانت ميتة ويحييها الله بالمطر وهكذا الإخراج بالبعث وهذه قضية دينية ، ويأتى فى هذه الآية بقضية دينية أيضا : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكداً ﴾ .

والبلد الطيب هو البلد الخصب الذى لا يحتاج إلا إلى المياه فيخرج منه الزرع ، أما الذى خبث ، فمهما نزل عليه الماء فلن يخرج نباته إلاّ بعد عناء ومشقة وهو مع ذلك قليل وعديم النفع . وهنا يخدم الحق قضية دينية مثلما خدم القضية الدينية فى البعث أولاً . وقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة ؛ قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها ، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ، ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »[١]

إذن فالمنهج ينزل إلى الناس وهم ثلاثة أقسام ؛ قسم يسمع فينفع نفسه وينقل ما عنده إلى الغير فينفع غيره مثل الأرض الخصبة شربت الماء وقبلته ، وأنبتت الزرع ، وقسم يحملون المنهج ويبلغونه للناس ولا يعملون به وينطبق عليهم قوله الحق :

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الصف)

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

صحيح سينتفع الناس من المنهج ، ولذلك قال الشاعر :

خذ بعلمى ولا تركن إلى عملى واجن الثمار وخل العود للنار

ويقول صلى الله عليه وسلم : (من ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة)[1] .

فستر المؤمن على المؤمن مطلوب وستر المؤمن على العالم آكد وأشدّ طلبا ؛ لأن العالم غير معصوم وله فلتات ، وساعة ترى زلته وسقطته لاتُذِعْها لأن الناس سينتفعون بعلمه . فلا تشككهم فيه ، والقسم الثالث هو من لا يشرب الماء ولا يسقيه لغيره أى الذى لا ينتفع هو ، ولا ينفع غيره .

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(الآية ٥٨ سورة الأعراف)

إذن منهج الله مثله مثل المطر تماماً ؛ فالمطر ينزل على الأرض ليرويها وتخرج النبات وهناك أرض أخرى لا تنتفع منه ولكنها تمسكه فينتفع غيره ، وهناك من لا ينتفع ولا ينفع ، فكذلك العلم الذى ينزله الله على لسان رسوله . (والذى خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات) .

قلنا من قبل : إن الآيات تطلق على معانٍ ثلاثة : الآيات الكونية التى نراها واقعة فى الكون مثل قوله الحق :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وآيات هى آيات القرآن ، والآيات التى تكون هى المعجزات للأنبياء .

﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأعراف)

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرطهما .

الآيات هنا هى الكونية كالماء الذى ينزل ، إنه مثل المنهج . من أخذ به فاز ونجا ، ومن تركه ضل وغوى وكل آيات الله تقتضى أن نشكر الله عليها .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الطائعين وعن العاصين فى الدنيا ، وتكلم عن مواقف الآخرة الجزائية فى أصحاب الجنة ، وأصحاب النار والأعراف أراد أن يبين بعد ذلك أن كل دعوة من دعوات الله سبحانه لأهل الأرض لابد أن تلقى عنتاً وتضييقاً ، وتلقى إعراضاً ، وتلقى إيذاء ، إنه ـ سبحانه ـ يريد بذلك أن يعطى المناعة لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فيوضح له : لست أنت بدعاً من الرسل ؛ لأن كل رسول جاء إلى قومه قوبل بالاضطهاد ، وقوبل بالتكذيب ، وقوبل بالنكران ، وقوبل بالإيذاء ، وإذا كان كل رسول قد أخذ من هذا على قدر مهمته الرسالية زماناً محدوداً ، ومكاناً محصوراً فأنت يا رسول الله أخذت الدنيا كلها زماناً ومكاناً ، فلا بد أن تكون مواجهاً لمصاعب تناسب مهمتك ورسالتك ؛ فأنت فى قمة الرسل ، وستكون الإيذاءات التى تنالك وتصيبك قمة فى الإيذاء ، فلست بدعاً من الرسل ، فوطّن نفسك على ذلك . وحين توطن نفسك على ذلك ستلقى كل إيذاء وكل اضطهاد بصبر واحتمال فى الله ، وقص الحق قصص الرسل على رسول الله ، وعبر الله بالهدف من قص القصص بقوله :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة هود)

فكأن القصص تثبيت لفؤاده صلى الله عليه وسلم ، فكلما أهاجه نكران ، أو كلما أهاجه جحود ، قص عليه الحق ـ سبحانه ـ قصة رسول قوبل بالنكران وقوبل بالجحود ليثبت به فؤاده صلى الله عليه وسلم وفؤاد أتباعه لعلهم يعرفون كل شىء ويوطنون أنفسهم

على هذا العنت ؛ فلم يقل الحق لأتباع محمد : إنكم مقبلون على أمر والأرض مفروشة لكم بالورود ، لا . إنما هى متاعب لتجابهوا شر الشيطان فى الأرض . والقصص له أكثر من هدى يثبت به فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ويبين له أنه ليس بدعاً من الرسل ، ويقوى نفوس أتباعه ، لأنهم حينما يرون أن أهل الحق مع الأنبياء انتصروا ، وهزم الجمع وولّى الدبر ، وأنهم منصورون دائما فهذا يقوى يقين المؤمنين ، ويكسر من جهة أخرى نفوس الكافرين مثلما قال الحق عن واحد من أكابر قريش . (سنسمه على الخرطوم) .

قال الحق لهم ذلك عن واحد من أكابر قريش وهم لا يقدرون حينئذ أن يدافعوا أو يذودوا عن أنفسهم ، وذهبوا وهاجروا إلى الحبشة حماية لأنفسهم من بطش هؤلاء الأكابر ، وكل مؤمن يبحث له عمن يحميه ، وينزل قوله الحق بعد ذلك فى الوليد بن المغيرة « سنسمه على الخرطوم » ، والوليد بن المغيرة سيد فى قومه ، ويأتى يوم بدر فيوجد أنفه وقد ضرب وخطم ويتحقق قول الله :

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

فمن ـ إذن ـ يحدد ضربة قتال بسيف فى يد مقاتل قبل أن يبدأ القتال ؟ لقد حددها الأعلم بما يكون عليه الأمر .

وأيضا فقصص الرسل إنما جيء بها ليثبت للمعاصرين له أنه تلقى القرآن من الله ؛ لأنه رسول أمىّ ؛ والأمة أمية ، ولم يدّع أحد من خصومه أنه جلس إلى معلم ، أو قرأ كتاباً ، فمن أين جاءته هذه الأخبار إذن ؟

واسمع قول الحق سبحانه وتعالى فى الآيات التى يأتى فيها : « ما كنت » مثل قوله الحق :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة القصص)

ومثل قوله الحق :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

ومثل قوله :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة آل عمران)

فمن أين جاءت هذه الأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أنه لم يجلس إلى معلم ولم يقرأ كتاباً ؟ لقد جاءت كلها من الحق سبحانه وتعالى ، وهذا دليل آخر على صدق رسالته .

وقصة سيدنا نوح من القصص التى وردت كثيراً فى القرآن الكريم مثل قصة موسى عليه السلام ، ومن العجيب أن لقطات القصة تنتشر فى بعض السور ، لكن السورة التى سميت بسورة نوح ليس فيها من المواقف التى تعتبر من عيون القصة ، إنها تعالج لقطات أخرى ؛ تعالج إلحاحه فى دعوة قومه ، وأنه ما قصّر فى دعوتهم ليلاً ونهاراً ، وسرّاً وعلانية ، كلما دعاهم ابتعدوا ، ولم تأت قصة المركب فى سورة نوح ، ولا قصة الطوفان ، وهذه لقطات من عيون القصة ، وكذلك لم تأت فيها قصته مع ابنه ، بل جاء بها فى سورة هود .

إذن كل لقطة جاءت لوضع مقصود ، ولهذا رأينا قصة نوح فى سورة « نوح » وقد خلت من عناصر مهمة فى القصة ، وجاءت هذه العناصر فى سورة « هود » أو فى سورة « الأعراف » التى نتناولها الآن بالخواطر الإيمانية .

إذن ، كل قصة من القصص القرآنى تجدها قد جاءت تخدم فكرة ، ومجموعها يعطى كل القصة ؛ لأن الحق حين يورد القصص فهو يأتى بلقطة فى سورة لتخدم موقفاً ، ولقطة أخرى تخدم موقفاً آخر وهكذا . وحين شاء أن يرسل لنا قصة محبوكة تماماً ، جاء بقصة « يوسف » فى سورة يوسف ولم يكررها فى القرآن ، لأنها مستوفية فى سورة يوسف ، اللهم إلا فى آية واحدة :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾

(من الآية ٣٤ سورة غافر)

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

لقد وردت فى سورة يوسف حياة يوسف منذ أن كان طفلا حتى أصبح عزيز مصر ، وهكذا نرى أن الحق حين يشاء أن يأتى بالقصة كتاريخ يأتى بها محبوكة ، وحين يريد أن يلفتنا إلى أمور فيها مواقف وعظات ، يوزع لقطات القصة على مواقع متعددة تتناسب وتتوافق مع تلك المواقع لتأكيد وخدمة هدف .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وساعة ترى « اللام » و« قد » فاعرف أن هذا قسم ، وكأن الحق يقول : وعزتى وجلالى لقد أرسلت نوحاً . وهو بهذا يؤكد المقسم عليه .

والقوم هم الرجال خاصة من المعشر ؛ لأن القوم عادة هم المواجهون للرسالة ، والمرأة محتجبة ؛ تسمع من أبيها أو من أخيها أو من زوجها ، ولذلك قالت النساء للنبى : غلبنا عليك الرجال .

أى أننا لا نجد وسيلة لنقعد معك ونسألك ، فاجعل لنا يوماً من أيامك تعظنا فيه ، فجعل لهن يوماً ؛ لأن المفروض أن تكون المرأة فى ستر ، وبعد ذلك ينقل لها الزوج المنهج . إن سمع من الرسول شيئاً ، وكذلك الأب يقول لابنته ، والأخ يقول لأخته .

فإذا تكلم الرسول يقال : إن الرسول واجه القوم ، من قولهم هو قائم على كذا . وقيم على كذا . ولذلك الشاعر العربى يقول :

وما أدرى ولست إخال أدرى ... أقوم آل حصن أم نساء

وجاء هنا بالقوم ، والمراد بهم الرجال ، والقرآن يقول :

﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

إذن فالنساء لا تدخل فى القوم ؛ فالقوم هم المواجهون للرسول ومنهم تأتى المتاعب والتصلب فى الرأى ، ويكون الإنكار والجحود والحرب منهم .

وسيدنا نوح عليه السلام دعا قومه ونبههم إلى ثلاثة أشياء : عبادة الله ، فقال : « ياقوم اعبدوا الله » ، وبين لهم أنه ليس هناك إله سواه فقال : « مالكم من إله غيره » ، وأظهر لهم حرصه وإشفاقه عليهم إذا خالفوا وعصوا فقال : « إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » .

وهكذا تكلم عن العقيدة فى الإله الواحد المستحق للعبادة ، وليس آلهة متعددة ، ونعبده أى نطيع أمره ونهيه ، ولأنهم إن لم يفعلوا ذلك فهو يخاف عليهم من عذاب يوم عظيم ، وهو عذاب يوم القيامة . أو أنّ الله كان قد أوحى له بأنه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وعذاب يوم عظيم أى يوم الإغراق ، و « الخوف » مسألة تتعب تفكير من يستقبلها ويخاف أن يلقاها . فمن الذى يفزع بهذا ؟

إن الذى يفزع هم الطغاة والجبابرة والسادة والأعيان ووجوه القوم ، وكانوا قد جعلوا من أنفسهم سادة ، أما سائر الناس وعامتهم فهم العبيد والمستضعفون . والذى يهاج بهذه الدعوة هم السادة لأنه ليس هناك إلا إله واحد ، والأمر لواحد والنهى لواحد والعبادة والخضوع لواحد ، ومن هنا فسوف تذهب عنهم سلطتهم الزمنية ، لذلك يوضح الحق لنا موقف هؤلاء من الدعوة حين يقول :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

والملأ هم سادة القوم وأعيانهم وأشرافهم ، أو الذين « يملأون » العين هيئة ويملأون القلوب هيبة ، ويملأون صدور المجالس بنية .

إنهم خائفون أن تكون دعوة نوح هى الدعوة إلى الطريق المستقيم وكلامه هو الهداية ؛ فيمنّوا أنفسهم بأن هذا ضلال وخروج عن المنهج الحق : (إنا لنراك فى ضلال مبين) .

أى غيبة عن الحق ، أو فى تيه عن الحق ، و « مبين » أى محيط بصورة لا يمكن النفاذ منها .

ويرد نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

هم قالوا له : « إنا لنراك فى ضلال مبين » ، المتبادر أن يكون الرد : ليس فى أمرى ضلال ، لكنه قال هنا : « ليس بى ضلالة » ، أقول ذلك لنعرف أن كل حرف فى القرآن موزون لموضعه . هم قالوا له : إنا لنراك فى ضلال ، فيرد عليهم : ليس بى ضلالة ؛ لأن الضلال جنس يشمل الضلالات الكثيرة ، وقوله يؤكد أنه ليس عنده ضلالة واحدة . وعادة نفى الأقل يلزم منه نفى الأكثر ، مثلاً عندما يقول لك صديق : عندك تمر من المدينة المنورة ؟ تقول له : ليس عندى ولا تمرة واحدة . أنت بذلك نفيت الأقل ، وهذا أيضاً نفى للأكثر . (قال يا قوم ليس بى ضلالة) .

وحين ينفى نوح عن نفسه وجود أدنى ضلالة فذلك لأنه يعرف أنه لم يأت من عنده بذلك ، ولو كان الأمر كذلك لاتّهم نفسه بأن هواه قد غلبه ، لكنه مرسل من عند إله حق .

﴿ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأعراف)

وقوله : « ولكنى » استدراك فلا تقولوا : أنا فى ضلال ؛ فليس فىّ ضلالة واحدة ، لكن أنا رسول يبلغ عن الله ، والله لا يعطى غير الهدى .

(رسول من رب العالمين) أى من سيد العالمين ومن متولى تربية العالمين ، ومن يتولى التربية لا يُنزل منهجاً يضل به من يربيهم ، بل ينزل منهجاً ليصلح من يربيهم ، وسبحانه قبل أن يأتى بهم إلى الوجود سخر لهم كل هذا الكون ، وأمدهم بالأرزاق حتى الكافرين منهم ، ومن يعمل كل ذلك لن يرسل لهم من يضلهم .

ويستمر البلاغ من نوح عليه السلام لقومه فيقول :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

والبلاغ هو إنهاء الأمر إلى صاحبه ؛ فيقال : بلغت المكان الفلانى . . أى انتهيت إليه . و « البلاغة » هى النهاية فى أداء العبارة الجميلة ، و « أبلغكم » أى أنهى إليكم ما حملنيه الحق من منهج هداية لحركة حياتكم . (أبلغكم رسالات ربى) .

وكان يكفى أن يقول : « رسالة ربى » إلا أنّه قال : (رسالات ربى) لأن أى رسول يأتى بالمنهج الثابت كما جاءت به الرسالات السابقة حتى لا يقول أحد : إنه جاء ليناقض ما جاء به الرسل السابقون ، فما قاله وجاء به أى رسول سابق يقوله ، ونعلم أنه كانت هناك صحف لشيت ولإدريس . فقال : إنه يبلغ رسالته المتضمنة للرسالات السابقة سواء رسالة إدريس وهو اخنوخ ، وكذلك شيت وغيره من الرسل .

أى أبلغكم كل ما جعله الله منهجاً لأهل الأرض من الأمور المستقيمة الثابتة ، مثلما قال سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

وهو الأمور المستقرة الثابتة العقدية ، والأحكام التى لا تتغير . أو « رسالات ربى » ، لأنه كرسول يتلقى كل يوم قسطاً من الرسالة ؛ فاليوم جاءت له رسالة يبلغها ، وغداً تأتى له رسالة يبلغها ، ولو قال : « الرسالة » لكان عليه أن ينتظر حتى تكتمل البلاغات من الله له ثم يقولها ، ولكنْ نوح كان يبلغ كل رسالة تأتيه فى وقت إبلاغه بها ؛ لذلك فهى « رسالات » . أو لأن موضوع الرسالات أمر متشعب تشعباً يماثل ما تحتاج إليه الحياة من مصالح ؛ فهناك رسالة للأوامر ، ورسالة للنواهى ، ورسالة للوعظ ، ورسالة للزجر ،

ورسالة للتبشير ، ورسالة للإنذار ، ورسالة للقصص ، وهكذا تكون رسالات .

أو أن كل نجم ـ أى جزء من القرآن وقسط منه ـ يعتبر رسالة ، فما يرسله الله فى يوم هو رسالة للنبى ، وغداً له رسالة أخرى وهكذا .

وقوله: « أنصح لكم » لأن البلاغ يقتضى أن يقول لهم منهج الله ، ثم يدعو القوم لاتباع هذا المنهج بأن يرقق قلوبهم ويخاطبهم بالأسلوب الهادىء وينصحهم ، والنصح أمر خارج عن بلاغ الرسالة .

ولنلتفت إلى فهم العبارة القرآنية . (وأنصح لكم) .

والنصح أن توضح للإنسان المصلحة فى العمل ، وتجرد نيتك مما يشوهه . وهل أنت تنصح آخر بأمر يعود نفعه عليك ؟ إنك إن فعلت ذلك تكون النصيحة متهمة ، وإن نصحته بأمر يعود عليه وعليك فهذه نصيحة لك وله ، ولكن حينما تقول : « نصحت لك » أى أن النصيحة ليس فيها مسألة خاصة بك ، بل كل ما فيها لصالح من تبلغه فقط ، وبذلك يتضح الفارق بين « نصحته » و« نصحت لك » .

﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأعراف)

وكأن سيدنا نوحاً يخاطب قومه : إياكم أن تظنوا أن ما أقوله لكم الآن هو كل العلم من الله ، ولا كل علم الله ، ولا كل ما علمنى الله ، بل أنا عندى مسائل أخرى سوف أقولها لكم إن اتقيتم الله وامتلكتم الاستعداد الإيمانى ، وهنا سأعطيكم منها جرعات . أو قوله : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » يعنى أنه سيحدث لكم أمر فى الدنيا لم يحصل للأمم السابقة عليكم وهو أن من يُكذب الرسول يأخذه الله بذنبه . وتلك التجربة لم تحدث مع قوم شيت أو إدريس .

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة العنكبوت)

ولم يحدث مثل هذا العقاب قبل نوح ، وقد بين لهم نوح : أنا أعلم أن ربنا قد دبر لكم أن من يُكَذِّبَ سيأخذه أخذ عزيز مقتدر .

أو « وأعلم من الله ما لا تعلمون » ، أى أن الله أعلمنى لا على قدر ما قلت لكم من الخير ، لكنه سبحانه قد علمنى أن لكل إخبار بالخير ميلاداً وميعاداً .
ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

« أوَعجبتم » وكان من الممكن أن يقول :« أعجبتم » ، لكن ساعة أن يجىء بهمزة الاستفهام ويأتى بعدها بحرف عطف . فاعرف أن هناك عطفاً على جملة ؛ أى أنه يقول : أكذَّبْتُم بى ، وعجبتم من أن الله أرسل على لسانى « ذكر من ربكم » . والذكر ضد النسيان ، وأن الشىء يكون على البال ، ومرة يتجاوز البال ويجرى على اللسان .

وقد وردت معانٍ كثيرة للذكر فى القرآن ، وأول هذه المعانى وقمتها أن الذكر حين يطلق يراد به القرآن :

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وكذلك فى قوله الحق :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن يطلق الذِّكر ويراد به القرآن ، ومرة يطلق الذكر ويراد به الصيت أى الشهرة الإعلامية الواسعة . وقد قال الحق لرسوله عن القرآن :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الزخرف)

أى أن القرآن شرف كبير لك ولأمتك وسيجعل لكم به صيتاً إلى يوم القيامة ؛ لأن الناس سترى فى القرآن على تعاقب العصور كل عجيبة من العجائب ، وسيعلمون كيف أن الكون يصدق القرآن ، إذن بفضل القرآن « العربى » ، سيظل اسم العرب ملتصقا ومرتبطا بالقرآن ، وكل شرف للقرآن ينال معه العرب شرفا جديدا .

أى إن القرآن شرف لكم . ويقول سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الأنبياء)

أى فيه شرفكم ، وفيه صيتكم ، وفيه تاريخكم ، ويأتى الإسلام الذى ينسخ القوميات والأجناس ، ويجعل الناس كلهم سواسية كأسنان المشط .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الحجرات)

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى) .

وسيظل القرآن عربياً ، وهو معجزة فى لغة العرب ، وبه ستظل كلمة العرب موجودة فى هذه الدنيا . إذن فشرف القوم يجىء من شرف القرآن ، ومن صيت القرآن . والحق يقول :

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ ﴾

(سورة ص)

أى أن شرفه دائم أبداً . حين يأتى إلى الدنيا سبق علمى ، نجد من يذهب إلى البحث عن أصول السبق العلمى فى القرآن ، ونجد غير المسلمين يعتنون بالقرآن ويطبعونه فى صفحة واحدة ، وعلى ورق فاخر قد لا يستعملونه فى كتبهم . هذا هو القرآن ذو الذكر على الرغم من أن بعض المسلمين ينحرفون قليلاً عن المنهج ، وقد يتناساه بعضهم ، لكن فى

مسألة القرآن نجد الكل يتنبه . وكما قلت من قبل : قد تجد امرأة كاشفة للوجه وتضع مصحفاً كبيراً على صدرها ، وقد تجد من لا يصلى ويركب سيارة يضع فيها المصحف ، وكل هذا ذكر . وتجد القرآن يُقرأ مرتلاً ، ويُقرأ مجوداً ، ومجوداً بالعشرة ثم يسجل بمسجلات يصنعها من لا يؤمنون بالقرآن . وكل هذا ذكر وشرف كبير .

عرفنا أن « الذكر » قد ورد أولا بمعنى القرآن ، وورد باسم الصيت والشرف : ويطلق الذكر ويراد به ما نزل على جميع الرسل ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ ﴾

(سورة الأنبياء)

أى أن كل ما نزل على الرسل ذكر .

ويقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ ﴾

(سورة الأنبياء)

إذن فالمراد بالذكر ـ أيضاً ـ كل ما نزل على الرسل من منهج الله .

ومرة يُطلق الذكر ويراد به معنى الاعتبار . والتذكير ، والتذكر فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾

(من الآيتين ٩٠ ، ٩١ سورة المائدة)

والمراد هنا بالذكر : الاعتبار والتذكر وأن تعيش كمسلم فى منهج الله . ومرة يراد بالذكر : التسبيح ، والتحميد . انظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾

(الآية ٣٦ ومن الآية ٣٧ سورة النور)

وهو ذكر لأن هناك من يسبح له فيها بالغدو والآصال وهم رجال موصوفون بأنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وقد يُطلق الذكر ويراد منه خير الله على عباده ويراد به كذلك ذكر عبادتهم له بالطاعة ؛ فسبحانه يذكرهم بالخير وهم يذكرونه بالطاعة . اقرأ إن شئت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة النحل)

وفى آية أخرى :

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة العنكبوت)

ومادام قد قال جل وعلا : « ولذكر الله أكبر » أى ذكر الله لهم بالنعم والخيرات ، فذكره فضل وإحسان وهو الكبير المتعال . فهناك إذن ذكر ثانٍ ، ذكر أقل منه ، وهو العبادة لربهم بالطاعة ، وهنا يقول الحق :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ما وجه العجب هنا ؟ نعلم أن العجب هو إظهار الدهشة وانفعال النفس من حصول شىء على غير ما تقتضيه مواقع الأمور ومقدماتها ، إذن تظهر الدهشة ونتساءل كيف حدث هذا ؟ ولو كان الأمر طبيعياً ورتيباً لما حدثت تلك الدهشة وذلك العجب .

وعجبتم لماذا ؟ اقرأ ـ إذن ـ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾

(الآية ١ ومن الآية ٢ سورة ق)

موضع العجب هنا أن جاء لهم منذر ورسول من جنسهم ؛ فمن أى جنس كانوا يريدون الرسول ؟ كان من غبائهم أنهم أرادوا الرسول مَلَكاً .

﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة ق)

وجاء العجب أيضاً فى البعث . فتساءل الكافرون هل بعد أن ذهبنا وغبنا فى الأرض وصرنا تراباً بعد الموت يجمعنا البعث مرة ثانية ؟!

إذن فالعجب معناه إظهار الدهشة من أمر لا تدعو إليه المقدمات أو من أمر يخالف المقدمات .

العجب عندهم فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها لأن نوحاً عليه السلام يريد منهم أن يبحثوا فى الإيمان بوجود إله . وكان المنطق يقتضى أنه إذا رأوا شيئاً هندسته بديعة ، وحكيمة ، وطرأ عليها هذا المخلوق وهو الإنسان ليجد الكون منسقاً موجوداً من قبله ، كان المنطق أن يبحث هذا الإنسان عمن خلق هذا الكون وأن يلحّ فى أن يعرف مَن صنع الكون ، وحين يأتى الرسول ليقول لكم من صنع هذا الكون ، تتعجبون ؟!

كان القياس أن تتلهفوا على من يخبركم بهذه الحقيقة ؛ لأن الكون وأجناسه من النبات والجماد والحيوان فى خدمتك أيها الإنسان . لا بقوتك خلقت هذا الكون ولا تلك الأجناس ، بل أنت طارىء على الكون والأجناس ، ألم يدر بخلدك أن تتساءل من صنع لك ذلك ؟

إذن فالكلام عن الإيمان كان يجب أن يكون عمل العقل ، وقلت قديماً : هب أن إنساناً وقعت به طائرة فى مكان ، وهذا المكان ليس به من وسائل الحياة شىء أبداً ، ثم جاع ، ولم يجد طعاماً ، وقهره التعب ، فنام ، ثم أفاق من هذه الإغفاءة ؛ وفوجىء بمائدة أمامه عليها أطايب الطعام والشراب وهو لا يعرف أحداً فى المكان ، بالله قبل أن يأكل ألا يتساءل عمن أحضرها ؟!! كان الواجب يقتضى ذلك .

إذن أنتم تتعجبون من شىء تقتضى الفطرة أن نبحث عنه ، وأن نؤمن به وهو الإله

الذى لا ينتفع بطاعتنا أو بعبادتنا ، ولا تعود عليه العبادة بشىء ، بل تعود علينا ، والعبادة فيها مشقات لأنها تلجم الشهوات وتعقل وتمنع من المعاصى والمحرمات ، ولكن يُقابِل ذلك الثوابُ فى الآخرة .

وهناك من قال : ولماذا لا يعطينا الثواب بدون متاعب التكليف ؟ مادام لا يستفيد . إنّ العقل كاف ليدلنا ـ دون منهج ـ إلى ما هو حسن فنفعله ، وما نراه سيئاً فلا نفعله ، والذى لا نعرفه أهو حسن أم سيىء . ونضطر له نفعله ، وإن لم نكن فى حاجة له لا نفعله .

ونقول لهذا القائل : لكن من الذى أخبرك أن العقل كاف ليدلنا إلى الأمر الحسن ، هل حسّن لك وحدك أم لك وللآخرين ؟ فقد يكون الحسن بالنسبة لك هو السوء بالنسبة لغيرك لأنك لست وحدك فى الكون . ولنفترض أن هناك قطعة قماش واحدة ، الحسن عندك أن تأخذها ، والحسن عند غيرك أن يأخذها . لكن الحُسْن الحقيقى أن يفصل فى مسألة ملكية هذه القطعة من القماش مَن يعدل بينك وبين غيرك دون هوى . وألّا يكون واحد أولى عنده من الآخر . إذن لابد أن يوجد إله يعصمنا من أهوائنا بمنهج ينزله يبين لنا الحسن من السيىء ؛ لأن الحسن بالمنطق البشرى ستصطدم فيها أهواؤنا .

ومثال آخر : افرض أننا دخلنا مدينة ما ، ورأينا مسكنا جميلا فاخرا وكل منا يريد أن يسكن فيه وكل واحد يريد أن يأخذه ؛ لأن ذلك هو الحسن بالنسبة له ، لكن ليس كذلك بالنسبة لغيره ، إذن فالحسن عندك قد يكون قبيحاً عند الغير . فالحسن عند بعض الرجال إذا ما رأى امرأة أن ينظر إليها ويتكلم معها ، لكن هل هذا حسن عند أهلها أو أبيها أو زوجها ؟ . لا .

إنّ الذى تعجبتم منه كان يجب أن تأخذوه على أنه هو الأمر الطبيعى الفطرى الذى تستلزمه المقدمات . فقد جاءكم البلاغ على لسان رجل منكم . ولماذا لم يقل الحق : لسان رجل ؟ إننا نعلم أن هناك آية ثانية يقول فيها الحق :

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة آل عمران)

كأنه يقول لهم : إن الوعد الذى وعده الحق لكم قد جاء لكم بالمنهج الذى نزل على الرسل . ومهمة الرسل صعبة ؛ فليست مقصورة على التبليغ باللسان لأن مشقاتها كلها على كاهل كل رسول ، ولا تظنوا أن ربنا حين اختار رسولاً قد اختاره ليدلله على رقاب الناس ، لا . لقد اختاره وهو يعلم أن المهمة صعبة ، والرسول صلى الله عليه وسلم - كما تعلمون - لم يشبع من خبز شعير قط ، وأولاده وأهله - على سبيل المثال - لا يأخذون من الزكاة ، والرسل لا تورث فجميع ماتركوه صدقة ، وكل تبعات الدعوة على الرسول ، وهذه هى الفائدة فى أنه لم يقل على لسان رسول ، لأن الأمر لو كان على لسان الرسول فقط لأعطى البلاغ فقط ، إنما « على رجل منكم ». تعطى البلاغ ومسئولية البلاغ على هذا الرجل .

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأعراف)

ماهو العجب ؟ لقد كان العجب أن تردوا الألوهية والنبوة .

وبعضهم لم يرد الألوهية ورد فكرة النبوة على الإنسان . وطالب أن يكون الرسول من الملائكة ؛ لأن الملائكة لم تعص ولها هيبة ولا يُعرف عنها الكذب . لكن كيف يصبح الرسول ملكاً ؟ وهل أنت ترى الملك ؟ إن البلاغ عن الله يقتضى المواجهة ، ولابد أن يراه القوم ويكلموه ، والملك أنت لن تراه . إذن فلسوف يتشكل على هيئة رجل كما تشكل جبريل بهيئة رجل . إذن أنتم تستعجبون من شىء كان المنطق يقتضى ألّا يكون .

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وقولهم هذا فى قمة الغباء . فقد كان عليهم أن يتهافتوا ويقبلوا على الإيمان ؛ لأن الرسول منهم . وقد عرفوا ماضيه من قبل ، وكذلك أنسوا به ، ولو كانت له انحرافات قبل أن يكون رسولاً لخزى واستحيا أن يقول لهم : استقيموا . ومادام هو منكم وتعرفون تاريخه وسلوكه حين دعاكم للاستقامة كان من الواجب أن تقولوا لأنفسكم : إنه لم يكذب فى أمور الدنيا فكيف يكذب فى أمور الآخرة ، ولم يسبق له أن كذب على خلق الله فكيف يكذب على الله ؟ ولأنه منكم فلابد أن يكون إنساناً ولذلك قال الحق :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وهنا فى الآية التى نحن بصددها يقول الحق : (على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون) .

إذن فمهمته أن ينذر ، والإنذار لقصد التقوى ، والتقوى غايتها الرحمة ، وبذلك نجد هنا مراحل : الإنذار وهو إخبار بما يسوؤك ولم يأت زمنه بعد وذلك لتستعد له ، وتكف عنه لأنه سيتعبك ويضايقك . والبشارة ضد الإنذار ، لأنها تخبر بشىء سار زمنه لم يأت ، وفائدة ذلك أن يجند الإنسان كل قوته ليستقبل الخير القادم . وأن يبتعد عن الشىء المخيف . وهكذا يكون التبشير والإنذار لتتقى الشرور وتأخذ الخير ، وبذلك يحيا الإنسان فى التقوى التى تؤدى إلى الرحمة .

إذن فمواطن تعجبهم من أن يجيئهم رسول مردودة ؛ لأن مواطن التعجب هذه كان يجب أن يُلح عليها فطرياً ، وأن تنعطف النفس إليها لا أن يتعجب أحد لأنها جاءت ، فقد جاءت الرسالة موافقة للمقدمات ، وقد جاء الرسول منكم ولم يأت مَلَكاً ليكون قدوة . وكذلك لم يرسله الله من أهل الجاه ومن الأعيان ومن صاحب الأتباع ؛ حتى لا يقال إن الرسالة قد انتشرت بقهر العزوة ، إن الأتباع كانوا موافقين على الباطل بتسلط الكبراء والسادة ، فمخافة أن يقال : إن كل تشريع من الله آزره المبطلون بأتباعهم جاءت الدعوة على أيدى الذين ليس لهم أتباع ولا هم من أصحاب الجاه والسلطان . ولقد تمنى أهل الشرك ذلك ويقول القرآن على لسانهم :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

ولقد كان تمنيهم ان ينزل القرآن على رجل عظيم بمعاييرهم ، وهذه شهادة منهم بأن القرآن فى ذاته منهج ومعجزة . ولم يتساءلوا : وهل القرآن يشرف بمحمد أو محمد هو الذى يشرف بالقرآن ؟ إن محمداً يشرف بالقرآن ، لذلك يقول الحق :

﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة هود)

وهذه هى العظمة ؛ لأن أتباع محمد صلى الله عليه وسلم لم يكونوا من الذين يفرض عليهم الواقع أن يحافظوا على جاههم ويعملوا بسطوتهم وبطشهم وبقوتهم ، ويفرضوا الدين

بقوة سلطانهم ، لا ، بل يمر على أتباع رسول الله فترة وهم ضعاف مضطهدون ، ويؤذون ويهاجرون ، فالمهمة فى البلاغ عن الله تأتى لينذر الرسول ، ويتقى الأتباع لتنالهم الرحمة نتيجة التقوى ، والتقوى جاءت نتيجة الإنذار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

وهنا يتكلم الحق عن حكاية الإنجاء ، ونعلم المقدمة الطويلة التى سبقت إعداد سيدنا نوح عليه السلام للرسالة ، فقد أراد له الله أن يتعلم النجارة ، وأن يصنع السفينة .

﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة هود)

ولم يجىء الحق هنا بسيرة الطوفان التى قال فيها فى موضع آخر من القرآن :

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾

(الآية ١١ سورة القمر)

وجاء الحق هنا بالنتيجة وهى أنهم كذبوه .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأعراف)

وكانت هذه أول حدث عقابى فى تاريخ الديانات ؛ لأن رسالة نوح عليه السلام هى أول رسالة تعرضت إلى مثل هذا التكذيب ومثل هذا العناد ، وكان الرسل السابقون لنوح عليهم البلاغ فقط ، ولم يكن عليهم أن يدخلوا فى حرب أو صراع ، والسماء هى التى

تؤدب ، فحينها علم الحق سبحانه وتعالى أنه بإرسال رسوله صلى الله عليه وسلم ستبلغ الإنسانية رشدها صار أتباع محمد مأمونين على أن يؤدبوا الكافرين .

وفى تكذيب نوح عليه السلام يأتينا الحق هنا بالنتيجة .

(فأنجيناه والذين معه) ولم يقل الحق : كيف أنجاه ولم يأت بسيرة الفلك ، بل أخبر بمصير من كذبوه ، ويأتى بالعقاب من جنس الطوفان .

﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأعراف)

هناك « أعمى » لمن ذهب بصره كله من عينيه كلتيهما ، وهناك أيضا عَمِه وأَعْمَهُ ، والعَمَهُ فى البصيرة كالعمى فى البصر . . أى ذهبت بصيرته ولم يهتد إلى خير .

ثم انتقل الحق إلى رسول آخر . ليعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة فيه أيضاً . فبعد أن جاء بنوح يأتى بهود .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

وساعة ما تسمع : (وإلى عاد أخاهم هوداً) أى أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ، و « أخاهم » موقعها الإعرابى « مفعول به » ويدلنا على ذلك قوله فى الآية السابقة : (أرسلنا نوحا) ، وكذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا.وكلمة « أخاهم » تُشْعرُ بأشياء كثيرة ؛ إنه من جنسهم ، ولغته لغتهم ، وأنسهم به ، ويعرفون كل شىء وكل تاريخ عنه ، وكل ذلك إشارات تعطى الأنس بالرسول ؛ فلم يأت لهم برسول أجنبى عاش بعيداً عنهم حتى لا يقولوا : لقد جاء ليصنع لنفسه سيادة علينا . بل جاء لهم بواحد منهم وأرسل إليهم « أخاهم » وهذا الكلام عن « هود » .

إذن كان هود من قوم عاد ، ولكن هناك رأى يقول : إن هودا لم يكن من قوم عاد ، ولأنَّ

الأخوة نوعان : أخوّة فى الأب القريب ، أو أخوّة فى الأب البعيد ، أى من جنسكم ، من آدم ؛ فهو إما أخ من الأب القريب ، وإمّا أخ من الأب البعيد . وقد قلنا من قبل : إن سيدنا معاوية كان يجلس ثم دخل عليه الحاجب فقال : يا أمير المؤمنين ، رجل بالباب يقول إنه أخوك ، فتساءلت ملامح معاوية وتعجب وكأنه يقول لحاجبه : ألا تعرف إخوة أمير المؤمنين ؟ وقال له : أدخله ، فأدخله . قال معاوية للرجل : أى إخوتى أنت ؟!

قال له : أخوك من آدم .

فقال معاوية : رحم مقطوعة - أى أن الناس لا تتنبه إلى هذه الأخوة - والله لأكونن أول من وصلها .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ونلحظ أن الحق قال على لسان سيدنا نوح لقومه :

﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وأرسل الحق هوداً إلى عاد ، لكن قول هود لقوم عاد يأتى : (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) .

وهنا « قال » فقط من غير الفاء ؛ وجاء فى قول نوح:« فقال » . وهذه دقة الأداء لننتبه ؛ لأن الذى يتكلم إله ورب ، فتأتى مرة بـ« فاء » وتأتى مرة بغير « فاء » رغم أن السياق واحد ، والمعنى واحد والرسول رسول ، والجماعة هم قوم الرسول . ونعلم أن « الفاء » تقتضى التعقيب ، وتفيد الإلحاح عليهم ، وهذا توضحه سورة نوح ؛ لأن الحق يقول فيها :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟

﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ ﴾

(سورة نوح)

إذن فالفاء مناسبة هنا ، لكن فى مسألة قوم هود نجد أن سيدنا هوداً قال لهم مرة أو اثنتين أوثلاث مرات ، لكن بلا استمرار وإلحاح ، وهذا يوضح لنا أن إلحاح نوح على قومه يقتضى أن يأتى فى سياق الحديث عنه بـ : « فقال » وألا تأتى فى الحديث عن دعوة سيدنا هود . وقد يتعجب الإنسان لأن مدة هود مع عاد لا تساوى مدة نوح مع قومه ، وقد جاء الإيضاح بزمن رسالة سيدنا نوح فى قوله الحق :

﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾

(من الآية ١٤ سورة العنكبوت)

ظل سيدنا نوح قُرابة ألف سنة يدعو قومه ليلاً ونهاراً سرًّا وعلانية ، لكنهم كانوا يفرون من الإيمان ، لذلك يأتى الحق فى أمر دعوة نوح بالفاء التى تدل على المتابعة . أما قوم عاد فلم يأت لهم « بالفاء » . بل جاء بـ « قال » :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأعراف)

وقال نوح من قبل :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وفى مسألة قوم عاد قال : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) .

ومع أن الأسلوب واحد والمعانى واحدة ، وكان ذلك يقتضى الإنذار ، لكن لم يقل الحق ذلك ؛ لأن نوحاً كان عنده علم بالعذاب الذى سوف ينزل ؛ لأنها كانت أول تجربة ، لكن سيدنا هود لم يكن عنده علم بالعذاب .

العملية التى حدثت لنوح مع قومه وإهلاكهم بالغرق كانت أولية بالنسبة له ؛ فالله سبق أن أعلمه بها ، وحين ذهب هود إلى قوم عاد كانت هناك سابقة أمامه ، وأخذ ربنا المكذبين لنوح بالعذاب ، لذلك ألمح سيدنا هود فقط إلى احتمال العذاب حين قال : ﴿ أفلا تتقون ﴾ .

أى أن العذاب قد ينتظركم وينالكم مثل قوم نوح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

فى هذه الآية جاء قوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ ، وفى قصة نوح قال سبحانه :﴿ قال الملأ من قومه ﴾ ولم يأت فيها بالذين كفروا ، لأن قوم نوح لم يكن فيهم من آمن وكتم إيمانه وأخفاه ، بخلاف عاد قوم هود فإنه كان فيهم رجل اسمه مرثد بن سعد آمن وكتم وستر إيمانه ، فيكون قوله تعالى فى شأنهم : ﴿ الذين كفروا ﴾ قد جاء مناسبا للمقام ، لأن فيهم مؤمنا لم يقل ما قالوا من رميهم لسيدنا هود بالسفاهة حيث قالوا ما حكاه الله عنهم بقوله :

﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأعراف)

أما قوم نوح فقد قالوا :

﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأعراف)

فقال لهم نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأعراف)

ما الفرق بين الضلال والسفاهة ؟

الضلال هو مجانبة حق ، والسفاهة طيش وخفة وسخافة عقل ،وأضافت عاد اتهاماً آخر لسيدنا هود : ﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ .

والظن رجحان الأمر بدون يقين ، فهناك راجح ، ومرجوح ، أو أن الظن هنا هو التيقن . على حد قوله سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة البقرة)

أى يتيقنون ، وجاء بالرد من سيدنا هود :

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

وفى هذا القول نفى للاتهام بالسفاهة ، وإبلاغ لهم بأنه مبلّغ عن الله بمنهج تؤديه الآية التالية وهى قوله الحق :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

وسبق أن قال سبحانه على لسان نوح :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأعراف)

فلماذا قال فى قوم نوح : ﴿ أنصح لكم ﴾ ،وقال هنا فى عاد : ﴿ وأنا لكم ناصح أمين ﴾ ؟

لقد قال الحق : ﴿ أنصح لكم ﴾ فى قوم نوح لأن الفعل دائماً يدل على التجدد ، بينما يدل الاسم على الثبوت . ونظراً إلى أن نوحاً عليه السلام كان يلحّ على قومه ليلاً ونهاراً ، وإعلاناً وسرًا ، لذلك جاء الحق بالفعل : ﴿ أنصح لكم ﴾ ليفيد التجدد ، ولكن فى حالة قوم هود جاء سبحانه بما يفيد الثبوت وهو قوله : ﴿ ناصح أمين ﴾ ؛ لأن هوداً عليه السلام لم يلح ويكرر على قومه فى دعوتهم إلى الإيمان كماكان يفعل نوح عليه السلام .

ويقول سبحانه على لسان سيدنا هود :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

جاء الحق هنا بالذكر للإنذار فقال : ﴿ لينذركم ﴾ فقط ، وليس كما قال فى قوم نوح : ﴿ ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾ لأن الإنذار لم يأت لمجرد الإنذار ، بل لنرتدع ونتقى ، لِكى نُرحم ، إذن فحين يأتى بأول الحلقة وأول الخيط وهو الإنذار فنحن نستنتج الباقى وهو التقوى لنصل إلى الرحمة : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ .

وهذا كلام جديد ؛ لأن قوم نوح هم أول قوم عُذّبوا حين لم يؤمنوا ، وجاء سيدنا هود إلى عاد بعد ذلك ، يبلّغهم وينذرهم ليأخذوا العبرة من نوح وقومه :

﴿ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأعراف)

ويذكرهم سيدنا هود أن الحق قد أعطى لهم أجساماً فارعة فيها بسطة وطول ، ويقال : إن الطويل منهم كان يبلغ طوله مائة ذراع ، والقصير منهم كان يبلغ طوله ستين ذراعاً ، ويأمرهم سيدنا هود أن يذكروا آلاء الله ، أى نعمه عليهم ، وأول النعم أن أرسل إليهم رسولاً يأخذ بأيديهم إلى مناطق الخير .

فماذا كان ردهم ؟

يقول الحق :

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

كان المنطق أن يعبدوا الله وحده لا أن يعبدوا الشركاء الذين لا ينفعونهم ولا يضرونهم ، ولا يسمعونهم . بل إن الواحد منهم كان يرى الهواء يهب على الصنم ، فيميل الصنم ويقع على الأرض وتنكسر رقبته ، فيذهب إلى الحداد ليعيد تركيب رأس جديد للصنم ، فكيف يعبد مثل هذا الصنم ؟ لكنهم قالوا لهود : نحن نقلد آباءنا ولا يمكن أن نترك ما كان يعبد آباؤنا لأننا على آثارهم نسير . وإن كان إلهك ينذرنا بعذاب فأتنا به إن كنت من الصادقين . وهكذا وضح أنه لا أمل فى اقتناعهم بالدعوة إلى الإيمان .

فماذا يقول الحق بعد ذلك ؟

يجىء القول الفصل على لسان سيدنا هود :

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾

لقد كان يكلمهم ويكلمونه ، قالوا له : ائتنا بالعذاب ، فقال لهم : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ ، فكيف يقول وقع ؟ لقد قال ذلك لأنه يخبر عن الله . و « وقع » فعل ماض ، لكنا نعلم أن كلام الله مجرد عن الزمان ماضياً كان أو حاضرا ، أو مستقبلا ، لقد قال سيدنا هود:« وقع » والعذاب لم يقع بعد ، لكن لما كان قوله بلاغاً عن الله فإنّه يؤكد وقوع العذاب حتماً ؛ لأن الذى أخبر به قادر على إنفاذه فى أى وقت ، ولا إله آخر ولا قوة أخرى قادرة على أن تمنع ذلك . والذى وقع عليهم هو الرجس ، والرجس أى التقذير ، ضد التزكية والتطهير . وغضب الله الواقع لم تحدده هذه الآية . لكن لابد أن لهِ شكلاً سيقع به .

ويسائلهم هو ساخراً : ﴿ أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ ، وكل اسم يكون له مسمى ، وهذه الأسماء أنتم أطلقتموها على هذه الآلهة ، وهل لها مسميات حقيقية لِتعبد ؟ . لا ، بل أنتم خلعتم على ما ليس بإله أنه إله ، وهذه أسماء بلا مسميات ، وأنتم فى حقيقة الأمر مقلدون لآبائكم . وما تعبدونه أسماء بلا سلطان من الإله الحق .

﴿ مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأعراف)

أى ليس لهذه الأسماء من حجة على ما تقولون ، بدليل أنهم كانوا يسمون فى الجاهلية إلهاً باسم « العزّى » وعندما يكسرونه لا يجدون عزاً ولا شيئاً ؛ لأن هذا الإله المزعوم لم يدفع عن نفسه ، فكيف يكون إلهاً وقيّوما على غيره ؟ وكذلك سموا « اللات » أى الله ومضاف له التاء ، وعندما يكسرونه لا يجدون له قوة أو جبروتاً أو طغياناً .

ويقول هود لقومه ما يؤكد وقوع العذاب :

﴿ فَانتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ فانتظروا ﴾ ، جعلنا نفهم قوله السابق : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ بأن الرجس والغضب قادمان لا محالة . صحيح أنه عبر عن ذلك بالفعل الماضى ، ولكن لنقرأ قوله الحق :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

و « أتى » فعل ماضٍ ،وفى الظاهر أنه يناقض قوله :﴿ فلا تستعجلوه ﴾ لأن الاستعجال يدل على أنَّ الحدث لم يأت زمنه بعد . ولكن لنا أن نعلم أن الذى أخبر هو الله ، ولا توجد قوة ثانية تغير مرادات الله أن تكون أو لا تكون .

يقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

ونلحظ أن الحق قد بين وسيلة نجاة سيدنا نوح : ﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ .

أما هنا فى مسألة عاد فلم يوضح لنا وسيلة النجاة ، بل قال سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ فأنجيناه ﴾ تدل على أن عذاباً عاماً وقع ، إلا أن ربنا أوحى لسيدنا هود أن يذهب بعيداً عن المكان هو والذين معه قبل أن يقع هذا العذاب . وكان العرب قديماً إذا حزبهم أمر ، أودعتهم ضرورة إلى شيء خرج عن أسبابهم يذهبون إلى بيت الله ؛ ليضرعوا إلى الله أن يخلصهم منه ، حتى الكفرة منهم كانوا يفعلون ذلك . كما حدث من عاد حين أرسل الله إليهم سيدنا هودا نبيًّا فكذبوه وازدادوا عتوًّا وتجبراً فأصابهم جدب وظل ثلاث سنوات فما كان منهم ألا أن فزعوا إلى الكعبة لكى يدعوا ربهم أن يخفف عنهم العذاب ، وذهب واحد منهم اسمه « قيل بن عنز » ، وآخر اسمه « مرثد بن سعد » الذى كان يكتم إسلامه على رأس جماعة منهم إلى مكة ، وكان لهم بها أخوال من العماليق ؛ من أولاد عمليق بن لاوث بن سام بن نوح ، وكانوا هم الذين يحكمون مكة فى هذا الوقت ، وعلى رأسهم واحد اسمه « معاوية بن بكر » ، فنزلوا عنده ، وأكرم وفادتهم على طريقة العرب ، واستضافهم ضيافة ملوك وأمراء ، وجاء لهم بالقيان والأكل والشراب ، فاستمرأوا الأمر ، وظلوا شهراً ، فقال معاوية بن بكر : لقد جاءوا لينقذوا قومهم من الجدب ومافكروا أن يذهبوا إلى الكعبة، ولافكروا فى أن يدعوا ربنا وأخاف أن أقول لهم ذلك فيقولوا إنه ضاق بنا . وتكون سبّة فىّ . وأخذ يفكر فى الأمر . وكان عنده مغنيتان اسمهما « الجرادتان » . فقالت المغنيتان : قل فى ذلك شعراً ، ونحن نغنيه لهم ، فقال معاوية :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يمطرنا غماماً
فيسقى أرض عاد إن عادا ... قد أمسوا لا يبينون الكلاما

فلما غنتا ، والغناء فيه ترديد وخصوصاً إذا كان غناءً موجهاً « ألا يا قيل ويحك قم فهينم » وهينم : أى ادعو الله ، ألم تحضر من أجل الدعاء لعل الله يمطرنا الغمام على أرض عاد ، وينتهى الجدب ، وقد بلغ منهم الجهد أنهم لا يبينون الكلام ، فتنبه القيل ، وتنبه مرثد بن سعد ، وكان قد نمى إلى علم « القيل » أن مرثد بن سعد مؤمن بهود عليه السلام ، فرفض أن يصحبه معه ، وبالفعل ذهب قيل وأخذ يدعو الله ، فسمع هاتفاً يقول له : « اختر لقومك » وقد رأى سحابة سوداء وسحابة حمراء وسحابة بيضاء ، ونبهه الهاتف أن يختار سحابة تذهب لقومه من بين الثلاثة ، فاختار السحابة السوداء ، لأنها أكثر السحاب ماء ، وهو على قدر اجتهاده

اختار السحابة السوداء ، وعادوا لبلادهم ليجدوا السحابة السوداء، فقال لهم : أنا اخترت السحابة السوداء لأنها توحى بماء كثير منهمر ، وقال الحق فى هذا الأمر :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأحقاف)

أى أن هذه هى السحابة التى قال عليها :« قيل » سوف تعطينا المطر .

فيرد الحق عليهم ويقول لهم :

﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ ومن الآية ٢٥ سورة الأحقاف)

إذن فقولهم السابق لسيدنا هود الذى أورده الحق هنا فى سورة الأعراف :

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأعراف)

أى أن عذابهم يتأكد بالمطر والريح الذى جاء به قول سيدنا هود هنا فى سورة الأعراف : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ .

ولم يفلت من العذاب إلا من آمن مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

لقد يسّر الحق الانقاذ لسيدنا هود ومن آمن معه ليهجروا المكان لحظة ظهور السحاب ، فقد سمع هود هاتفاً يؤكد له أن فى هذا السحاب العذاب الشديد ، فأخذ الجماعة الذين آمنوا معه وهرب إلى مكة ، وتم إهلاك الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسولهم ورفضهم الإيمان بربهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

لقد قال سيدنا صالح لثمود مثلما قال سيدنا هود لعاد ، وحمل لهم الإنذار ليتقوا فيرحموا ، قال سيدنا صالح : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

إذن فالإنذار للتقوى وللوصول إلى الرحمة والفلاح ، ولذلك أقول دائماً : إن القرآن حينما يتعرض لأمر قد لا يأتى به مفصلا ولكن سياقه يوحى بالمراد منه ، ولا يكرر وذلك ليربى فينا ملكة الاستيقاظ إلى استقبال المعانى . والمثال على ذلك فى قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، يقول القرآن على لسان سيدنا سليمان :

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة النمل)

ويهدد سيدنا سليمان الهدهد قائلاً :

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾

(من الآية ٢١ سورة النمل)

ثم جاء الهدهد ليقول :

﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة النمل)

ثم أرسل سيدنا سليمان الهدهد إلى قوم سبأ قائلاً :

﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة النمل)

وبعد هذه الآية مباشرة قال القرآن :

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة النمل)

وكأن الهدهد قد ذهب بالكتاب ، ورماه إلى ملكة سبأ ، وقالت هي الرد مباشرة . إذن لم يكرر القرآن ما حدث ، بل جعل بعضاً من الأحداث متروكاً للفهم من السياق .

وكذلك هنا فى قوله الحق :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

وكلمة « أخاهم » هنا تؤكد أن سيدنا صالحاً كان مأنوساً به عند ثمود ، ومعروف التاريخ لديهم ، وسوابقه فى القيم والأخلاق معروفة لهم تماماً وأضيفت ثمود له لأنه أخوهم . وقد جاءت دعوته مطابقة لدعوة نوح وهود .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

والبينة هى الدليل على الصدق فى البلاغ عن الله ، وهى الناقة . فما قصة الناقة ؟ هل خرج لهم بناقة ونسب ملكيتها لله ؟ بطبيعة الحال ، لا ، بل لابد أن تكون لها قصة بحيث يعلمون أن هذه الناقة ليست لأحد من البشر . وحين قام سيدنا صالح بدعوته ، تحداه السادة من قومه ، وقالوا : نقف نحن وأنت ، نستنجد نحن بآلهتنا ، وأنت تستنجد بإلهك ، وإن غلبت آلهتنا تتبعنا ، وإن غلب إلهك

نتبعك ، وجلسوا يدعون آلهتهم ، فلم يحدث شيء من تلك الآلهة ، وهنا قالوا لسيدنا صالح : إن كنت صادقاً في دعوتك ، هذه صخرة منفردة أمامك في الجبل اسمها « الكاثبة » فليخرج ربك لنا من هذه الصخرة ناقة هي عشراء كالبخت - أحسن أنواع الإبل - ، فدعا الله سبحانه وتعالى ، وانشقت الصخرة عن الناقة ، وخروج الناقة من الصخرة لا يدع مجالاً من الشك في أنها آية من الله ظهرت أمامهم . إنها البينة الواضحة . لقد انشقت الصخرة عن الناقة ووجدوها ناقة عشراء ، وَبْرَاء - أي كثيرة الوَبَر - يتحرك جنينها بين جنبيها ثم أخذها المخاض فولدت فصيلاً ، وهكذا تتأكد الآية الإلهية دون أن يجرؤ أحد على التشكيك فيها ، وهي ناقة من الله وهو القائل :

﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشمس)

وأوضح لهم سيدنا صالح أنها ناقة الله ، وترونها رؤية مشهدية وهذه الناقة لها يوم في الماء لتشرب منه ، ويوم تشربون أنتم فيه . وكان الماء قليلاً عندهم في الآبار .

﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الشعراء)

أي لابد من تخصيص يوم لتشرب فيه هذه الناقة ، ولكم أنتم وإبلكم وحيواناتكم يوم آخر ، وكان من عجائب هذه الناقة أن تقف على العين وتشرب فلا تدع فيها ماءً ، وهي كمية من المياه كانت تكفي كل الإبل . وبعد ذلك تتحول كل المياه التي شربتها في ضرعها لبناً ، فيأخذون هذا اللبن .

صحيح أن الناقة منعتهم المياه لكنهم أخذوا منها اللبن الذي يطعمونه ، ولأنها ناقة الله كان لابد أن تأخذ هيكلاً وحجماً يناسبها وكمية من الطعام والشراب مناسبة لتقيم بها حياتها ، وكمية إدرار اللبن مناسبة لشربها وطعامها وحجمها ، فمادامت منسوبة لله فلابد أن فيها مواصفات إعجازية ، وكان الفصيل الذي ولدته معها ، وكان إذا ما جاء الحر في الصيف تسكن الناقة في المشارف العالية ، وبقية النوق تنزل في الأرض الوطيئة ، وحين يأتي الشتاء تنزل إلى المناطق المنخفضة .

والمعروف أن مدائن صالح كانت منطقة شديدة الحرارة ، ويمكن لمن يزور المدينة أو « تبوك » أن يمر عليها .

كانت الناقة حرة فى اختيار المكان الذى تعيش فيه صيفاً أو شتاءً فلا أحد بقادر أن يمسها بسوء . وكانت هناك امرأتان لهما نياق . وناقة الله تغلب نياق المرأتين فى المراعى والماء . فأحضرت المرأتان رجلاً يطلق عليه : « أُحَيْمر ثمود : واسمه قُدار بن سالف » ليقتلها ، فقتل الناقة ، فلما قتلت الناقة ، طلع ابنها الفصيل على جبل يسمى « قارة » وخار ثلاثة أصوات ، فنادى سيدنا صالح : يا قوم أدركوا هذا الفصيل ، لعل الله بسبب إدراككم له يرفع عنكم العذاب ، فراحوا يتلمسونه فلم يجدوه وأعلم الله صالحاً النبى أن العذاب قادم ، ففى اليوم الأول تكون وجوههم مصفرة ، وفى اليوم الثانى تكون محمرة ، وفى اليوم الثالث تكون مسودّة ، فقد كانت الناقة هى ناقة الله المنسوبة له سبحانه ، وقد تأكدوا بالأمر المشهدى من ذلك ، وكان من الواجب عليهم ساعة أن وجدوا الآية الكونية المشهودة أن يأخذوا منها العبرة ، وأنها مقدمة للشىء الموعود به . لكنَّ الغباء أنساهم أنها ناقة الله .

﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

وبالفعل حدث العذاب بعد أن قتل أحيمرثمود الناقة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ

ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

ومن قبل قال الحق لقبيلة عاد :

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأعراف)

وهنا قال الحق : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ .

لأن عاداً هم الخلفاء الأقرباء منهم ، وقصتهم مازالت معروفة ومعالمها واضحة ، أما قصة نوح فهى بالتأكيد أقدم قليلاً من قصة عاد .

ويذكرهم الحق أيضاً أنه جعل لهم فى الأرض منازل يسكنونها ، فاتخذوا من سهولها قصوراً ، والسهل هو المكان المنبسط الذى لا توجد به تلال أو صخور أو جبال ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ، وكان عمر الإنسان منهم يطول لدرجة أن البيت ينهدم مرتين فى العمر الواحد للإنسان . ولذلك قرروا أن يتخذوا من الجبال بيوتاً لتظل آمنة ، وحين يرى الإنسان مدائن صالح منحوتة فى الجبل فهى فرصة لأن يتأمل عظمة الحق فى تنبيه الخلق إلى ما يفيدهم وهى بالفعل من نعم الله ، ويقول سبحانه :

﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأعراف)

وآلاء الله ـ كما عرفنا ـ هى نعمه التى لا تحصى ، وينبههم إلى عدم نشر الفساد فى الأرض .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ

لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾

ونعرف أن هناك سادة ، وهناك أتباعاً . ومن قبل قال الحق :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ ﴾

(من الآية ١٦٦ سورة البقرة)

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها حوار بين السادة وبين المستضعفين الذين لا جاه لهم ولا جبروت يُحافظ عليه ، ورأوا دعوة الإيمان ووجدوا فيها النفع لهم فأقبلوا عليها ، أما الملأ وهم السادة الأشراف الأعيان الذين يملأون العين هيبة ، والقلوب مهابة فقد قالوا لمن آمن من المستضعفين ـ لأن هناك مستضعفين ظلوا على ولائهم للكفر ـ قال هؤلاء الملأ من المستكبرين لمَن آمن من المستضعفين :

﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأعراف)

وعندما سمع المستكبرون قول المؤمنين من المستضعفين . فماذا قال الملأ المستكبرون ؟

يقول الحق :

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾

إذن فقد أعلنوا الكفر بالقول وضموا إليه الكفر بالعمل وهو قتل الناقة ، ويقول الحق :

﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

والعقر : هو الذبح بالنسبة للنوق .

وهم هنا يقولون أيضاً مثلما قال السابقون لهم :

﴿ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

(من الآية ٧٧ سورة الأعراف)

و « الصادقين » تؤول أيضاً إلى المرسلين . لقد اتهموا صالحاً عليه السلام بالكذب كنبى مرسل لهم برغم حدوث الآية الواضحة وهى خروج الناقة من الجبل ، لذلك يحل عليهم غضب الله المتمثل فى قوله الحق :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

والرجفة هى الهزة التى تحدث رجة فى المهزوز . ويسميها القرآن مرة بالطاغية . فى قوله الحق :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) ﴾

(سورة الحاقة)

والتى أصبحوا من بعدها « جاثمين » ، وهو التعبير الدقيق الذى يدل على أن الواحد منهم إن كان واقفاً ظل على وقوفه ، وإن كان قاعداً ظل على قعوده ، وإن كان نائماً ظل على نومه. أو كما نقول : « انسخطوا على هيئاتهم » .

« فالجاثم » هو من لزم مكانه فلم يبرح أو لصق بالأرض .

وبعد أن أخذهم بالرجفة يقول الحق :

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ (٧٩) ﴾

فهل كان سيدنا صالح يخاطبهم وهم موتى ؟ . نعم يخاطبهم إنصافاً لنفسه وإبراء لذمته ، مثلما يقع واحد فى ورطة فيقول له صديقه : لا أملك لك شيئاً الآن : فقد نصحتك من قبل . أو أن شريراً قد قُتل ، فتقول له : « ياما نصحتك » . وأنت تتكلم لكى تعطى لنفسك براءةالعذر ، أو كما فعل صلى الله عليه وسلم مع قتلى بدر وناداهم واحداً واحداً بعد أن ألقوا جثثهم فى قليب بدر ، وقال صلى الله عليه وسلم : يا أهل القليب ، يا فلان ، يا فلان ، يا فلان ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا ، فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقًا ، فقال الصحابة :

ـ أو تكلمهم يا رسول الله وقد جيَّفوا . قال : والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى .

وكأن سيدنا صالح قال ذلك ليتذكروا كيف أبلغهم رسالات الله ومنهجه ونصح لهم وتحنن عليهم أن يلتزموا بمنهج الله ، لكنهم لم يستمعوا للنصح . ولم يحبوا الناصحين ؛ لأن الناصح يريد أن يُخرج المنصوح عما ألفه من الشر ، وعندما ينصحه أحد يغضب عليه .

وبعد أن انتهى من قصة ثمود مع نبيهم يقول سبحانه :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

وكما قال الحق : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً ﴾ وقال : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ ، ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ فهو هنا يأتى باسم « لوط » منصوباً لأنه معطوف على من سبقه من أصحاب الرسالات .

وما هو زمان الإرسال ؟ إن قوله الحق : ﴿ إذ قال لقومه ﴾ يفيد أن زمن القول كان وقت الإرسال . وهى الإشارة القرآنية ذات الدلالة الواضحة على أن الرسول حين يبعث ويرسل إليه ويبلّغ الرسالة لا يتوانى لحظة فى أداء المهمة ، فكأن تبليغ الرسالة تزامن مع قوله : ﴿ يا قوم ﴾ . والأسلوب يريد أن يبين لك أنه بمجرد أن يقال له :« بلغ » فهو يبلغ الرسالة على الفور ، وكأن الرسالة جاءت ساعة التبليغ فلا فاصل بينهما .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف)

وكلمة « قومه » تعنى أنه منهم ، ولماذا لم يقل : « أخاهم لوطاً » ؟ وهذه لها معنى يفيد أن السابقين من الرسل كانوا من بيئة الأقوام الذين أرسلوا إليهم ؛ فعاد كان « هود » من بيئتهم ، و« ثمود » كان صالح من بيئتهم . وإذا كان الحق لم يقل « أخاهم لوطاً » فلنلحظ أنه أوضح أنه قد أرسله إلى قومه ، وهذه تنبهنا إلى أن لوطاً

لم يكن من هذا المكان ، لأن لوطاً وإبراهيم عليهما السلام كانا من مدينة بعيدة ، وجاء إلى هذا المكان فراراً من الاضطهاد هو وإبراهيم عليهما السلام ، وهذا يبين لنا أن لوطاً طارىء على هذا المكان ، ولم يكن أخاهم المقيم معهم فى البيئة نفسها . ولكنهم « قومه » لأنه عاش معهم فترة فعرف بعضهم بعضاً ، وعرفوا بعضاً من صفاته ، وأنسوا به .

أقول ذلك لننتبه إلى دقة أداء القرآن ، فمع أن القصص واحد فسبحانه يضع لنا التمييز الدقيق ، ولم يقل لهم لوط : إن ربى نهاكم عن هذه العملية القذرة وهى إتيان الرجال . بل أراد أن يستفهم منهم استفهاماً قد يردعهم عن العملية ويقبحها .

وكان استفهام سيدنا لوط هو استفهام تقريع ، واستفهام إنكار ، فلم يقل لهم : إن ربنا يقول لكم امتنعوا عن هذا الفعل ، بل يستنكر الفعل كعمل مضاد للفطرة ، واستنكار فطرى .

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف)

وهذا يدل على أنه يريد أن يسألهم سؤالاً إنكاريًّا ليحرجهم ، لأن العقل الفطرى يأبى هذه العملية : ﴿ أتاتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ .

أى أن هذه المسألة لم تحدث من قبل لأنها عملية مستقذرة ؛ لأن الرجل إنما يأتى الرجل فى محل القذارة ، لكنهم فعلوها ، وهذا الفعل يدل على أنها مسألة قد تشتهيها النفس غير السويَّة . ولكنها عملية قذرة تأباها الفطرة السليمة .

وكلمة « فاحشة » تعطينا معنى التزيد فى القبح ؛ فهى ليست قبحاً فقط ، بل تَزَيُّدٌ وإيغال وتعمق فى القبح ومبالغة فيه ؛ لأن الفاحشة تكون أيضاً إذا ما أتى الرجل أنثى معدةٍ لهذه العملية لأنه لم يعقد عليها ، ولم يتخذها زوجا ، وعندما يتزوجها تصير حِلاً له ، لكن إتيان الذكر للذكر هو تزيد فى الفحش . وإذا كان هذا الأمر محرماً فى الأنثى التى ليست حلالاً له ويعد فاحشة ، فالرجل غير مخلوق

لمثل هذا الفعل ولا يمكن أن يصير حلالاً ، يكون إتيانه فاحشة بمعنى مركّب .

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف)

وقلنا من قبل: إن « مِن » قد تأتى مرة زائدة ، ويمكنك أن تقول إنها زائدة فى كلام الإنسان ، لكن من العيب أن تقول ذلك فى كلام ربنا . وقوله : ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ .

أى ما سبقكم أحدٌ من العالمين ، و« أحد » هى الفاعل ، وجاءت « من » لتوضح لنا أنه لم يأت بها أحد ابتداءً ، مثلما قلنا قديماً ، حين تأتى لواحد لتقول له : « ما عندى مال » . فأنت قد نفيت أن يكون عندك مال يعتد به . وقد يكون معك عدة قروش وهى لا تعتبر مالاً . ولكن إن قلت : ما عندى من مال ، أى ليس عندى من بداية ما يقال له إنه مال ، وقوله الحق :

﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف)

يعنى أنه لم يسبقكم أى أحدٌ من بداية ما يقال له أحد ، وسبحانه يريد بذلك أن ينفيها أكثر ، و« من » التى فى قوله : ﴿ من العالمين ﴾ هى تبعيضية أى ما سبقكم بها أحد « من بعض » العالمين . فما هذا الأمر ؟ لقد سماها فاحشة ، وهى تزيد فى القبح ووصفه لها بأنها لم يأتها أحد من العالمين جعلها مسألة فظيعة للغاية . لأننا حين نبحث هذه المسألة بحثاً عقليًّا نجد أن الإنسان مخلوق كخليفة فى الأرض وعليه استبقاء نوعه ؛ لأن كل فرد له عمر محدود ، ويخلف الناس بعضهم بعضاً ، ولابد من بقاء النوع ، وقد ضمن الله للإنسان الأقوات التى تبقيه ، وحلل له الزواج وسيلة لإبقاء النوع ، ومهمة الخلافة تفرض أن يخلف بعضنا بعضاً . وكل خليفة يحتاج إلى اقتيات وإلى إنجاب . و« الاقتيات » خلقه الله فى الأرض التى قدر فيها أقواتها .

والنوع البشرى جعل منه سبحانه الذكر والأنثى ومنهما يأتى الإنجاب الخلافى ؛

فهو محمول أولاً فى ظهر أبيه نطفة ، ثم فى أمه جنيناً ثم تضعه لترعاه مع والده ، ويربيه الاثنان حتى يبلغ رشده . وهذه خمس مراحل ، وكل مرحلة منها شاقة ، فحمل الأم فى الطفل تسعة شهور هو أمر شاق ؛ لأن الإنسان منا إن حمل شيئاً طوال النهار سيصاب بالتعب ، لكن الأم تحمل الجنين تسعة أشهر ، وأراد الله أن يكون الحمل انسيابيًا بمعنى أن الجنين فى نشأته الأولى لا يبلغ وزنه إلا أقل القليل ، ثم يكبر بهدوء وبطء لمدة تسعة شهور حتى يكتمل نموه .

وهذا الجنين كان صغيراً فى بدء تكوينه ، ثم صار وزنه غالباً ثلاثة كيلوجرام فى يوم ولادته ، وبين بدء تكوينه إلى لحظة ميلاده هناك فترة زمنية ينمو فيها هذا الجنين تدريجيًا ، وبشكل انسيابى ، فهو لا يزيد فى الوزن كل ساعة ، بل ينمو فى كل جزء من المليون من الثانية بمقدار يناسب هذا الجزء من الثانية ، وهذا يعنى أن الجنين ينمو انسيابيا بما يناسب الزمن .

نلحظ ذلك أيضاً فى أثناء التدريب على رياضة حمل الأثقال أنهم لا يدربون اللاعب الناشىء على حمل مائة كيلوجرام من أول مرة بل يدربونه على حمل عشرين كيلوجراما فى البداية ، ثم يُزاد الحمل تباعاً بما لا يجعل حامل الأثقال فى عنت ، ويسمون ذلك : انسياب التدريب ؛ لأن حمل هذه الأثقال يحتاج إلى تعوّد ، ولهذا لا يتم تدريبه على حمل الأثقال فجأة ، بل بانسياب بحيث لا يدرك الزمن مع الحركة ، كذلك النمو ، فأنت إذا نظرت إلى طفلك الوليد ساعة تلده أمه ، وسأقدر جدلاً أنك ظللت تنظر إليه دائماً ، فهو لا يكبر فى نظرك أبداً ، لأنه ينمو بطريقة غير محسوسة لديك ، لكنك لو غبت شهراً عنه وتعود لرؤيته ستدرك نموّه ، وهذا النمو الزائد قد تجمع فى الزمن الفاصل بين آخر مرة رأيته فيها قبل غيابك وأول مرة تراه بعد عودتك .

ومن لطف الله ـ إذن ـ فى الحمل أن الجنين ينمو انسيابيًا ، ولذلك يزداد الرحم كل يوم من بدء الحمل إلى آخر يوم فيه ، وترى الأم الحامل ، وهى تسير بوهن وتبطىء فى حركتها ، ثم يأتى الميلاد مصحوباً بمتاعب الولادة وآلامها ، وبعد أن يولد المولود تستقبله رعاية أمه وأبيه ، ويأخذ سنوات إلى أن يبلغ الرشد . ونعلم أن أطول الأجناس طفولة هو الإنسان ، ولذلك نجد الأب الذى يريد الإنجاب يتحمل

مع الأم متاعب التربية ، وقد قرن الله هذا الأمر بشهوة ، وهى أعنف شهوة تأتى من الإنسان ، وبعد ميلاد الطفل نجد المرأة تقول : لن أحمل مرة أخرى ، ولكنها تحمل بعد ذلك .

إذن كأن الشهوة هى الطُعم الموضوع فى المصيدة ليأتى بالصيد وهو الإنجاب ؛ لذلك قرن الحق الإنجاب بالشهوة لنقبل عليها ، وبعد أن نقبل عليها ، ونتورط فيها نتوفر ونبذل الجهد لنربى الأولاد . فإذا أنت عزلت هذه الشهوة عن الإنجاب والامتداد تكون قد أخللت وملت عن سنة الكون ، لأنك ستأخذ اللذة بدون الإنجاب ، وإذا تعطل الإنجاب تعطلت خلافة الأرض ، والشىء الآخر أن الرجل فى الجماع يلعب دور الفاعل ، وفى الشذوذ وهو العملية المضادة التى فعلها قوم لوط ينقلب الرجل إلى منفعل بعد أن كان فاعلاً .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والفاحشة هى العملية الجنسية الشاذة ، ولم يحددها سبحانه من البداية كدليل على أنها أمر معلوم بالفطرة ، فساعة يقول : ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ يعرفون ما فعلوا . وإن افترضنا أن هناك أغبياء أو من يدعون الغباء ويرفضون الفهم ، فقد جاء بعدها بالقول الواضح :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

والإسراف هو تجاوز الحد ، والله قد جعل للشهوة لديك مصرفاً طبيعيًا منجبا ، وحيت تأخذ أكثر من ذلك تكون قد تجاوزت الحد ، ولقد جعل الله للرجل امرأة من جنس البشر وجعلها وعاء للإنجاب ، وتعطيك الشهوة وتعطيها أنت الشهوة ، وتعطيك الإنجاب ، وتشتركان من بعد ذلك فى رعاية الأولاد . وأى خروج

عما حدده الله يكون الدافع إليه هو الشهوة فحسب ، لكن ينبغى أن يكون الدافع إلى هذه العملية مع الأنثى هو الشهوة والإنجاب معاً ؛ لبقاء النوع ، ولذلك وصف الحق فعل قوم لوط : ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ .

ويأتى الحق سبحانه بما أجابوا به عن سؤال سيدنا لوط :

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

وبذلك تمادى هؤلاء القوم رافضين أن يقبح أحد لهم الشذوذ ، لذلك قالوا : ﴿ أخرجوهم من قريتكم ﴾ .

وما هى الحجة التى من أجلها يطلبون إخراج لوط والذين آمنوا معه من القرية ؟

﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الأعراف)

فهل التطهر عيب ؟ لا ، لكنهم عاشوا فى النجاسة وألفوها ، ويرفضون الخروج منها ؛ لذلك كرهوا التطهر . والمثال على ذلك حين نجد شابًّا يريد أن ينضم إلى صداقة جماعة فى مثل عمره ، لكنه وجدهم يشربون الخمر ، فنصحهم بالابتعاد عنه ، ووجدهم يغازلون النساء فحذرهم من مغبة الخوض فى أعراض الناس ، لكن جماعة الأصدقاء كرهت وجوده بينهم لأنه لم يألف الفساد فيقولون : لنبتعد عن هذا المستقيم المتزهد المتقشف ، وكأن هذه الصفات صارت سُبة فى نظر أصحاب المزاج المنحرف ، مثلهم مثل الحيوان الذى يحيا فى القذارة ، وإن خرج إلى النظافة يموت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

وهم حين أرادوا طرد لوط وأهله ، إنما كانوا يجازفون .

إنهم بذلك قد تعجلوا العقاب ، وجاءهم العقاب وأنجى الحق سبحانه لوطاً وأهله بتدبير حكيم لا يحتاج فيه سبحانه إلى أحد ، وإذا تساءل أحد : ومن هم أهل لوط الذين أنجاهم الله معه ؟ أهم أهل النسب أم أهل التدين والتبعية ؟ . إن كان أهله بالنسب فالحق يستثنى منهم « امرأته » ، وهذا دليل على أن أهل البيت آمنوا بما قاله لوط وكذلك الأتباع أيضاً : ﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ .

إذن كان مع لوط أيضاً بعض من أهله وبعض من الأتباع ، وكانوا من المتطهرين ، والتطهر هو أن يترفع الإنسان عن الرجس والسوء . ولذلك نجد سيدنا شعيباً حين ينصح قومه :

﴿ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

ويتعجب القوم سائلين شعيبا :

﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة هود)

إنهم يتعجبون من أن الصلاة تنهى عن ذلك ، لقد أعمى ضلالهم بصيرتهم ، فلم يعرفوا أن الصلاة تنهى عن كل سوء . وكذلك فعل بعض من الكافرين حين اتهموا سيدنا رسول الله بأنه مجنون :

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الحجر)

ومن قولهم يتأكد غباء تفكيرهم ، فماداموا قد قالوا : ﴿ نزل عليه الذكر ﴾ فمن الذى نزّل هذا الذكر ؟ ، والذكر هو القرآن ، والذى نزله هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ فكيف يعترفون بالقرآن كذكر ، ثم يتهمون الرسول بأنه « مجنون » ؟ ؛ لأنهم ماداموا قد قالوا عن القرآن إنه ذكر ، وإنه قد نزل عليه ، ولم يأت به من عنده ، فكيف يكون مجنوناً ؟ إنهم هم الكاذبون ، وقولهم يؤكد أن فكرهم نازل هابط .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحق يقول سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن امرأة سيدنا لوط لم تدخل فى الإنجاء لأنها من الغابرين ، و « غبر » تأتى لمعانٍ متعددة ، فهى تعنى إقامة ومكثا بالمكان ، أو تعنى أى شىء مضى ، كما يقال : هذا الشىء غبرت أيامه ؛ أى مضت أيامه ، ولسائل أن يقول : كيف تأتى الكلمة الواحدة للمعنى ونقيضه ؟ فغبر تعنى بقى ، وغبر أيضاً تعنى مضى وانتهى . نقول : إن المعنى ملتقٍ هنا فى هذه الآية ، فمادام الحق ينجيه من العذاب الذى نزل على قوم لوط فى القرية فنجد زوجته لم تخرج معه ، بل بقيت فى المكان الذى نزل فيه العذاب ، وبقيت فى الماضين ، وهكذا يكون المعنى ملتقيا . فإن قلت مع الباقين الذين آتاهم العذاب فهذا صحيح . وإن قلت إنها صارت تاريخاً مضى فهذا صحيح أيضاً : ﴿ إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ .

ونحن لا ندخل فى تفاصيل لماذا كانت امرأته من الغابرين ؛ لأن البعض تكلم فى حقها بما لا يقال ، وكأن الله يدلس على نبى من أنبيائه ، لا ، نحن لا نأخذ إلا ما قاله الحق بأنها كانت مخالفة لمنهجه وغير مؤمنة به . ونلحظ أيضاً أن الحق تحدث عن امرأة نوح وامرأة لوط فى مسألة الكفر ؛ فقال :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾

(من الآية ١٠ سورة التحريم)

ودقق النظر فى كلمة ﴿ تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ﴾ وتساءل البعض عن معنى الخيانة وهل المقصود بهاالزنا ؟ . ونقول : ربنا لا يدلس على نبى له ، لكن أن تؤمن الزوجة أو تكفر ، فهذه مسألة اختيارية . وكأن الله سبحانه يوضح لنا أن الرسول مع أنه رسول من الله إلا أنه لا يستطيع أن يفرض إيماناً على امرأته ؛ فالمسألة هى حرية الاعتقاد . وانظر إلى التعبير القرآنى : ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ﴾ .

إياك أن تظن أن أيًّا منهما كانت متكبرة على زوجها ؛ لأن الحق يقول : ﴿ كانتا تحت عبدين من عبادنا ﴾ أى أن إمرة وقوامة الرجل مؤكدة عليها ، يشير إلى ذلك قوله : ﴿ كانتا تحت عبدين ﴾ لكن الإيمان هو مسألة اختيار ، وهذا الاختيار متروك لكل إنسان ، وأكد الحق ذلك فى مسألة ابن سيدنا نوح :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

وحاول البعض أن يلصق تهمة الزنا بامرأة نوح وامرأة لوط ، وهم فى ذلك يجانبون الصدق ، إنه محض افتراء ، وقد نبهنا الحق إلى ذلك فقال عن امرأة نوح وامرأة لوط :

﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا ﴾

(من الآية ١٠ سورة التحريم)

ولنفهم أن الاختيار فى العقيدة هو الذى جعلهما من الكافرين ، وأن الرسولين نوحاً ولوطاً لم يستطيعا إدخال الإيمان فى قلبى الزوجتين ؛ حتى يتأكد لدينا أن العقيدة لا يقدر عليها إلا الإنسان نفسه ، ولذلك ضرب سبحانه لنا مثلاً آخر :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة التحريم)

فهذه زوجة فرعون المتجبر ؛ الذى « ادّعى الألوهية » ، لكنه لا يقدر أن يمنع

امرأته من أن تؤمن بالله ، وهكذا نجد نبيًا لا يقدر أن يقنع امرأته بالإيمان ، ونجد مدّعى الألوهية عاجزاً عن أن يجعل امرأته كافرة مثله ، وهذا يدل على أن العقيدة أمر اختيارى محمى بكل أنواع الحماية ؛ حتى لا يختار الإنسان دينه إلا على أساس من اقتناعه لا على أساس قهره .

وضرب الله مثلاً آخر :

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة التحريم)

ونلاحظ أن الحق لم يأت بأسماء زوجتى نوح ولوط ، وكذلك لم يأت باسم امرأة فرعون ، لكنه أورد لنا اسم مريم واسم والدها . فلماذا كان الإبهام أولاً ؟ لنعلم أنه من الجائز جدًّا أن يحصل مثل هذا الأمر لأى امرأة ، فقد تكون تحت جبار وكافر ، وتكون هى مؤمنة ، وقد تكون تحت عبد مؤمن ولا يلمس الإيمان قلبها .

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فكلمة « أنجينا » تشير إلى أن عذاباً سيقع فى المكان الذى فيه قوم لوط ، ولأنه سبحانه شاء أن يعذب جماعة ولا يعذب جماعة أخرى ، فلابد أن يدفع الجماعة التى كتب لها النجاة إلى الخروج . وهذا الخروج أراده لهم من يكرهونهم ، فقد قالوا :

﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الأعراف)

لكن ربنا هو الذى أخرجهم ، والإخراج كان من العذاب الذى نزل بهؤلاء المجرمين ؛ إنه كان لإنجاء لوط وأهله مما نزل بهؤلاء الفجرة .

ويأتى العذاب من الحق :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

فهل كان ذلك المطر مثل المطر الذى ينزل عادة ؟ لا ، بل هو مطر من نوع آخر . فسبحانه يقول :

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

يقول الحق : إنه سيعذبهم بالمطر ، فلننتبه أنه ليس المطر التقليدى ، بل إنه يعذبهم ويستأصلهم بنوع آخر من المطر .

وقوله : « فانظر » أى فاعتبر يا من تسمع هذا النص ، وهذه القصة تبيّن وتوضح أن الله لا يدع المجرمين يصادمون دعوة الله على لسان رسله دون عقاب .

ويقول سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

و « مدين » هو ابن من أبناء سيدنا إبراهيم جاء واستقر فى هذا المكان ، فهو علم على شخصه ، وعلم على المكان الذى أقام فيه وسمى المكان باسمه ، فلما تكاثر أبناؤه وصاروا قبيلة أخذت القبيلة اسمه . إذن فـ « مدين » اسم عَلَمٌ على ابن إبراهيم ، وأطلق على المكان الذى استقر فيه من طور سيناء إلى الفرات ، وأطلق على القبيلة : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ .

والحق سبحانه وتعالى هنا يكرر كلمة « أخ » ليبين لك ؛ أنه إن قسا عليهم مرة فسيحنو عليهم مرة أخرى ؛ لأنهم إخوة له ومأنوس بهم ، وفيهم عاش ويعرفون عنه كل شىء ، وكان مدين قد تزوج من رقبة ابنة سيدنا لوط ، وحين تكاثر الاثنان صاروا قبيلة ، ويبلغهم سيدنا شعيب بالقضية العقدية التى يبلغها كل رسول : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

والعبادة هى الطاعة للأمر والطاعة للنهى ، وأنت لا تطيع أمر آمر ولا نهى ناهٍ إلا إذا كان أعلى منك ، لأنه إن كان مساويا لك ، فبعد أن يقول لك : « افعل كذا » ستسأله أنت : لماذا ؟ ، وبعد أن ينهاك عن شىء ستسأله أيضاً : لماذا ؟ . لكن الأب حينما يقول لطفله : لا تفعل الشىء الفلانى ، فالابن لا يناقش ؛ لأنه يعرف أن أباه هو من يطعمه ويشربه ويكسوه ، وحين يكبر الطفل فهو يناقش ؛ لأن ذاتيته تتكون ، ويريد أن يعرف الأمر الذى سيقدم عليه .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

وما دام قد قال لهم : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ فهو رسول قادم ومرسل من الله ، ولابد أن تكون له معجزة يثبتها ، إلا أن شعيباً لم يأت لنا بالمعجزة ، إنما جاء بالبينة .

﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

لأن كل المعاصى والكفر تدفع إلى الإخلال فى الكيل والميزان ، وإذا كان شعيب قد قال ذلك لقومه فلا بد أن الإخلال فى الكيل والميزان كان هو الأمر الشائع فيهم . فيأتى ليعالج الأمر الشائع . وهم كانوا يبخسون الكيل والميزان . ويظن الناس فى ظاهر الأمر أنها عملية سهلة ، وأن القبح فيها قليل ، والاختلاس فيها هين يسير ، فحين يبخس فى الميزان ولو بجزء قليل ، إنما يأخذ لنفسه فى آخر الأمر جزءًا كبيراً . وأنت ساعة تكيل وتزن وتطفف فأنت تفعل ذلك فى من يشترى . وستذهب أنت بعد ذلك لتشترى من أناس كثيرين سيفعلون مثلما فعلت ، فإذا ماوفيت الكيل والميزان ، فأنت تفعل ما هو فى مصلحتك ، لأنك تنشر العدل السلوكى بين الناس بادئاً بنفسك ، ومصالحك كلها مع الآخرين .

إنك حين تبيع أى سلعة ولو كانت بلحاً وتنقص فى الميزان ، ستحقق لنفسك ربحاً ليس لك فيه حق ، وإن كنت تكيل قمحاً لتبيعه وأنقصت الكيل ، فأنت تأخذ ما ليس لك ، والقمح والبلح هما بعض من مقومات حياتك ؛ لأنك تحتاج إلى سلع كثيرة عند من يزن ، وعند من يكيل ، فإن أنقصت الميزان أو الكيل فلسوف يفعلون مثلما فعلت فيما يملكون لك ، وبذلك تخسر أنت ويصبح الخسران عاماً .

﴿ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

وإذا كانت الخسارة فى الكيل والميزان طفيفة ومحتملة ، فمن باب أولى ألا نبخس الناس أشياءهم فلا نظلمهم بأخذ أموالهم والاستيلاء على حقوقهم ، فلا نسرق لأن السارق يأخذ ما تصل إليه يده، ولا نغصب ، ولا نختلس ، ولا نرتشى ، لأنه إذا كان وفاء الكيل هو أول مطلوب الله منكم مع أن الخسارة فيه طفيفة ، إذن فبخس الناس أشياءهم يكون من باب أولى .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

وبذلك نكون أمام أكثر من أمر جاء بها نبى الله شعيب : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ وهذه العبادة لتربى فيهم مهابة وتزيدهم حبًا واحتراماً للآمر الأعلى ،

وكذلك ليخافوا من جبروته سبحانه . وبعد ذلك ضرورة يكون الأمر بالوفاء بالكيل والميزان ، والزجر عن أن يبخسوا الناس أشياءهم ، ثم النهى والتحذير من الإفساد فى الأرض ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ ، والإصلاح الذى يطلبه الله منا أن نستديمه أو نرقيه إنما يتأتى بإيجاد مقومات الحياة على وجه جميل .

مثال ذلك الهواء وهو العنصر الأول فى الحياة المسخرة لك ؛ يصرّفه سبحانه حتى لا يفسد . والنعيم الثانى فى الحياة وهو الشراب ؛ إنه سبحانه ينزل لك الماء من السماء ، ثم القوت الذى يخرجه لك من الأرض . والمواشى التى تأخذ منها اللبن ، والأوبار ، والأصواف ، والجلود ، كل ذلك سخره الله لك ، وهذا إصلاح فى الأرض ، لكن هل هذه كل المقومات الأساسية ؟ لا ؛ لأنه إن وجدت كل هذه المقومات الأساسية ثم وجد الغصب ، والسرقة ، والرشوة ، والاختلاس ، فسيفسد كل شىء ، ولا يعدل كل ذلك ويقيمه ويجعله سويا إلا الدين ؛ لأنه كمنهج يمنع الإفساد فى الأرض .

﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

إذن فهذه الأشياء التى هى إيفاء الكيل والميزان يأتى الأمر بها ، ثم يتبعها بما ينهى عنه وهو ألا نبخس الناس أشياءهم وألا نفسد فى الأرض بعد إصلاحها ، كل ذلك يجمع المنهج . أوامر ونواهى ، وقد يبدو فى ظاهر الأمر أنها مسائل تقيد حرية الإنسان ، فنقول : لا تنظر إلى نفسك أيها الإنسان وأنت بمعزل عن المجتمع الواسع ، فأنت لا تملك من مصالحك إلا أمراً واحداً ، وهذا الأمر الذى تملكه أنت من مصالحك يكون أقل الأشياء عندك ، ولكن الأمور الأخرى التى تحتاج إليها هى بيد غيرك ، فإن أنت وفيت الكيل والميزان . فذلك خير لك ؛ فالذى يقيس لك القماش لا يغشك ، والذى يزن لك ما ليس عندك لا يغشك ، والذى يكيل لك الذى ليس عندك لا يغشك ، إذن فأنت واحد منهى عن أن تفعل ذلك ، وجميع الناس منهيون أن يفعلوا ذلك معك ، وبذلك تكون أنت الكاسب .

وإذا جئت إلى قوله تعالى : ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ ، فأنت مأمور ألا تبخس الناس أشياءهم ، وكل الناس مأمورون ألّا يبخسوك شيئاً ، وإذا أفسدت فى الأرض بعد إصلاحها فالناس مأمورون أيضاً ألّا يفسدوا هذه الأرض وبذلك تكون أحظ منهم فى كل شىء . ولذلك يجب على كل مكلّف حين يستقبل تكليفاً قد يكون شاقاً على نفسه أن يتأمل هذا التكليف وأن يقول لنفسه : إياك أن تنظر إلى مشقة التكليف على نفسك ، ولكن انظر إلى ما يؤديه إليك من الآخرين ، فإن قال التكليف لك : لا تنظر إلى محارم غيرك ، فقد أمر غيرك ألّا ينظر إلى محارمك ، وفى هذا عزة لك . وإذا أمرك التكليف ألّا تضع يدك فى جيب غيرك وتسرق ، فقد أمر كل الناس ألّا يضعوا أيديهم فى جيوبك ليسرقوك ، وبهذا نعيش فى أمان .

وإذا طلب التكليف منك وأنت غنى أن تخرج زكاة مالك إياك أن تقول : مالى وتعبى وعرقى ؛ لأن المال مال الله ، وأنت كإنسان مخلوق ليس لك إلا توجيه الحركة ، والحركة تكون بطاقة مخلوقة لله ، والعقل الذى خطط مخلوق لله ، والانفعال الذى انفعل لك فى الأرض من خلق الله ، ولكن الحق احترم عملك وناتجه وفرض عليك أن تخرج منه زكاة مُقدرة. فإياك أن تقول : إنه يأخذ منى ، لماذا ؟ لأن عالم الأغيار بادٍ وظاهر أمامك ، وكم رأيت من قوى ضعفت ، ومن غنى افتقر ، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن تعطى الفقير وتقوته ، فإن افتقرت فسيفعل لك ذلك ، وفى ذلك تأمين حياتك ؛ لأنك تعيش فى مجتمع ، فلا تأس على نفسك إن مرت بك الأغيار لأن مجتمعك الإيمانى لن يتركك ، أنت أو أولادك ، ويقول الحق :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

فإن أردت أن تطمئن على أولادك الصغار بعد موتك فانظر للأيتام فى مجتمعك وكن أباً لهم ، وحين تصير أنت أباً لهم ، وهذا أب لهم ، وذلك أب لهم ، سيشعر اليتيم أنه فقد أبا واحداً ، لكنه يحيا فى مجتمع إيمانى أوجد له من كل المؤمنين آباء ، فلا يحزن ، وكذلك لن تخاف أنت على أولادك إن صاروا أيتاماً بعد أن

غادرتهم إلى لقاء ربك ؛ لأنك رعيت اليتامى وعشت فى مجتمع يرعاهم . ولكنك تحزن عندما ترى يتيماً مضيعاً فى مجتمع لا يقوم على شأنه وتقول لنفسك : أنا إن مت سيضيع أبنائى هكذا .

وهكذا تكون تكاليف الإيمان هى تأميناً للحياة . ومثال ذلك حين نقول للمرأة : تحجبى ، ولا تبدى زينتك لغير محارمك ، قد تظن المرأة فى ظاهر الأمر أننا ضيقنا على حريتها ، لأنَّها تنسى أن المنهج يؤمِّن لها قبح الشيخوخة ، لأنها حين تتزوج صغيرة ، ثم يصل عمرها فوق الأربعين ويتغير شكلها من متاعب الحمل وتربية الأبناء ، ثم يرى زوجها فتاة فى العشرين وغير محتشمة قد تفتنه وتصرفه عن زوجته ، وينظر إلى زوجته نظر غير المكترث بها ، وغير الراغب فيها . فالشرع قد أمر بالحجاب للمرأة وهى صغيرة ؛ ليصون لها زوجها إن صارت كبيرة غير مرغوب فيها . فإن منعها وهى صغيرة فقد منع عنها وهى كبيرة ؛ كل ذلك إذن من تأمينات المنهج للحياة .

إذن فإيفاء الكيل ، وعدم إبخاس الناس أشياءهم وعدم الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها خير للجميع فى الدنيا ، بالإضافة إلى خير الآخرة ، ولذلك يذيل الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

و « ذلكم » إشارة إلى ما سبق من الأمر بعبادة الله فلا إله غيره وإلى الأمر باستيفاء الكيل والميزان ، وألا نبخس الناس أشياءهم ، وألا نفسد فى الأرض بعد إصلاحها ، ووضع الحق ذلك فى إطار ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ على الرغم من أن الخير سيأتى أيضاً لغير المؤمن ، وهكذا تكون كلمة « خير » تشمل خيراً فى الدنيا ، وخيراً فى الآخرة للمؤمن فقط . أما الكافر فسيأخذ الخير فى الدنيا فقط ، ولا خير له فى الآخرة ، فإن كنتم مؤمنين فسيتضاعف الخير لكم ليصير خيراً دائماً فى الدنيا والآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وقوله : ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط ﴾ أى لا تقعدوا على كل طريق ، لأن من يقعد على الطريق قد يمنع من يحاول الذهاب ناحية الرسول . والشيطان قد قال :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

فحين تقعدون على كل صراط يصير كل منكم شيطاناً والعياذ بالله ؛ لأن الشيطان قال لربنا : ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ ، وهنا ينهى الحق عن القعود بكل صراط ؛ لأن الصراط سبيل ، وحين يجمع الحق السبل لينهى عنها ، إنما ليذكرنا أن له صراطاً مستقيماً واحداً ، وسبيلاً واحداً يجب علينا أن نتبعه . ولذلك يقول :

﴿ فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

إذن فللشيطان سبل متعددة وسبيل الاستقامة واحد ، لأن للطرق المتعددة غوايات منوعة ، فهذا طريق يغوى بالمال ، وذلك يغوى بالمرأة ، وذاك يغوى بالجاه . إذن فالغوايات متعددة .

أو أن الهداية التى يدعو إليها كل رسول شائعة فى كل ما حوله ؛ فمن يأتى ناحية أى هداية يجد من يصده . ومن يطلب هداية الرسول يلقى التهديد والوعيد ، والمنع عن سبيل الحق . ولماذا يفعلون ذلك ؟ تأتى إجابة الحق : ﴿ وتبغونها عوجا ﴾ .

إنهم يبغون ويودون شريعة الله معوجة ومائلة وزائغة عن الاستقامة ، أو تصفونها بأنها غير مستقيمة لتصدوا الناس عن الدخول فيها ، ولتنفروا منها ، مثال ذلك السخرية من تحريم الخمر والادعاء بأنها تعطى النفس السرور والانسجام . إن الواحد من هؤلاء إنما ينفر من شريعة الله ، ويدعى أنها شريعة معوجة ، فنجد من يحلل الربا ؛ لأن تحريم الربا فى رأيهم السقيم المنحرف يضيق على الناس فرصهم . إنهم يبغون شريعة الله معوجة ليستفيدوا هم من اعوجاجها ، وينفروا الناس منها .

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة الأعراف)

نعلم أن كل ردع ، وكل توجيه يهدف إلى أمرين اثنين : ترغيب وترهيب ، وعلى سبيل المثال نجد المدرس يقول للتلاميذ : من يجتهد فسنعطيه جائزة ، وهذا ترغيب ، ويضيف الأستاذ قائلاً للتلاميذ : ومن يقصر فى دروسه فسنفصله من المدرسة ؛ وهذا ترهيب . وما دام الناس صالحين لعمل الخير ولعمل الشر بحكم الاختيار المخلوق فيهم لله فلا بد من مواجهتهم بالأمرين بالترغيب فى الخير والترهيب من الشر .

والحق هنا يقول فى الترغيب : ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ﴾ .

وكأنه يطالبهم بأن يكونوا أصحاب ذوق وأدب ، فنحن نعلم أن مدين تزوج وأنجب عدداً من الذرية وكانوا قلة فى العدد فكثرهم حتى صاروا قبيلة ، وكانوا ضعافاً فقواهم ، وكانوا فقراء فأغناهم ، فمن صنع فيكم ولكم كل هذه المسائل ألا يصح أن تطيعوا أوامره . كان عليكم أن تطيعوا أوامره . وهذا ترغيب وتحنين .

ونعلم أن شعيباً هو خامس نبى جاء بعد نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط . لذلك يذكرهم الحق بما حدث لمن كذبوا الأنبياء الأربعة السابقين . وقد يكون قوم نوح معذورين لأنهم كانوا البداية ، فلم يسبقهم من أخذ بالعذاب لتكذيب رسلهم ، ثم صارت من بعد ذلك قاعدة هى أن من يكذب الرسل يلقى العذاب ، مصداقا لقوله الحق :